موسوعة

عالم الأديان

كل الأديان . المذاهب . الفرق . البدع في العالم





موسوعة عالم الأديان

كل الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم

فرق ومذاهب إسلامية

مجموعة من كبار الباحثين

بإشراف

ط. ب. مفرّج

موسوعة

عالم الأديان

كلّ الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم

الجزء الثّالث والعشرون

فرق ومذاهب إسلاميّة

NOBILIS

طبعة أولى ـ ٢٠٠٤

طبعة ثانية ـ ٢٠٠٥

إسم المَجموعَة	:	موسوعَـــة عَالَـــم الأديَـــان كُلُّ الأديَان والمَذاهِب والفِرَق والبِدَع في العَالَم
إسم الكِتَاب	:	فِرَقٌ ومَذاهِب إسلاَميَّة
الجِزء	:	الثَّالِث والعشرُون
المؤلّف	:	مجمُوعَة مِن كبَار البَاحِثين بإشراف ط. ب. مفَرّج
قياس الكتَاب	:	٢٠ × ٢٨
مَكَان النَّشر	:	بيروت
دَار النَّشر والتَّوزيع	:	NOBILIS
تلفاكس	:	٩٦١ ـ ١ ـ ٥٨١١٢١
	:	٩٦١ ـ ٣ ـ ٥٨١١٢١

المحتويات

نشوءُ الفِرَق في الإسلام

يرى بـاحثون مسـلمون[1] أنّ الفـرق الإسـلاميّة لا تدخـل تحـت حصـر. والمؤلّفـون الإسلاميّون المتقدّمون الذين كتبوا عن الفرق، وبخاصّة من هم من أهـل السنّة، أرادوا أن يحصروها استنادًا إلى حديث موضوع يُروى عـن أبـي هريـرة، مفـاده أنّ النبـيّ ﷺ قال:

> إفترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصـارى علـى اثنتَيـن وسـبعين فرقة، وتفترق أمّتي على ثلاث وسبعين فرقة.

ويذكر الباحث رواية أخرى يظهر فيها الداعي إلى وضع الحديث، تروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص المتوفّي سنة ٦٥هـ/ ٦٨٤م، أنّ النبيّ ﷺ قال:

> ليأتيَنّ على أمّتي ما أتى على بني إسرائيل: تفرّق بنو إسرائيل علـى اثنَيـن وسـبعين فرقة، وستفترق أمّتي على ثلاث وسبعين ملّة، تزيد عليهم ملّـة، كلّهـم فـي النّـار إلاّ ملّة واحدة.

فقالوا: يا رسول الله، وما الملّة التي تنقلب؟ قال:

> ما أنا عليه وأصحابي.

---

١ ـ بدوي د. عبد الرحمن، مذاهب الإسلاميّين، ج١، المعتزلة والأشاعرة، دار العلم للملايين (بيروت،١٩٧١) ص٣٣.

ولهذا الحديث، بصوره المختلفة، أسانيد كثيرة، استوفاها الحافظ الزيلعي في تخريج أحاديث "الكشّاف". وتعدّد رواته عن النبيّ ﷺ، كأنس بن مالك، وأبي هريرة، وأبي الدرداء، وجابر، وأبي سعيد الخدري، وأبيّ بن كعب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبي أمامة، وواثلة بن الأسقع...، ومع ذلك، يقول الباحث، "لا يمكن أن يكون الحديث صحيحًا"، موردًا جملة أسباب، أهمّها أنّ هذا الحديث لم يظهر له ذكر في ما ورد من مؤلّفات من القرن الثاني، بل ولا الثالث هجريّ، ولو كان صحيحًا لورد في عهد متقدّم. ثمّ ذكر الباحث أنّ كلّ فرقة قد أعطت لختام الحديث الرواية التي تناسبها. فأهل السنّة جعلوا الفرقة الناجية هي أهل السنّة، والمعتزلة جعلوها فرقة المعتزلة، وهكذا. وقد ظهر التعسّف البالغ لدى مؤرّخي الفرق في وضعهم فروقًا وأصنافًا داخل التيّارات الرئيسيّة حتّى يستطيعوا الوصول إلى ٧٣ فرقة؛ وفاتهم أنّ افتراق المسلمين لم ينته عند عصرهم، وأنّه لا بدّ ستنشأ فرق جديدة باستمرار، ما يجعل حصرهم هذا خطأ تمامًا[١].

ويذهب أحد كبار العلماء[٢] إلى القول بأنّ الناس قد دأبوا على تبديل شرائع أنبياء الله وتحريف كتبهم من بعدهم، وكلّما حرّف الناس كتاب نبيّ وبدّلوا شريعته جدّد الله دينه بإرسال نبيّ جديد حتّى اقتضت حكمته أن يختم النبوّات بإرسال خاتم أنبيائه محمّد ﷺ، فضمن حفظ كتابه بنفسه وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٣].

---

١ ـ بدوي، مذاهب الإسلاميّين، ١:٣٣ ـ ٣٤.

٢ ـ آل كاشف الغطاء الإمام الأكبر محمّد الحسين، أصل الشيعة وأصولها، منشورات مؤسّسة الأعلى للمطبوعات (بيروت،١٩٧٧) ص٦.

٣ ـ الحجر: ٩.

ويضيف العالم الإمام: تضمّن القرآن الأصول الرئيسيّة لشريعة الإسلام من صلاة وزكاة وحجّ إلى كلّ ما يحتاجه الإنسان من عبادات ومعاملات وسائر الأحكام. وبيّن الرسول ﷺ عدد ركعات الصلاة وأذكارها، وعيّن أنصبة الزكاة وعلّم مناسك الحجّ وحدّد مواقيته. وهكذا سائر الأحكام في القرآن وأصوله، وفي سنّة الرسول تبيينه وتحديده، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[1] ولمّا كان الناس قد كذبوا على رسول الله في حياته كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام:

لقد كُذب على رسول الله ﷺ على عهده حتّى قام خطيبًا فقال: من كذب عليّ متعمّدًا فليتبوّأ مقعده من النّار"[2]. ولم يكفّ الناس عن الكذب عليه من بعده. ومن هنا وقع التغيير في أحكام الإسلام في هذه الأمّة، فإذا كان الله قد حفظ كتابه العزيز من التحريف فقد مدّت الأيدي إلى الحديث الشريف الذي فيه شرح القرآن وتحديد مفاهيمه، فغيّرت منه وبدّلت، ووضعت على رسول الله ﷺ من الكذب والافتراءات ما وضعت. ومن ثمّ وقع الخلاف بين أبناء هذه الأمّة في كلّ جانب من جوانب الدين الإسلاميّ وعقائده وأحكامه، في صفات الله: أهو جسم وله أعضاء وجوارح، وهل يرى يوم القيامة وكيف يرى[3]؟ وفي القرآن: أمخلوق هو أم قديم؟ وفي أنبيائه أهم معصومون من كلّ جانب؟ أم معصومون عن الكذب في تبليغ الوحي فحسب، وقد صدرت منهم المعاصي! وفي كيفيّة تلقّي خاتم الأنبياء ﷺ الوحي:

---

١ ـ من الآية ٧ من سورة الحشر.

٢ ـ راجع الخطبة ٢٠٨ من نهج البلاغة؛ وصحيح البخاري، باب "إثم من كذب على النبيّ" من كتاب: العلم وفتح الباري، ١:٢٠٩.

٣ ـ يورد هنا آل كاشف الغطاء هذه الحاشية: راجع كتاب التوحيد لابن خزيمة، نشر مكتبة الكليّات الأزهريّة بمصر (١٣٨٧هـ)؛ وكلمة حول الرؤية للسيّد عبد الحسين شرف الدين، ط. النعمان في النجف.

أحسب النبيّ جبرائيل شيطانًا يتلعّب به أم أدرك أنّه الروح الأمين نزل بالقرآن على قلبه[1]؟

وهكذا وقع الخلاف بين جميع جوانب التشريع الإسلاميّ. أمّا كيف نشأ الخلاف في كلّ هذه المسائل؟ فلعلّ الباحث المتتبّع يدرك بيسر وسهولة، أنّها نشأت على أثر تدخّل الحكّام فيها مدى القرون، فإنّ الحكّام، على الأغلب، كانوا إذا اقتضت سياسة الحكم عندهم أمرًا أقرّوه، ثمّ أوّل المتزلّفون إليهم القرآن بموجبه ورووا الحديث عن النبيّ ﷺ في تأييدهم. ثمّ أصبح ما تبنّاه الحكّام قانونًا يعمل به ومثّل الإسلام الرسميّ، وأهمل ما خالفه ونبذ المخالف وعوقب بقسوة إلى حدّ القتل تارة، وأخرى دون ذلك. وأخيرًا ارتأت السلطات أن تقسر الأمّة على الأخذ بفتاوى أحد أئمّة المذاهب الأربعة في الفقه وآراء الأشعري في العقائد[2].

ورغم أنّ هذا الإجراء قد حدّ من نشوء الفرق في الإسلام، فإنّ علماء شيعة يرون فيه أنّه قد أدّى إلى "جمود طوائف من المسلمين على تقليد مؤلّفي الصحاح في الحديث وخاصّة البخاري ومسلم، فسدّوا على أنفسهم باب العلم بسدّهم باب البحث في الحديث كما سدّ عليهم باب الاجتهاد بقسرهم على تقليد أحد الأئمّة الأربعة". ويرى هؤلاء العلماء أنّه "إذا كانت غالبيّة الأمّة تابعت حكّامها في ما أقرّت وتبنّت، فقد كان في الأمّة أئمّة جاهدت في سبيل الحفاظ على التشريع الإسلاميّ من الضياع والتبديل وعلى سنّة الرسول من التحريف والتصحيف، وأولئك هم أئمّة أهل بيت الرسالة، وتابعهم من الأمّة من سُمّوا بشيعة أهل البيت، حمل علماؤهم الحديث

---

١ ـ يورد هنا آل كاشف الغطاء هذه الحاشية: راجع بدء نزول الوحي على رسول الله في كتب السنّة والشيعة.

٢ ـ آل كاشف الغطاء، أصل الشيعة وأصولها، مرجع سابق، ص٦ ـ ٩.

بعد النبيّ ﷺ عن أئمّة أهل البيت، وجاهدوا في سبيل المحافظة عليها ونشرها إلى يومنا هذا"[1].

إلاّ أنّ ظهور الفرق في الإسلام، ليس معتبرًا من قِبَل جميع العلماء أنّه مجرّد تبعيّة للحكّام لأغراض سياسيّة. بل هناك من يرى أنّ للفلسفة الإسلاميّة تاريخ حافل بأعلام أصحاب المذاهب الذين أنشأوا أنظمة فكريّة استندت إلى التراث اليونانيّ من ناحية، والتراث الفكريّ الإسلاميّ من ناحية أخرى. ونتج عن هذا التأثير المزدوج مركّب فكريّ خاصّ يمتاز بالأصالة إذا ما قورن بسائر التيّارات الفكريّة في تاريخ الإنسانيّة. ومن هنا كان من الواجب أن يدرس قائمًا برأسه بوصفه إسهامًا خاصًّا في الفكر العالميّ[2].

فبانتقال الخلافة من أصحاب الرسول، إلى سواهم، مع نهاية عهد عليّ عليه السلام وبداية عهد معاوية بن أبي سفيان، وبتحوّل مركز خلافة المسلمين من المدينة، موئل هجرة الرسول ﷺ وأصحابه، إلى دمشق، حيث تعدّد الأديان والأجناس والتيّارات الفكريّة، أصبحت الظروف مهيّأة مرّة أخرى لظهور التيّارات الجديدة في الإسلام. وإذا كان لظهور التيّارات الأولى، في نهاية عهد الراشدين، سبب رئيسيّ في اتّساعها، هو دخول قوميّات فارسيّة وعراقيّة إلى مجتمع المدينة والجزيرة عمومًا، فإنّ أسبابًا مماثلة ستلعب دورها في ظهور التيّارات والفرَق في عهد الأمويّين بعد انتقال الخلافة، معهم، إلى دمشق.

---

١ ـ آل كاشف الغطاء، أصل الشيعة وأصولها، مرجع سابق، ص٩ ـ١٠.

٢ ـ بدوي، مذاهب الإسلاميّين، ص٣.

وإذا كان العرب في وضع الانغلاق على سائر الحضارات وهم في الجزيرة، فإنّ الوضع أصبح مختلفًا في مركز الخلافة الجديد: دمشق، حيث سُمح لمن لم يعتنقوا الإسلام بأن يبقوا، أهل ذمّة، دون أن يُجبَروا على مغادرة البلاد. حتّى إنّ الخلفاء الأمويّين، وأوّلهم معاوية، قد أدخلوا المسيحيّين السوريّين في الجيش، واستعان معاوية بآل سرجون السوريّين المسيحيّين الذين تولّوا شؤون بيت المال، وظلّت هذه الوظيفة وراثيّة بينهم[1].

على وجه العموم، يمكن القول: "إنّه عندما بادر السوريّون والعراقيّون والفرس والقبط والبربر إلى الدخول في حظيرة الإسلام، وامتزجوا بالعرب عن طريق الزواج، زال الحاجز الذي كان يفصل بين الفريقَين، وغدا المسلم، كائنًا ما كانت جنسيّته الأصليّة، يُقبِل على تعلّم العربيّة، فيُعتبر في جملة العرب. على أنّ العرب أنفسهم لم يصطحبوا من الجزيرة شيئًا من العلم أو الفنّ أو التقليد الفكريّ أو التراث الثقافيّ، إنّما جاؤوا بعنصرَين جديدَين من عناصر الثقافة، هما اللغة العربيّة والدين الإسلاميّ، أمّا في ما سوى ذلك، فقد وجدوا أنفسهم مضطرين إلى الاعتماد على الشعوب التي غلبوها على أمرها، فكانوا يكتسبون من مواليهم الكثير من معارفهم الثقافيّة. وبذلك غدوا مثالا آخر على المنتصر التي يتعاون مع المقهور. فإذا نحن تحدّثنا، مثلاً، عن الطبّ والفلسفة أو الرياضيّات عند العرب، فلسنا نعني ضرورةً أنّها من نتاج العقل العربيّ وحده، أو أنّها نمت وازدهرت برعاية سكّان الجزيرة العربيّة؛ بل نقصد أنّها أودعت كتبًا عربيّة ألّفها علماء من السوريّين والفرس والعراقيّين والمصريّين والعرب، من

---

١ - راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، دار الثقافة، (بيروت،١٩٥٨) ٢: ١١٤ ـ ١١٥؛ حتّي، صانعو التاريخ العربي، دار الثقافة (بيروت،١٩٦٩) ص٦٨.

مسيحيّين ويهود ومسلمين، بعد أن استمدّوا أصولها من منابع يونانيّة وآراميّة وهنديّة وفارسيّة، ونميّز ذلك من المصادر[1].

وهنا، يبدو لنا أنّ أكثر الباحثين الذين ركّزوا في معالجاتهم على جهة تأثير الإسلام في المذاهب الفكريّة والروحيّة لأهل الأمصار التي تمّ فتحها، قد أغفلوا شأن تأثير تلك المذاهب... في الإسلام. ومن هذا التأثير الأخير، نشوء المذاهب الإسلاميّة، في عهد الأمويّين، على أرض الشأم.

فقد ظهرت في العصر الأمويّ حركات دينيّة فلسفيّة عديدة، غلب عليها اسم الفرَق. ذلك أنّ احتكاك المسلمين بالنصارى في سورية أثار ضربًا من التأمّل الدينيّ والنقاش الفكريّ، انتهى بظهور عدد من تلك الفرق، من أشهرها القدريّة، والمعتزلة، والمرجئة.

أمام هذا الواقع، يبدو لنا أنّه لا يجوز تعميم وصف معيّن وتصنيف واحد وحكم شامل على جميع الفرق الإسلاميّة من دون تمييز. لذلك سنكتفي في هذا الكتاب بالتعريف المقتضب لأهمّ الفرق الإسلاميّة بحسب الترتيب الموسوعي الألفبائي، بتجرّد، تاركين الحكم على مدى صوابيّة أو إسلاميّة معتقد كلّ منها لسوانا من أهل الكفاءة والعلم والاختصاص. ونودّ أن نؤكّد على أنّ تعريفنا بهذه الفرق هو مجرّد عرض إنّما يتوخّى، حصرًا، تعميم المعرفة من خلال ما تيسّر لنا من مراجع في هذا المجال.

وقبل الدخول في التعريف بالفرق الإسلاميّة بحسب الترتيب الموسوعيّ الألفبائيّ، ارتأينا أن نمهّد لذلك بالحديث عن بداية ظهور الفرق في الإسلام.

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ١٠٤.

بِدَايَــة ظهُــور
الفرَق في الإسلاَم

لعلّ "الموالي"، هم أوّل فرقة ظهرت في الإسلام. ويذكر أحد المحقّقين المحدثين، أنّهم "أولئك الذين كانوا يعيشون بين العرب أنفسهم، ممّن دخلوا الإسلام من الفرس، جاؤوا كأسرى حرب أو كصنّاع وتجّار ورقيق. وإذا كان بعض هؤلاء قد دخل الإسلام عن إيمان حقيقيّ به، إلاّ أنّ الإسلام لم يبلغ في قلوب بعضهم الآخر مبلغًا كبيرًا، بل ربّما انطوت هذه القلوب على غير قليل من الحقد على هؤلاء العرب الذين مزّقوا أوصال بلادهم، ووطئوا بأقدامهم سيادتها. وكان هؤلاء الحاقدون من أوّل أسباب الفرقة والخلاف بين المسلمين. وإذا كان مقتل عمر قد جاء على يد واحد منهم، فإنّ الفتنة التي حدثت بعد ذلك، أيّام عثمان، ثمّ ما تبعها من انقسام المسلمين وظهور مختلف الفرق والأحزاب التي خرج بعضها على الإسلام نفسه، وإن تظاهر بالإيمان والشدّة فيه... كان وراءَها نفس هؤلاء الحاقدين[1]...". ومَن يتوخّى الدقّة في البحث يتبيّن له أنّ الموالي إنّما كانوا طبقة في بداية الإسلام وليس فرقة، وقد كانت تلك الطبقة من المسلمين الأعاجم الذين أُجبروا، بشكل أو بآخر، على اعتناق الإسلام، وبذلك أصبحوا يتمتّعون بكامل حقوق الرعويّة الإسلاميّة. وإذ كان على هؤلاء أن ينضمّوا إلى بعض القبائل العربيّة عن طريق موالاتهم لها، لُقّبوا بالموالي: أي بالموالين لتلك القبائل، فاعتُبروا طبقة اجتماعيّة دُنيا في المجتمع الإسلاميّ. وهذا ما جعلهم يحقدون على ذلك الواقع وينضمّون إلى أولى الحركات الثوريّة في الإسلام، ملتحقين بالشيعة في العراق وبالخوارج في بلاد فارس.

---

١ ـ مظهر سليمان، قصّة الديانات، مكتبة مدبولي (القاهرة،١٩٩٥) ص٥٢٦.

وهكذا يتّضح أنّه وإن لم يكن للموالي فكرٌ لاهوتيّ أو معتقد يمكن أن يصنّفهم كفرقة بالمعنى الحقيقيّ لمفهوم التسمية، ولكنّهم كانوا، على ما يبدو، أساسًا في نشوء بعض الفرق في زمن مبكّر من تاريخ الإسلام، وهي الفرق التي أطلق عليها الباحثون وصف الغلاة.

الفِرقُ الإسلاميَّة

بحسب التَّرتيب الألفبائيّ

الآغاخانيّة

فرقة من النزاريّة[1]، غير أنّ أتباعها يعتقدون بالآغاخان، ويقولون بعصمته، ويقدّسونه ويؤدّون إليه خمس ما يكسبون، وهم موجودون في الهند وباكستان وإيران وشرقي أفريقيا ومنهم بعض في سورية. وبينما اعتبر باحثون أنّ آغاخان المذكور هو اللقب الذي أطلقوه على إمامهم المعصوم حسن علي شاه المتوفّي سنة ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م، الذي كان قد أعلن انتسابه إلى النزاريّة[2]، ردّ باحثون آخرون[3] أصل الآغاخانيّة إلى آغاخان المحلاّتيّ، الجدّ الأعلى لهذه الأسرة، وهو السيّد أبو الحسن خان من أهالي كهك التّابعة لمدينة قم، من سادات الإسماعيليّة، الذي كان له أتباع كثيرون في الهند وآسيا الوسطى، يستلم منهم النذورات. وقيل إنّ الأشخاص الذين لم يستطيعوا تقديم نذوراتهم مباشرة، كانوا يلقونها في البحر معتقدين أنّها ستصل إلى إمامهم. وتوفّي السيّد أبو الحسن خان هذا سنة ١٢٠٧هـ/ ١٧٩٢م، وخلفه نجله شاه خليل اللّه الذي قُتل سنة ١٢٣٢هـ/١٨١٦م، في نزاع بين أتباعه وبين الإماميّة الإثني عشريّة. فخلفه حسن علي شاه المذكور أعلاه، المتوفّي سنة ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م، وكان قد خرج في إيران، إلاّ أنّه فشل وتمّ نفيه بمساعدة الإنكليز، فانتقل إلى بومباي في الهند حيث اعترفت به الطائفة الإسماعيليّة إمامًا ولقّب بآغاخان الأوّل[4]، وهو دفين مقبرة

---

١ ـ راجع: النزاريّة في هذا الكتاب.

٢ ـ الإسكندراني محمّد، موسوعة الأديان الميسّرة، دار النفائس، ط٢ (بيروت،٢٠٠٢) ص١٤.

٣ ـ موسوعة الأديان في العالم، EDITO CREPS (بيروت،٢٠٠٠ ـ ٢٠٠١).

٤ ـ لآغا خان الأوّل رسالة بعنوان "عبر أفزا" طبعت في بومباي، وقد أطلق على نفسه في تلك الرّسالة إسم "محمّد حسن الحسينيّ حسن علي شاه".

"حسن أباد" في بومباي. وبعد وفاته، تولّى ابنه آغا علي شاه الحسينيّ أو آغا خان الثّاني الذي توفّي سنة ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤م، ونُقل جثمانه إلى النجف الأشرف. ثمّ تولّى الإمامة محمّد الحسيني إبن آغا علي شاه (١٨٧٧ - ١٩٥٧) الذي عُرف باسم "سلطان محمّد شاه آغا خان الثّالث"[١]، وهذا أوصى بدوره لحفيده الإمام الحاليّ "البرنس كريم شاه الحسيني" المعروف بآغاخان الرابع[٢].

ترى فرقة الآغاخانيّة أنّ إمامها شخصيّة روحيّة، وتعتبره مظهرًا لصفات الإمام عليّ عليه السلام، ويعتقد أصحابها بأنّ الإمام يجب أن يكون حيًّا وتكون أوامره قابلة للتنفيذ ما دام حيًّا، وإذا مات فإنّ أوامر الإمام بعده تحلّ محلّها. وتبلّغ أوامر الإمام إلى "دار الجماعة" الي يُطلقون عليها اسم "جماعة خانة" بواسطة مَن يسمّونه "الوزير". ويطلبون التأويل والتفسير حول شؤون الدين من الإمام. ولهم أدعيتهم وطقوسهم وشعائرهم الخاصّة بهم التي تختلف عن تلك التي لسائر الفرق الإسلاميّة. ولهم دعاء يُقرأ بعد سورة الفاتحة كالآتي:

---

١ - منح الإنكليز هذا السلطان لقب"سير SIR"، وأصبح إمامًا روحيًا للإسماعيليين النّزاريّين في الهند، وكذلك إمامًا للخوجات والإسماعيليّين في إيران، وآسيا المركزيّة، وسوريا، وشرق أفريقيا، انتُخِبَ رئيسًا لمجلس مسلمي الهند، وظلّ في هذا المنصب مدّة سبع سنين، وفي سنة ١٩٣٢، أصبح ممثّل الهند في مؤتمر نزع السلاح، ورئيسًا لهيئة ممثّلي الهند في عصبة الأمم، وفي سنة ١٩٣٧ انتُخِب أمينًا عامًا لعصبة الأمم، بمناسبة الذكرى الخامسة لإمامته (١٩٣٦ - ١٩٣٧) أهداه إسماعيليّو اسيا وأفريقيا والهند في بومباي ونيروبي ذهبًا خالصًا يعادل وزنه، وفي ١٩٤٦ قدّموا له ماسًا يعادل وزنه أيضًا، وفي ١٩٥٤ـ ١٩٥٥ أهدوه ما يعادل وزنه من البلاتين، حصل على الجنسيّة الإيرانيّة ومنحه محمّد رضا بهلوي لقب "حضرت والا" أي "صاحب السيادة"، توفّي في جنيف ودُفن في مقبرة العائلة في أسوان.

٢ - وُلد كريم آغا خان في جنيف ١٩٣٦، درس في جامعة "هاروارد"، وأُقيمت مراسيم تقليده الإمامة في مدينة دار السّلام في تنزانيا من شرق أفريقيا، من أبنائه الأمير علي خان في إيطاليا، وقد تزوج الممثّلة الأميركيّة المعروفة ريتا هيوارث التي أنجبت ابنة دُعيت ياسمين، كما تزوّج فرنسيّة أنجبت ولدًا دعي صدر الدين خان. الإسكندراني، موسوعة الأديان الميسّرة، مرجع سابق، ص٤١ موسوعة الأديان في العالم، مرجع سابق.

سجد وجهي إليك وتوكّلت عليك، منك قوّتي وأنت عصمتي يا ربّ العالمين، اللّهم صلّ على محمّد المصطفى وعلى عليّ المرتضى وعلى الأئمّة الأطهار، وعلى حجّة الأمر صاحب الزمان والعصر إمامنا الحاضر الموجود مولانا شاه كريم الحسينيّ. اللّهم لك سجودي و طاعتي.

الإباضيّة

تُنسب الإباضيّة إلى عبد الله بن إباض التميمي. وهي فرقة انبثقت بالأساس من الخوارج في الربع الأخير من القرن الأوّل للهجرة (نهاية القرن السابع للميلاد). يعود أصل النشأة إلى جابر بن زيد الأزدي العماني، الذي كان قد واكب عبد الله ابن إباض.

وجدت هذه الدعوة في عُمان تربة خصبة، وهي بلد جابر بن زيد، ولا تزال الإباضيّة، حتّى اليوم، منتشرة في عمان، وكذلك انتشرت في أوّل عهدها في اليمن وحضرموت وزنجبار، وانتقلت إلى المغرب حيث انتشرت ولا تزال في كلّ من الجزائر وليبيا وتونس. ومن الإباضيّة اليوم مجموعات متماسكة لها نظامها، إضافة إلى عمان، في كلّ من ورجلة ومزاب وجبل نفوسة وجزيرة جربة وسواها في بلدان المغرب العربيّ[1].

---

١ ـ السحمراني أسعد، في: موسوعة الأديان الميسّرة، مرجع سابق، ص١٩ ـ ٢٠.

وفي دراسة حول الإباضيّة لباحث محدث[1]، جاء أنّ البحوث التاريخيّة الحديثة قد أضافت إلى معلوماتنا عن الحركة الإباضيّة خاصّة

وحركة الخوارج عامّة. وقد استطاعت هذه البحوث أن تلقي ضوءًا جديدًا باعتمادها على مصادر لم تكن معروفة سابقًا وخاصّة ما يخصّ منها وجهة النظر الخارجيّة التي كانت مغمورة أو غامضة لحدّ الآن بسبب معارضة هذه الحركة للخلافتين الأمويّة والعبّاسيّة معًا. ومعلوم أنّ المؤرّخ المحقّق لا يمكنه أن يصوّر صورة أقرب ما تكون إلى الحقيقة إلاّ إذا قرأ ما تحدّث به أو كتبه المنهزمون والمنتصرون جميعًا.

ويضيف الباحث أنّ أهمّ المصادر التي وصلتنا عن تاريخ الحركة الإباضيّة، وخاصّة في إقليم عمان، هو مخطوطة سرحان بن سعيد الأزكوي الموسومة "كشف الغمّة الجامع لأخبار الأمّة"، والتي ألّفها حوالى سنة ١١٤١ هـ / ١٧٢٨م، وتتألّف المخطوطة من أربعين بابًا، يشتمل الباب الثامن والعشرون منها على الفرق الإسلاميّة، وهو لا شكّ مهمّ لأنّه يُظهر بوضوح رأي الإباضيّة في الفرق الأخرى وموقف الإباضيّة من فرق الخوارج الأخرى، ويفصّل الباب التاسع والعشرون إعتقادات الإباضيّة، وهي وجهة نظر مهمّة لأنّها منبعثة عن مؤلّف خارجيّ العقيدة يتكلّم عن فرقته. ولا شكّ في أنّه يندر أن نجد في مصادرنا التاريخيّة روايات تعبّر عن وجهة نظر الخوارج أنفسهم. وتعود أهميّة الباب الثلاثين في كونه يبحث في أخبار الدولتَين الأمويّة والعبّاسيّة فيعطي وجهة نظر الخوارج الإباضيّة فيهما. أمّا الأبواب التالية من الباب الحادي والثلاثين إلى الباب الثامن والثلاثين فهي تركّز على الحركة الخارجيّة

---

[1] ـ فوزي د. فاروق عمر، ملامح من تاريخ حركة الخوارج الإباضيّة كما تكشفها مخطوطة الأزكوي، مجلّة المؤرّخ العربيّ، صادرة عن الأمانة العامّة لاتّحاد المؤرّخين العرب، عدد٢ (بغداد،١٩٧٥).

الإباضيّة وانتشارها في المغرب وعُمان. والواقع أنّ بابًا واحدًا منها خُصّص للمغرب وهو الموسوم "في ذكر انتشار المذهب الإباضيّ بأرض المغرب وذكر أئمّتهم وعلمائهم". وتبدأ الأبواب الأخرى في سرد تاريخ عمان من انتشار الإسلام فيها حتّى حكم اليعاربة. أمّا الباب التاسع والثلاثون ففيه ذكر لتواريخ بعض الصحابة وعلماء الإباضيّة في عمان وغيرها. ويختتم المؤلّف كتابه بالباب الأربعين الذي يتعلّق بأمور دينيّة عقائديّة بحتة. ولا شكّ في أنّ وجهة نظر المؤلّف، وهو خارجيّ، في هذه الأمور، مهمّة أيضًا لأنّها تعكس موقف الخوارج الإباضيّة منها[١].

إنّ مقارنة هذه المخطوطة بغيرها من التواريخ القليلة عن عُمان، يُظهر لنا بوضوح أنّ كتاب "كشف الغمة الجامع لأخبار الأمّة" يُعتبر من أحسن ما كُتب في التاريخ المحليّ تكاملاً ووثوقًا في ما يتعلّق بتاريخ هذا الإقليم[٢]. ويشير هذا الكتاب إلى مراسلات تمّت بين الخليفة عبد الملك بن مروان ومؤسّس الإباضيّة عبد اللّه بن إباض، وتؤكّد هذه الرسائل على مصادر إباضيّة أخرى. ولا تهمّنا هنا المسائل التي دارت حولها الرسائل، ولكن يبدو أنّ عبد الملك بن مروان أفلح في إقناع ابن إباض باتّباع سياسة "العقود"، بل نجح كذلك في إشغاله بأمور الفكر والعقيدة عن أمور الحرب والسياسة. على أنّ الحركة الإباضيّة لم تستمرّ في منهجها هذا، بل نشطت بعد عهد عبد الملك بن مروان كبقيّة الحركات الخارجيّة، فشغلت الدولة الأمويّة عن مجابهة نشاط الحركات السرّيّة الأخرى كالدعوة العبّاسيّة مثلاً التي نشطت في العراق وخراسان منذ حوالى سنة ٩٨ هـ / ٧١٦م[٣].

---

١ ـ فوزي، ملامح من تاريخ حركة الخوارج الإباضيّة، مرجع سابق، ص١٧١ ـ ١٧٢.

٢ ـ عمر فاروق، ببليوجرافيا في تاريخ عمان، مجلّة المورد (١٩٧٥).

٣ ـ فوزي، ملامح من تاريخ حركة الخوارج الإباضيّة، مرجع سابق، ص ١٧٢.

وفي سنة ١٢٩ هـ / ٧٤٦ ت ٧٤٧م، كان خوارج الجزيرة من أقوى الجماعات الخارجيّة، وقد انتخبوا شيبان بن عبد العزيز اليشكري الحروري إمامًا لهم[١]، ثمّ زحفوا نحو الموصل واحتلّوها وطردوا والي الأمويّين عليها. وفي الوقت ذاته انبثقت حركة إباضيّة في حضرموت[٢]، واحتلّت صنعاء، ثمّ زحفت من هناك إلى مكّة والمدينة. ولكنّ الضربات المتتالية التي ألحقها مروان بن محمّد، آخر الخلفاء الأمويّين، بالخوارج، كانت ذات أثر فعّال في شلّ حركتهم وإعاقتها ربّما عن تأسيس كيان خاصّ بها، فقد تبعثرت الجماعات الخارجيّة في أقاليم مختلفة من الدولة بعيدة عن المركز مثل عمان وسجتان وكرمان وأفريقيا. وقد نجح مروان في طرد شيبان بن عبد العزيز اليشكري الذي هرب إلى منطقة الخليج العربيّ، وتشير روايات إلى أنّه قُتل في البحرين أو عمان. أمّا زعماء الإباضيّة في اليمن والحجاز فقد لاقوا حتفهم كذلك وتفرّقت جموعهم[٣].

رغم النكسات السياسيّة والعسكريّة التي حلّت بالخوارج في العصر الأمويّ فقد ظلّت آراؤهم وعقائدهم تنتشر وتجد لها آذانًا صاغية. وقد لعبت البصرة، في القرن الأوّل الهجريّ وخاصّة في العصر الأمويّ، دورًا فعّالاً في بلورة العقيدة الخارجيّة، ذلك لأنّها كانت مركزًا مهمًّا للنشاط الفكريّ عامّة. بل إنّ نشاط الجماعات الخارجيّة فكريًّا في البصرة استمرّ خلال السنين الأولى من العصر العبّاسيّ الأوّل[٤]. وليس أدلّ على ذلك من أنّ عبد الرحمن بن رستم تلقّى علومه وأصول عقيدته الإباضيّة على يد

---

١ - الطبري، تاريخ الأمم والملوك، (القاهرة،١٩٦٥) ٢: ١٩٤٨، ١٩٧٢، ١٩٩٥ - ١٩٩٧.

٢ - الأزدي، تاريخ الموصل (القاهرة، ١٩٦) ص٧٧ وما يليها.

٣ - فوزي، ملامح من تاريخ حركة الخوارج الإباضيّة، مرجع سابق، ص١٧٢ - ١٧٣.

٤ - الأزكوي، مخطوطة كشف الغمة، في المتحف البريطانيّ.

فقهائها من البصرة، ثمّ عاد إلى المغرب ومعه جماعة من الإباضيّة، أحدهم أبو الخطّاب، الذي أصبح بعد ذلك بمدّة وجيزة، أوّل إمام إباضيّ في المغرب. فمن البصرة انتقل أبو الخطّاب وعبد الرحمن بن رستم إلى المغرب لنشر المذهب الخارجيّ، وقد صادف الإثنان ظروفا جيّدة ونجحا في تنفيذ خطّتهما في البدء، رغم أنّ الأمور ساءت بالنسبة لأبي الخطّاب في ما بعد. وهذا يوضّح الارتباط الفكريّ الوثيق بين خوارج المغرب وخوارج المشرق العربيّ. بل إنّ البصرة كانت البؤرة الفكريّة التي كان زعماء الإباضيّة في المغرب يعتمدون عليها[١].

ثمّ لم تلبث الإباضيّة أن أصبحت العقيدة الواسعة الانتشار في عمان، ويرى باحثون أنّه ربّما كان في عمان أئمّة خوارج قبل الإباضيّة. والرّاجح أنّ تأسيس الإمامة الإباضيّة في عمان يعود، في الأعمّ الأغلب، إلى الاندحارات التي قاست منها الحركة الإباضيّة في اليمن والحجاز وهرب الخوارج الذين اشتركوا في هذه الثورات إلى إقليم عمان. ولم يتمّ تكوين هذا الكيان السياسيّ الإباضيّ إلاّ بعد سقوط الأمويّين وتملّك العبّاسيّين، حيث انتخب خوارج عمان الجلندي بن مسعود إمامًا أوّلاً حوالى سنة ١٣٥ هـ / ٧٥٢م، أو قبل ذلك بقليل[٢]. ويرى باحثون أنّ مردّ ذلك يعود إلى وجود جماعات خارجيّة في هذا الإقليم قبل ذلك التاريخ، وإلى انتشار العقيدة الخارجيّة هناك. هذا إضافة إلى أنّ قبائل الأزد اليمانيّة اعتادت على نوع من الاستقلال وعدم الخضوع للسلطة المركزيّة، ولعلّ الشواهد الكثيرة في صدر الإسلام تثبت صعوبة السيطرة على قبائل هذا الإقليم. ولكنّ الأهمّ من هذا وذاك الموقع الجغرافيّ وصعوبة الطبيعة

١ ـ فوزي، ملامح من تاريخ حركة الخوارج الإباضيّة، مرجع سابق، ص١٧٣ ـ ١٧٤.

٢ ـ OMAR F., *THE ABBASID CALIPHATE 750 - 786*, (BAGHDAD, 1969) P. 289.

ووعورتها في هذا الإقليم. فلعمان موقع جغرافيّ ممتاز يتحكّم بمدخل الخليج العربيّ ويقابل البحر العربيّ الذي يتّصل بالمحيط الهنديّ ذي الأهميّة التجاريّة والاستراتيجيّة. أمّا في الداخل فالإقليم يختلف في طبيعته من جبال شاهقة وعرة إلى سهول منبسطة خصبة إلى صحراء جرداء قاحلة، ولهذا يمكن تشبيه عمان بجزيرة كبيرة يحدّها البحر من الشرق والجنوب وتحدّها الصحراء - البحر الرمليّ - من الغرب، فتفصلها عن بقيّة أجزاء الجزيرة العربيّة[1].

منذ تأسيس الإمامة الإباضيّة، أو كما كانوا يسمّونها "الإمامة الإسلاميّة"، بانتخاب الإمام الأوّل الجلندي، لم تشهد عمان استقرارًا كافيًا، بل تناوبت فيها السلطة بين الأئمّة الإباضيّة وبين ولاة السلطة العبّاسيّة. فقد استطاعت الخلافة العبّاسيّة في عهد أبي العبّاس أن تعيد سلطتها على عمان سنة ١٣٦ هـ / ٧٥٣م، حين أرسلت جيشًا بقيادة خازم التميمي استطاع أن يُسقط الإمام الجلندي ابن مسعود[2]. ثمّ عادت الإمامة الإباضيّة لتحكم الإقليم في حوالى سنة ١٧٧ هـ / ٧٩٣ ـ ٧٩٤م، أو قبل ذلك بقليل، حيث حكم البلاد خمسة أئمّة متتابعين حتّى سنة ٢٧٤ هـ / ٨٨٧م، استطاعوا في خلالها أن يردّوا هجمات السلطة العبّاسيّة والقراصنة على الساحل العمانيّ. إلاّ أنّ العصبيّات القبليّة والاضطرابات الداخليّة أدّت إلى سقوط آخر هؤلاء الأئمّة الخمسة فتردّت البلاد إلى حالة من الارتباك وعدم الاستقرار كانت نتيجتها استنجاد النزاريّة بوالي البحرين العبّاسيّ سنة ٢٨١ هـ/ ٨٩٣ ـ ٨٩٤م[3]. و يعود المنعطف المهمّ في تاريخ الإمامة الإباضيّة في عمان إلى هذه الحملة، حيث أعدّ الخليفة العبّاسيّ المعترض

---

١ ـ فوزي، ملامح من تاريخ حركة الخوارج الإباضيّة، مرجع سابق، ص١٧٥.

٢ ـ الأزكوي، مرجع سابق، الباب ٣١ ـ ٣٨.

٣ ـ فوزي، ملامح من تاريخ: حركة الخوارج الإباضيّة، مرجع سابق، ص ١٧٦.

جيشًا قويًّا أعطى قيادته إلى والي البحرين الذي اجتاح الإقليم وأعاد النفوذ العبّاسيّ إليه[1]. ولكنّ سيطرة العبّاسيّين كانت موقّتة، فقد أُقصي الوالي العبّاسيّ وتعاقب على حكم الإقليم ثمانية أئمّة إباضيّة جاؤوا بطريق الانتخاب حتّى سنة ٣١٩ هـ/ ٩٣٠ ـ ٩٣١م، حينما نجح القرامطة في مدّ نفوذهم إلى عمان. ومع ذلك فقد بقيت أجزاء من عمان تحت حكم الأئمّة حيث حكم خلال هذه المرحلة بالذات ثلاثة آئمّة آخرون. ثمّ استطاعت قوّة عبّاسيّة جديدة أن تتحكّم بالإقليم بصعوبة سنة ٣٣٢ هـ/ ٩٤٣م، حيث جابهتها ثورات خارجيّة إباضيّة متعدّدة. وقد تميّزت هذه الحقبة الأخيرة بصراع حادّ بين أئمّة الإباضيّة من جهة وبين البويهيّين والقرامطة من جهة أخرى للسيطرة على عمان. وقد نجحت السلطة العبّاسيّة وممثّلوها البويهيّون في إيجاد الأعوان من زعماء القبائل والشيوخ المحليّين ليكونوا سندًا لها ضدّ الإباضيّة. ورغم ذلك فإنّ شيعة الخوارج وأنصارهم كانوا كثرة في هذا الإقليم وبقوا كذلك إلى زمن متأخّر[2].

أمّا عن نشوء الإمامة الإباضيّة في المغرب العربيّ، فيذكر الباحث[3] أنّ مخطوطة الأزكوي تؤكّد على أثر المشرق وخاصّة البصرة، في بثّ العقيدة الخارجيّة الإباضيّة بالمغرب العربيّ، ويخصّص مؤلّف المخطوطة بابًا[4] في ذكر انتشار المذهب الإباضيّ بأرض المغرب وذكر أئمّتهم وعلمائهم. علمًا بأنّ أرض المغرب كانت أرضًا خصبة لنشر العقيدة الخارجيّة، حيث انتشر المذهب الإباضيّ والصفريّ في مناطق شاسعة رغم أنّها متناثرة. وقد انتُخب أبو الخطّاب أوّل إمام للإباضيّة في المغرب

---

١ ـ الأزكوي، مرجع سابق، الباب ٣١ ـ ٣٨.

٢ ـ فوزي، ملامح من تاريخ حركة الخوارج الإباضيّة، مرجع سابق، ص١٧٧.

٣ ـ فوزي، ملامح من تاريخ حركة الخوارج الإباضيّة، مرجع سابق، ص١٨٧.

٤ ـ الأزكوي، مرجع سابق، باب ٣٢.

سنة ١٤٠ هـ/ ٧٥٧ ـ ٧٥٨م. ولم يمضِ أربع سنوات حتّى أسّس عبد الرحمن بن رستم سنة ١٤٤ هـ / ٧٦١م حكمًا إباضيًا في تاهرت، كُتب له أن يؤثّر على مجموع الحركة الخارجيّة في أفريقيا، وقد تمتّع أئمّة تاهرت بشهرة واسعة وصلت المشرق العربيّ. وتشير روايات عديدة إلى بعثات ذهبت من المشرق إلى ابن رستم محمّلة بالهبات الماليّة والهدايا العينيّة. ويظهر أنّ خوارج المشرق العربيّ، من الإباضيّة خاصّة، قد رأوا في تأسيس الدولة الخارجيّة في المغرب العربيّ، إمكانيّة إحياء العقيدة الخارجيّة وبعث تراثها القديم. ويرى باحثون أنّ خوارج البصرة، الذين كانوا يخشون السلطة العبّاسيّة القريبة منهم، والذين اعتادوا أن يخفوا معتقداتهم تقيّة، قد ارتأوا مساندة الحركة الخارجيّة في المغرب بالمال والنصح منذ السنين الأولى للحكم العبّاسيّ[1].

وفي نصوص من مخطوطة "كشف الغمّة الجامع لأخبار الأمّة" نشرها الدكتور فاروق عمر فوزي، لأوّل مرّة، في المرجع المشار إليه[2]، وهي من الباب الثاني والثلاثين وتتعلّق بانتشار المذهب الإباضي في أرض المغرب، جاء التالي:

> قيل إنّ أوّل مَن مضى بالمذهب الإباضيّ من البصرة سلمة بن سعيد قدم لقيروان هو وعكرمة مولى ابن عبّاس وهما راكبان على جمل واحد. سلمة يدعو إلى الإباضيّة وعكرمة يدعو إلى الصفريّة. وقيل إنّ سلمة قال وددت أن يظهر هذا المذهب بأرض المغرب يومًا واحدًا من غدوه إلى الزوال فما أبالي إن ضربت عنقي... ثمّ إنّ عبد الرحمن بن رستم بن بهرام بن كسرى الملك الفارسيّ كان أصله من العراق، وكان أبوه رستم عنده من العلم أنّ ذريّته تسلي أرض المغرب.

---

١ ـ فوزي، ملامح من تاريخ حركة الخوارج الإباضيّة، مرجع سابق، ص ١٨٧.

٢ ـ فوزي، ملامح من تاريخ حركة الخوارج الإباضيّة، مرجع سابق، ص ١٧٩.

فأقبل متوجّهًا من العراق ومعه ولده عبد الرحمن وأمّه وزوجته أمّ عبد الرحمن، فلمّا كان قريبًا من مكّة أدركه صمامه فانقضت أيّامه، فالتقى عبد الرحمن وأمّه مع الحجّاج من أرض المغرب بمكّة فتزوّجت أمّ عبد الرحمن رجلاً من أهل المغرب من القيروان، فلمّا بلغ مبلغ الرجال وقرأ وأفصح واجتهد في طلب علم الدعوة الإباضيّة فقال له رجل من أهل هذه الدعوة: يا فتى إنْ كنت تريد علم هذا الأمر الذي كلّفت به وعلقته ببالك فدونك أرض البصرة فإنّ بها عالمًا يُكنّى أبا عبيدة واسمه مسلم بن أبي كريمة التميميّ فإنّك تجد عنده ما تطلبه. وقيل إنّ أمّه قالت له ذلك فلمّا أراد الخروج إلى البصرة خرج معه أربعة أنفار أحدهم أبو الخطّاب عبد الأعلا بن السمح المغافري ومغافر قبيلة من العرب، وعاصم السدراني واسماعيل بن داران القدامسي وأبو داود القبلي. فلمّا التقوا بأبي عبيدة صافحهم وسألهم عن أحوالهم ومن أين أقبلوا فأخبروه أنّهم من أهل المغرب وأنّهم أرادوا تعلّم العلم فأجابهم إلى ذلك فمكثوا عنده سنين عدّة. وكان الشيخ أبو عبيدة مستخفيًا متخوّفًا من بعض أمراء البصرة وأدخلهم سربًا وجعل فيه سلسلة وقعد على باب السرب يعمل القفاف، فإذا رأى أحدًا حرّك السلسلة فيسكتون. فإذا مضى حرّكها فيأخذون في قراءتهم. وكان عبد الرحمن شابًا جميلاً حدث السنّ. وكان أبو عبيدة يجعل بينه وبين الناس سترًا لئلاّ يشغلهم بجماله، فلمّا بلغوا من العلوم ما قدّر اللّه لهم وأرادوا الانصراف إلى بلادهم استأذن العجائز أبا عبيدة وطلبن أن يريهنّ عبد الرحمن يدعون له، فأجابهنّ وأدخلهنّ عليه وكنّ ثلاثًا، ودعت له واحدة وقالت: بارك اللّه فيك كما بارك في عين الشمس، وقالت الثانية: بارك اللّه فيك كما بارك في البصر، وقالت ثالثة: بارك اللّه فيك كما بارك في طيّب الطعام من الملح. فلمّا أرادوا المسير كلّموا أبا عبيدة واستشاروه في شأنهم فقالوا: يا شيخنا إذا كانت لنا في بلادنا قوّة ووجدنا من أنفسنا طاقة نتولّى على أنفسنا رجلاً منّا أو ما ترى، قال فتوجّهوا إلى بلادكم فإن حان أمر دعوتكم ما يجب به عليكم التولية في العدد والعدّة من الرجال فولّوا على أنفسكم رجلاً منكم فإنْ أبى فاقتلوه، وأشار إلى أبي الخطّاب (رض). فلمّا رادوا الخروج من عنده تهيّأ الشيخ للركوب لموادعتهم وجعل رجله

في الركاب سأله اسماعيل عن ثلاثماية مسئلة من مسائل الأحكام قبل أن يستوي على متن ركابه فقال أبو عبيدة: أتريد أن تكون قاضيًا يا ابن داران، قال: أرأيت إن ابتليت به يرحمك اللّه. ثمّ توجّهوا إلى بلادهم فلمّا قدموا طرابلس اهتمّ بأمور المسلمين مَن له نظر فيهم من المشايخ فاجتمع جماعة من المسلمين بعدما اقتتل الحارث وعبد الجبّار والناس في الكتمان، فكانوا يجتمعون ويذكرون عقد الإمامة فأجالوا النظر وأطالوا الفكر في ما بينهم في مَن يولّونه وهل يكون له قوّة على عدوّهم، وكان اجتماعهم في موضع يُقال له صيّاد غربيّ مدينة طرابلس فيظهرون أنّهم إنّما يجتمعون في أمر رجل وزوجته اختصما فإذا اجتمعوا أو فرغوا من كلامهم توجّهوا إلى عامل المدينة فيسلّمون عليه مداراة. ثمّ إنّهم عرضوا الإمامة على عبد الرحمن بن رستم فاعتذر إليهم بأماين كانت عنده للناس. ثمّ اتّفق رأيهم على أبي الخطّاب وجعلوا بينهم يومًا معلومًا ليجتمعوا فيه بالصياد وتعاهدوا على أن يأتي كلّ واحد منهم بمَن تبعه من الرجال بالسلاح ويجعلون الدرعة في الغرائز ويحشونها بالتبن. وكانت بينهم وبين مشايخ المسلمين من أهل المدينة ومَن لا يقدر على النهوض معهم علامة إذا رأوهم دخلوا المدينة بحمايتهم أن يشهروا السلاح ويظهروها. وأخبروهم أنّ الإمام أبو الخطّاب في السرّ. فلمّا كان بالموعد اجتمعوا فيه بعامّة المسلمين من شيوخ البربر من بقوسة وهوارة وحريشة وغيرهم من افناء القبائل، فلمّا توافروا بصياد وقد أخرجوا أبا الخطّاب حين خرجوا وقالوا له امض معنا على بركات اللّه وعونه في هذا الأمر الذي تحيّرنا فيه منذ زمان فخرج معهم ولم يدر ما يريدون منه وهو غافل عن مرادهم فلمّا وصلوا إلى صياد تكلّم متكلّم فقال: أليس قد اجتمع رأينا على ما علمتموه فقالوا: بلى. قال: فاكتموا أمركم. فقامت منهم طائفة بناحية فتكلّموا في ما بينهم ثمّ رجعوا فقالوا لأبي الخطّاب: ابسط يدك لنبايعك على أن تحكم فينا بكتاب اللّه وسنّة رسوله (صلعم) وآثار الصالحين من عباده. فقال لهم: استغفلتموني وليس لهذا خرجت إليكم. فقالوا له: لا بدّ لك من الدخول في أمور المسلمين. فلمّا رأى الحقيقة منهم والجدّ قال لهم: لا أقبل إمامتكم إلاّ بشرط. فقالوا: كلّ شرط يجوز فنحن معطوكه ونطيعك فيه. قال: شرطي عليكم

ألاّ تذكروا في عسكري مسألة الحارث وعبد الجبّار خوفًا منه عليهم أن يكون في جماعة المسلمين فرقة واختلاف. وحدّث بعض أصحابنا أنّ مسألة الحارث وعبد الجبّار اتّصلت إلى أرض المشرق، وكان بينهم فيها اختلاف وفرقة، وفي المغرب أشدّ من ذلك حتّى كتب إليهم أبو عبيدة مسلم ابن أبي كريمة وأبو مودود صاحب، رحمهما اللّه، يأمرانهم بالكفّ عن ذكرهما، فأراد أبو الخطّاب أن يقطع الأحقاد من جماعة المسلمين بأمانة ذلك. فقالوا له: لك ذلك علينا. وبايعوه على الإقامة بحقّ اللّه على ما في الكتاب والسنّة وأتباع الأئمّة المهتدين، فقبل مبايعتهم وذلك على رأس مائة وأربعين سنة من الهجرة. ثمّ اجتمع رأيهم على دخول مدينة طرابلس وكان بها عامل لأبي جعفر المنصور بن محمّد بن علي بن عبد اللّه بن العبّاس، فعمدوا إلى جواليق فأدخلوا فيها الرجال بسلاحهم وجعلوا أفواه الجواليق مربوطة من داخلها فحملوا على كلّ حمل رجلَين بسلاحهما ومضوا كأنّهم قافلة جاءت من البرّيّة حتّى توسّطوا المدينة ولم يفطن لصنيعهم أحد، فأناخوا ركابهم وخرجوا الرجال من الجواليق بأيديهم السيوف المصلّتة فنادوا "لا حكم إلاّ للّه لا طاعة إلاّ طاعة أبي الخطّاب"، وقصدوا نحو العامل ليقتلوه فأبى عليهم الإمام وقال: إنّما دخلنا عليهم بأمان. ولمّا نظر إليهم أهل المدينة وقد أشهروا السلاح قالوا: هذه غدرة. قال المسلمون: ليس هذا بضرر لا بأس عليكم فمَن أراد منكم العافية فليقم في منزله. وخيّر أبو الخطّاب العامل في الإقامة بالمدينة وينخلع من العمالة أو الخروج بأمان. فاختار الخروج ودفع إلى أبي الخطّاب مفاتيح بيت المال، فأخذها منه واستقام الأمر لأبي الخطّاب وأحسن السيرة في رعيّته وعدل في حكمه وقضيّته. ثمّ كتبت إليه امرأة من القيروان تشكو إليه جور الورقمومة، وكانت ورقمومة مستولية على القيروان، فكتبت: أمّا بعد يا أمير المؤمنين إنّ لي ابنة لم أحرزها إلاّ في حفرة حفرتها تحت سريري مخافة عليها من الورقمومة أن يفسدها. فوصل إليه كتابها وهو يتوضّأ فقرأه وصار يبكي رحمة لها لِما نزل بها. فأمر فنودي بصلاة جامعه فاجتمع إليه الناس فصلّى بهم وصعد المنبر وقام خطيبًا فحمد اللّه وأثنى عليه خيرًا ورغّب أصحابه في الجهاد وأمر رعيّته بالاستعداد للحرب، وخرج من المسجد.

فلمّا وصل باب المسجد سلّ سيفه وكسر غمده وقال: "لا حكم إلاّ اللّه" ترغيبًا منه للمسلمين للجهاد وغضبًا منه للّه ولدينه. وبلغنا من طريق آخر أنّ ورقمومة أخرجوا من القيروان امرأة وهي تصيح وتقول: أعينوني معاشر المسلمين. فلم تجد أحدًا يرفع عنها ما بها. فلمّا بلغ أبا الخطّاب (رض) أجابها وأغاثها بمعاشر المسلمين. وذكر بعض أصحابنا أنّ امرأة من أهل القيروان ظلمها ورقمومة فصاحت من القيروان: يا أبا الخطّاب أغثني. فأمدّ اللّه صوتها وسمعها أبو الخطّاب من مدينة طرابلس فقال مجيبًا لها: لبّيك يا أختاه لبّيك. فعند ذلك أمر مناديه بالنفير وخرج عسكر على طرف المدينة حتّى اجتمع إليه من أصحابه جموع كثيرة، ثمّ خرج بمَن تبعه واتبعه عبد الرحمن بن رستم (رض) وخرجوا في سنة محلة ذات جوع وجدب، فأمرهم فيها بالخراج فإذا نزلوا نزل عليهم وإذا ارتحلوا ارتحل معهم. وبلغنا أنّ أبا الخطّاب (رض) لمّا خرج أمر مناديه فنادى: أيّها الناس مَن كان له أبوان كبيران أو أب واحد فليرجع، ومَن كانت له عروس صغيرة فليرجع، ومَن كانت له عروس قريبة العهد فليرجع، ومَن أراد منكم الرجوع فليرجع بليل. فلمّا جنهم الليل رجعت طائفة من عسكره فلم يزل ينادي فيهم ثلاث ليالي كلّ ليلة ترجع طائفة وبقي مَن له رغبة في الجهاد وعدّتهم ستّة آلاف ولم يرجع بعد الثلاث أحد... وبلغنا أنّ أبا الخطّاب مرّ على مدينة "قابس" فحاصر أهلها حتّى صففوا وأذعنوا له الطاعة فجعل عليهم عاملاً. ولمّا وصل أرض القيروان حاصرهم أشدّ الحصار ما شاء اللّه، ثمّ إنّ "عاصم السدراني" مرض مرضًا شديدًا وكان من خيار العسكر وهو أحد الخمسة الذين حملوا العلم وهو أشدّ شوكة على أهل القيروان، فعلم أهل القيروان بمرضه وأنّه اشتهى قثاة فبعثوا "مَن سمّه بها"، فاستشهد رحمه اللّه. وصاح أهل المدينة: أين عاصم السدراني المقتول بالسمّ؟. وقالوا: مات عاصم يا بربر. فعلم أبو الخطّاب أنّهم خدعوه وبلغ فيه موت عاصم مبلغًا عظيمًا وقال لأصحابه: إنّهم خدعونا وغرّرونا... فأمر أهل عسكره أن يأخذوا أسلحتهم ويحملوا أجنيتهم ويخرجوا تحت الليل ويأخذوا الطريق مثل المنهزمين، فأصبح المعكسر خاليًا. وظنّ أهل القيروان أنّهم انهزموا وقالوا: إنهزمت البربر. ومضوا في أثرهم.

وأبو الخطّاب وأصحابه دخلوا الوادي الذي وراء فحص رقادة وكمن فيه بخيله ورجاله. وأخذ أهل المدينة في طلب أبي الخطّاب حتّى لحقوهم فوجدوهم معسكرين في ذلك الوادي فخرج إليهم أبو الخطّاب وأصحابه فولّوا منهزمين وأبو الخطّاب وأصحابه في آثارهم يقتلونهم حتّى دخلوا المدينة ودخل قوم أبي الخطّاب معهم فخلصت لهم المدينة سنة إحدى وأربعين ومائة من الهجرة. وكان أبو الخطّاب تقدّم على أصحابه يوم الحصار لا يفسدوا زرعًا لأهل المدينة[1]...

يستخلص الباحث الدكتور فاروق عمر فوزي أنّه يتبيّن من هذا النصّ المهمّ مدى الصلة الوثيقة للبصرة وعلمائها من الخوارج بالحركة الإباضيّة في المغرب. فإنّ الذين زرعوا هذا المذهب في المغرب قبل مجيء أبي الخطّاب وابن رستم دعاةٌ من البصرة. ثمّ إنّ أبا الخطّاب وابن رستم تلقّيا علومهما وتفقّههما بالعقيدة الخارجيّة الإباضيّة على يد فقهاء من البصرة. ولم تنقطع هذه الصلة بعودة الإثنين إلى المغرب العربيّ بل استمرّت المشاورات والاستشارات بين علماء البصرة ورجال الدعوة في المغرب. بل إنّ أهل البصرة من الخوارج لم يكتفوا بالمساندة المعنويّة في مجال العلم والفقه والنصيحة والإرشاد إنّما تعدّوا ذلك إلى الدعم الماديّ حيث أرسلوا للدعاة، قبل وبعد تأسيس الإمامة، هبات وأموال مساهمةً منهم في تقوية أمر الدعوة الإباضيّة وتثبيت قدمها في هذا الإقليم، خاصّة بعد أن انتقلت الدعوة من دور النضال السرّيّ إلى النضال الإيجابيّ العلنيّ بعد إعلان إمامة أبي الخطّاب والاستيلاء على طرابلس. كما يُظهر هذا النصّ مدى اعتدال الخوارج الإباضيّة في معاملتهم المسلمين الذين لم يعتنقوا المذهب الخارجيّ. فأبو الخطّاب لم يقتل والي طرابلس وكان يأمر أتباعه بعدم التخريب أو إفساد الزرع حين دخولهم المدينة. وهذه صفة تميّزت فيها الإباضيّة على

---

١ ـ عن: فوزي، ملامح من تاريخ حركة الخوارج الإباضيّة، مرجع سابق، ص ١٨١ ـ ١٨٦.

فرق خارجيّة متطرّفة أخرى مثل الأزارقة الذين كانوا، منذ نشأتهم، أكثر اعتدالاً من بقيّة الفرق الخارجيّة. ولذلك كانت هناك مشاورات كلاميّة ومجادلات فكريّة بين مؤسّسي هذه الفرقة والفرق الأخرى، تشير إليها مخطوطة "كشف الغمة" ومصادر أخرى أيضًا. ويشير هذا النصّ كذلك إلى مدى انتشار المذهب الإباضيّ في مناطق شاسعة متفرّقة من المغرب، ومدى تقبّل البربر لهذا المذهب وسرعتهم بالانضواء تحت لواء أبي الخطّاب. والواقع أنّ أبا الخطّاب كان أوّل مَن نجح في تفجير هذه الحركة بين صفوف البربر في المغرب العربيّ[1].

ظلّت بلاد المغرب مرتعًا لمذهب الإباضيّة ومذاهب خارجيّة أخرى كالصفريّة، حتّى استطاع الأغالبة سنة ٢٨٣ هـ/ ٨٩٦م أن يدفعوا الإباضيّة إلى الداخل دون أن يقضوا عليهم قضاء مبرمًا، ثمّ تمكّن الفاطميّون، كما هو معروف، من القضاء على الدولة الرستميّة الإباضيّة سنة ٢٩٦ هـ/ ٩٠٨م، والتجأ كثير من الخوارج الإباضيّة إلى الصحراء. وأخيرًا فإنّ تزعّم أبي الخطّاب المغافري لأوّل إمامة إباضيّة في المغرب واستقطابه البربر يدلّ على أنّ العرب استمرّوا يحتلّون مراكز القيادة والرئاسة في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة، كما كانوا في القرن الأوّل الهجريّ، وهم الذين يضمّون حركات الموالي ويقودونها ويوجّهونها الوجهة التي يرتأونها وأحيانًا يستغلّونها لأغراض سياسيّة وطموحات شخصيّة، تمامًا كما حدث في حركة المختار الثقفي وعبد الرحمَن بن الأشعث[2].

---

١ ـ فوزي، ملامح من تاريخ حركة الخوارج الإباضيّة، مرجع سابق، ص ١٨٦ ـ ١٨٧.

٢ ـ فوزي، ملامح من تاريخ حركة الخوارج الإباضيّة، مرجع سابق، ص ١٨٧.

إخوانُ الصَّفاء

جماعة دينيّة وسياسيّة وفلسفيّة سريّة، إسمها الكامل "إخوان الصفاء وخلاّن الوفاء". نشأت في القرن الرابع هجريّ بالبصرة على أيدي جماعة قال أصحابها بالطهارة، ووضعوا مذهبًا زعموا أنّه يؤدي إلى الفوز برضوان الله. من أقطابها: محمّد بشير البستي الملقّب بالمقدسي، وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني، ومحمّد بن أحمد النهرجوري، وزيد بن رافع. عملوا على الخلط بين الفلسفة والشريعة، وراحوا يكتبون آراءهم دون أن يكشفوا أسماءهم، إلى أن بلغت الخلافة العباسيّة درجة من الضعف، جاء آل بويه[1] إلى سدّة الحكم، وتشجّع إخوان الصفا وكشفوا عن رسائلهم وشخصياتهم. ألاّ أنهم قد انتهوا مع نهاية حكم البويهيّين على يد السلطان طغرل بك السلجوقي سنة ١٠٥٥.

لم يكن ظهور إخوان الصفا سوى نتيجة طبيعيّة لتطوّر الأحوال السياسيّة والاجتماعيّة في البلاد العربيّة، وجزء من المنهج الشامل الذي وضعته الاسماعيليّة لبلوغ هدفها. فقد كان القرن الرابع الهجريّ عهد ازدهار علميّ وثقافيّ، وقد انتشرت الفلسفة اليونانيّة انتشارًا واسعًا، وراح العرب يتدارسونها ويتبعون في ذلك مذهب المزج والتخيّر. وقد طغت النزعة الفيثاغوريّة والنزعة الأفلاطونيّة المصبوغتان بصبغة التصوّف. فراحت معظم الفرق الإسلاميّة، من دينيّة وسياسيّة، تدرس هذه

١ ـ آل بويه أو البويهيّون: أسرة فارسيّة من أصل ديلمي، حكمت ٩٣٢ ـ ١٠٥٥، أسسها أبو شجاع بويه، استولى أبناؤه علي عماد الدولة والحسن ركن الدولة وأحمد معز الدولة على أصفهان وشيراز وكرمان وبغداد ٩٤٥م، فغدى أمير المؤمنين ألعوبة بين أيدي البويهيّين إلى أن غلبهم طغرل بك السلطان السلجوقي ١٠٥٥.

الفلسفة، وتبحث فيها عمّا يدعم نظريّتها. وادّعى الناقمون على السلطة وعلى الإسلام السنّي أنّ الشريعة قد دُنّست بالجهالات وأنّ تطهيرها لا يتمّ إلاّ بالفلسفة. فلا بدع، والحالة هذه، أن تظهر في الإسماعيليّة جمعيّ باسم "إخوان الصفاء"، تنزع نزعة فلسفيّة وتنشئ رسائل تجمع فيها عصارة التيّارات الفلسفيّة الشائعة، وتجعل في باطنها حقائقها الفكريّة، وتقدّم لأتباعها خطّة ثقافة وخطّة حياة وسياسة، في تكتّم يجعل تعاليمها وسياستها في مأمن من رقابة الحكّام ومن اطّلاع من ليس أهلاً لها ولا مؤهّبًا لتفهّمها. وإنّ أخذهم بالتقيّة حقيقيّ وإن أنكروا ذلك وقالوا إنّهم لا يخافون أحدًا ولا يخشون سلطانًا[1].

جمع إخوان الصفا معارف عصرهم العلميّة والفلسفية والدينية في رسائل تزيد على الخمسين، وتكوّن ما يشبه دائرة المعارف، وهي تقع في أربعة أقسام: قسم في الرياضيات، وقسم في الجسمانيّات (الطبيعيّات)، وقسم في النفسانيّات (العقليّات)، وقسم في الناموسيّات (الإلهيّات)، فضلاً عن الرسالة الجامعة التي تجمع وتوضّح كلّ ما جاء في هذه الرسائل. مذهبهم تلفيقيّ، أخذوا فيه من كلّ علم. ومن منطلق اعتبارهم أنّ الشريعة قد دنّست بالجهالات وبالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلاّ بالفلسفة، ففيها الحكمة الاعتقاديّة والمصلحة الاجتهاديّة، اعتبروا أنّه متى انتظمت الفلسفة اليونانيّة والشريعة المحمديّة حصل الكمال. وإنّ الإنسان الكامل العالم الخير الفاضل الذكي المستبصر عندهم فإنّما هو: الفارسيّ النسبة، العربيّ الدين، الحنفيّ المذهب، العراقيّ الآداب، العبرانيّ المخبر، المسيحيّ المنهج، الشاميّ النسك، اليونانيّ العلوم، الهنديّ البصيرة، الصوفيّ السيرة، الملكيّ الأخلاق، الربانيّ الرأي، الإلهيّ المعارف.

---

١ - الفاخوري حنّا والجرّ د. خليل، تاريخ الفلسفة العربيّة، نشر مؤسّسة بدران (بيروت،١٩٦٣) ص١٦٢ - ١٦٣.

وفيما اعتبر باحثون أنّ إخوان الصفا فرقة إسماعيليّة، وتعتبر رسائلهم مقدّسة لدى الإسماعيليّة وأنّها بجميع أقسامها تعظّم هذه الرسائل، فالمستعلية أو الطيبيّة والنزاريّة وجماعة آغا خان، حتّى إنّ الحشاشين المعروفين بغلوّهم كانوا يدرسونها في قلاعهم، قال آخرون إنّهم أصحاب مذهب فلسفيّ فحسب، واعتبروا أنّ الباحث في أفكارهم وعقائدهم من خلال رسائلهم يرجّح أنّهم لم يكونوا أصحاب مذهب دينيّ محدّد، إذ هم أقرب إلى الفلسفة منها إلى الدين. ونزعتهم الفلسفيّة هذه هي خليط من الفلسفات اليونانيّة والفارسيّة والهنديّة. إلاّ أنّ محاولتهم إخضاع الدين إلى الفلسفة تبرز في رسائلهم، وقد كانت تلك المحاولة من خلال تأويل القرآن تأويلاً رمزيًّا لكي يتمشّى مع تصوّرهم الروحيّ للأديان عامّة، إذ إنّهم يذهبون إلى أنّ الأديان جميعًا يجب أن تتّفق مع الحكمة الفلسفيّة. أمّا المحور الذي يدور عليه مذهبهم الفلسفيّ فهو فكرة الأصل السماويّ للأنفس وعودتها إلى الله. فهم يزعمون، متأثّرين بنظريّة الفيض الأفلاطونيّة، أنّ العالم صدر عن الله كما يصدر الكلام عن المتكلّم أو الضوء عن الشمس، ففاض عن وحدة الله بالتدرّج: العقل، ومن العقل النفس، ثمّ المادّة الأولى، ثمّ عالم الطبائع، ثمّ الأجسام، ثمّ عالم الأفلاك، ثمّ العناصر، ثمّ ما يتركّب منها وهي المعادن والنبات والحيوان. والمادة في هذا الفيض تبدو أساسًا للتشخيص ولكلّ شرّ ونقص. وليست النفوس الفرديّة إلاّ أجزاء من النفس الكليّة، تعود إليها مطهّرة بعد الموت، كما ترجع النفس الكليّة إلى الله ثانية يوم المعاد. والموت عندهم يسمّى البعث الأصغر، بينما تسمّى عودة النفس الكليّة إلى باريها البعث الأكبر[1].

---

١ ـ الموسوعة العربيّة الميسرة، دار الجيل (بيروت،٢٠٠١) ص١٩٦؛ موسوعة الأديان في العالم، مرجع سابق؛ معروف نايف، موسوعة الأديان الميسرة، مرجع سابق، ص٥٩ ـ ٦٠.

إتّخذ "إخوان الصفاء وخلاّن الوفاء" إسم "الإخوان" للدلالة على حقيقة حالهم. وهو إسم قديم عند العرب ظهر في أسفارهم وكتاباتهم، واتّخذه ابن المقفّع في ترجمة كتاب "كليلة ودمنة" فجعل له في باب الحمامة المطوّقة محلاً واسعًا، ولكليلة ودمنة عند "الإخوان" مكان مرموق لما فيه من الحكمة وتفصيل معاني الصداقة، ولما فيه من الأسلوب الرمزيّ والاستدارات القصصيّة التي لها معنًى ظاهر وآخر باطن، وكلّ ذلك ممّا يوافق أغراض "الإخوان" وأساليبهم. والإخوان "عصابة قد تألّفت بالعِشرة وتصافت بالصداقة واجتمعوا على القدس والطهارة"، وهم "أهل العدل وأبناء الحمد". فقد عقدوا أنفسهم على التمازج والتصافي، ولقّبوا أنفسهم بأجمل الألقاب[١].

وكان "الإخوان" أربع مراتب:

مرتبة الإخوان الأبرار الرحماء، وهم المبتدئون، البالغون من العمر خمس عشرة سنة حتّى الثلاثين، ويوصفون بصفاء الجوهر والنفوس، وجودة القبول وسرعة التصوّر؛ ثمّ مرتبة الإخوان الأخيار والفضلاء، وهم الذين ما بين الثلاثين والأربعين من العمر، ومرتبة الرؤساء ذوي السياسات وهي مراعاة الإخوان، وسخاء النفس، وإعطاء الفيض والشفقة والتحنّن على الإخوان؛ ثمّ مرتبة الإخوان الفضلاء الكرام، وهم الذين ما بين الأربعين والخمسين من العمر، ومرتبتهم مرتبة الملوك ذوي السلطان والأمر والنهي والنصر والقيام بدفع العناد والخلاف عند ظهور المعاند لهذا الأمر بالرفق واللطف والمداراة في إصلاحه. هؤلاء هم علماء الإخوان يعرفون النواميس، ويدوّنون العقائد، ويوضحون المناهج، ويدافعون عن الحقائق، ويعملون على نشرها وعلى بثّ الدعو؛ وأخيرًا مرتبة الكمال، الذي يدعى إليه جميع الإخوان من

---

١ ـ الفاخوري والجرّ، تاريخ الفلسفة العربيّة، ص١٦٥.

جميع المراتب، وهي للذين تجاوزوا الخمسين. قال الإخوان عن هذه المرتبة: "إنّها الممهّدة للمعاد، والمفارقة للهيولي، وعليها تنزل قوّة المعراج وبها تصعد إلى ملكوت السماء فتشاهد أحوال القيامة من البعث والنشر والحشر والحساب والميزان والجواز على الصراط والنجاة من النيران ومجاورة الرحمن ذي الجلال والإكرام..."

تلك هي مراتب "الإخوان"، أو تلك هي الطريق التي يجب أن يسلكها من أراد الانتماء إلى جمعيّتهم السريّة، وهي أشبه شيء بطريق النسّاك وأرباب الزهد مع نزعة فلسفيّة عقليّة، أو هي أشبه شيء بتعاليم الأفلاطونيّة الحديثة ولا سيّما تعاليم أفلوطين الذي جعل خطوة الحياة الأولى في التحرّر من ثقل المادّة في الجسد، وهذا يقود إلى صفاء الجوهر والنفوس؛ وجعل الخطوة الثانية في التفكير الفلسفي، وهذا يقود إلى الإشعاع السخيّ، والسخاء الإشعاعي؛ وجعل الخطوة الثالثة في المعرفة عن طريق النظر العقليّ والتلقّي من غير تفكير واستدلال واستنتاج وهذا يقود إلى معرفة النواميس الإلهيّة وما إلى ذلك؛ وجعل الخطوة الرابعة في الاتّحاد مع الله بحيث يعمل الإنسان في الله، والله يعمل فيه، وهذا يقود إلى الفناء الصوفيّ، وإلى أن يكون الإنسان فوق كلّ ناموس وكلّ شرع، فينظر بعين الله، ويعمل بيد اللـه، إذ هو ذائب فيه. وقد ذكر عمر الدسوقي "أنّ هذه الطبقات الأربع التي أطلق عليها ماكدونالد: طبقة المريدين، ثمّ المعلّمين، ثمّ القادة، ثمّ المقرّبين من الله، تتمشّى مع النظام العام لطبقات الشيعة الباطنيّة وأنظمتهم، حيث تبتدئ الدعوة بسؤال المدعو عن بعض المسائل الدينيّة والشرعيّة والمشكلات الغامضة، ويلقّن أنّ الدين أمر مكتوم يجهله السواد والكافّة، وأنّ أصل الشرّ هو انصراف الناس على الأئمّة الصادقين، ثمّ يندرج هذا المدعو في مراتب تسع، يصل في نهايتها إلى حظيرة الأسرار الأخيرة، وما بعد الطبيعة، التي

تشبه الطبقة الرابعة عند إخوان الصفاء، وقد يكون هذا التقسيم الذي اقتبسه الفاطميّون مأخوذًا عن إخوان الصفاء.[1]"

الإسماعيليّة[2]

كان للإمام السادس للشيعة جعفر الصادق عند وفاته، سنة ١٤٨ هـ/ ٧٦٥م، ستّة أبناء: إسماعيل، وهو البكر، وعبد الله، ومحمّد، وموسى، وعليّ، والعبّاس[3]. وكان الخليفة العبّاسي: أبو جعفر المنصور، الذي قيل إنّه أمر بدسّ السمّ للإمام الراحل: جعفر الصادق، قد كتب في الحال "رسالة إلى والي المدينة، حيث توفّي الصادق، يأمره فيها أن يذهب فور استلامها إلى منزل سليل النبيّ ﷺ المتوفّى بحجّة تقديم العزاء، وأن يسأل عن نصّ وصيّة الإمام بشأن خلافته، أمّا الرجل الذي ستذكره الوصيّة، فيجب قطع رأسه حالاً"... بذلك اعتقد الخليفة العبّاسيّ، القلِق على خلافته من سلالة النبيّ ﷺ أحفاد فاطمة وعليّ عليه السلام، أنّه يستطيع كسر حلقة الأئمّة، وبهذا ينتهي العبّاسيّون من مشكلة السلالة المباشرة لمحمّد ﷺ، ومن الخوف من إمكان نجاحها في الوصول إلى حقوقها يومًا؛ وإذ نفّذ والي المدينة أوامر الخليفة، ذُهل تمامًا، كما سيذهل الخليفة عندما سيطّلع على مضمون الوصيّة. فلقد أوصى جعفر الصادق بالإمامة لأربعة أشخاص، هم: "الخليفة بالذات، والوالي بالذات، وابنه الأكبر إسماعيل، وابنه الأصغر موسى"...

---

١ ـ المرجع السابق، ص١٦٩ ـ ١٧٠.

٢ ـ راجع الجزء العشرين من هذه الموسوعة، الفصلين الأوّل والرابع.

٣ ـ اليعقوبي، طبعة دار صادر (بيروت، لا.ت.) ٢: ٣٨٣.

لا شكّ في أنّ وصيّة الإمام قد جاءَت على هذا الشكل، ليحول دون تمكّن الخليفة من القضاء على الإمامة؛ ويتّضح من ذلك أنّ الإمام السادس، كان مدركًا لحقيقة نوايا العبّاسيّين. وبالفعل، فقد حالت قائمة الأسماء هذه دون تمكّن الخليفة من تحقيق مآربه القاضي بقتل خليفة الإمام السادس[1]، إلاّ أنّ إسماعيل، الإبن البكر لجعفر الصادق، كان قد قضى قبل موت أبيه بحوالى خمسة عشر عامًا. وقد أحدث هذا الأمر مسألة أساسيّة عند شيعة عليّ عليه السلام.

في الواقع، كان قد شاع في المدينة أن إسماعيل بن جعفر قد توفّي سنة ١٣٣ هـ/ ٧٥٠م[2]. بيد أنّ ظهور اسمه في وصيّة أبيه جعفر الذي توفّي سنة ١٤٨ هـ/ ٧٦٥م، قد خلق إشكالاً كبيرًا عند الشيعة، الذين قال بعضهم بأنّ إسماعيل لم يمت، إنّما هو حيّ غائب. وبما أنّ الصيغة الشرعيّة للشيعة تُقلّد منصب الخلافة للابن البكر، فقد تمسّك بعضهم بعد موت جعفر بهذه الصيغة، وقالوا بأنّ إسماعيل هو الإمام الشرعيّ الحقيقيّ، الذي لم يمت مطلقًا، إنّما هو في غيبة عند الله، وهو يبقى إمامًا عبر الزمن، إلى أن يبعثه الله مرّة أخرى يوم القيامة. وبينما عرف الشيعة الذين قالوا بإمامة موسى الكاظم بالإثني عشريّة، عُرف هؤلاء الذين قالوا بإمامة إسماعيل بالإسماعيليّة، نسبة إلى إسماعيل، كما عُرفوا بالسبعيّة، نسبة إلى الإمام السابع. ولكنّهم اختلفوا في هويّة الإمام السابع، فصاروا فرقتَين: فرقة تقول بأنّ إسماعيل، المتوفّي قبل وفاة أبيه الإمام السادس، إنّما هو الإمام السابع، وفرقة تقول بأنّ الإمام السابع إنّما هو ابن إسماعيل، واسمه محمّد المكتوم الذي اختفى وهو بعد في الخامسة عشرة من عمره، في المدينة

---

١ ـ كونسلمان غرهارد، سطوع نجم الشيعة، الترجمة العربيّة، نشر مدبولي (القاهرة، ١٩٩٢) ص٧٢ ـ ٧٣.

٢ ـ اختلفت المراجع في تحديد سنة وفاة إسماعيل، بين قائل بأنّه توفّي سنة ١٣٣ هـ/ ٧٥٠م، وقائل بأنّ وفاته كانت سنة ١٤٥ هـ/ ٧٦٢م أو ما بينهما. إلاّ أنّ المدوّنات قد أجمعت على أنّه مات قبل موت أبيه.

المنوّرة، حيث وُلد. ويبدو أنّه هرب خوفًا من غضبة الخليفة العبّاسيّ عليه، واختبأ في مكان بالقرب من الريّ في بلاد فارس، ولم يعد يعرف أحد شيئًا عنه[1]. وإنّ السّبعيّة من أصحاب هذا الرأي، يعتبرون أن محمّد المكتوم، هو الإمام الغائب.

وفي مخطوط للهمذاني نُشر سنة ١٩٥٨ يحمل عنوان: "في نسب الخلفاء الفاطميّين"[2]، أميط اللّثام عن سرّ أتّباع بعض شيعة عليّ ﷺ، بعد موت الإمام جعفر، لابنه إسماعيل الميت، إذ أوضح المخطوط أنّ إسماعيل الذي اتُّبع، إنّما هو عبد اللّه الذي تسمّى، سترًا، بإسماعيل. إلاّ أنّ ما أورده الشهرستاني من أنّ عبد اللّه هذا الذي مات بعد موت أبيه بسبعين يومًا، "لم يكن له ولد ذكَر"، ما من شأنه أن يُعيد المسألة إلى غموضها. ذلك أنّ محمّد بن إسماعيل، الذي قال الإسماعيليّون بإمامته بعد إسماعيل، في هذه الحالة، لا يكون موجودًا. كما أنّه من غير المنطقيّ، شيعيًّا، أن يقول هؤلاء بإمامة محمّد بن إسماعيل الحقيقيّ، الإبن البكر لجعفر، بعد موت عبد اللّه، المسمّى سترًا بإسماعيل، لأنّ الإمامة يجب أن تنتقل إلى ابن الإمام دون سواه.

أمّا رأينا في الموضوع، فهو أنّ عبد اللّه، وموسى، إنّما هما شخص واحد، وأنّ عبد اللّه هو الإبن البكر لجعفر الذي كان معروفًا بـ "أبي عبد الله".

أمام هذه المتاهات، لا بدّ من اعتبار أنّ قسمًا من الشيعة، وهم الذين عُرفوا بالإسماعيليّة أو السبعيّة، قد قالوا بإمامة إسماعيل، أمّا سائر الشيعة، وهم الذين سيُعرفون في ما بعد بالاثنَي عشريّة، فقد قالوا بإمامة موسى بن جعفر، سواء كان ذلك بعد موت جعفر مباشرة، أم بعد موت عبد اللّه المسمّى سترًا بإسماعيل.

---

١ - راجع: حتّي د. فيليب، التاريخ العربي، دار الثقافة (بيروت،١٩٦٩) ص ١٣٦ - ١٣٧.

٢ - راجع نصّ المخطوط في الفصل الأوّل من الجزء العشرين.

ولئن ارتبطت الإسماعيليّة بالشيعة ارتباطًا روحيًا وسياسيًا وعقائديًا، فإنّها ذات صلة ظاهرة بالفكرة البابكيّة الاشتراكيّة. فقد أخذت الإسماعيليّة عن البابكيّة والمزدكيّة مبادئ المساواة بين الرجل والمرأة، وإبطال ملكيّة الأراضي وتوزيعها بالمجان والعدل على المحتاجين إليها، ومحاربة العصبيّة القوميّة وبثّ فكرة الإخاء الحقيقيّ بين جميع الناس على اختلاف أجناسهم ومللهم ونحلهم. ولعلّ من أسباب الفشل الذي مني به بابك أنّ نطاق دعوته لم يتعدّ النطاق الإقليميّ، وكاد ينحصر في فئة من الناس تقطن جبال آران وأذربيجان أي بين القبائل الإيرانيّة دون سواها من العرب، وهم أسياد البلاد، ومن الترك والبربر وهم وقتئذ "مادّة الإسلام وجيشه المنظّم" على حدّ تعبير الجاحظ. أمّا الإسماعيليّة فإنّها عملت منذ البدء على أن تكون شاملة، ووفّقت إلى أن تجمع، على حدّ قول "دوزي"، بين الغالبين والمغلوبين وأصحاب الأفكار الدينيّة الحرّة والمتعصّبين للدين من جميع الطوائف، وتتخذ المؤمنين واسطة لنقل السلطة إلى الكافرين، وتستعمل الغالبين آلة هدم ما بنوه من الملك وتسليمه إلى غيرهم. وهذه كانت غاية عبدالله بن ميمون الأساسيّة، وهذه كانت أفكاره وهي كما ترى أفكار مدهشة غريبة جريئة قد ساعد على تحقيقها دهاؤه النادر ولباقته الغريبة ومعرفته العميقة لقلوب الناس[1].

وهكذا فإنّ الإسماعيليّة التي كانت في بدء أمرها تدلّ على بعض الفرق الشيعيّة المعتدلة، ما عتمت أن أصبحت مجموعة من المذاهب الدينيّة الغريبة عن الإسلام ومن الأحزاب السياسيّة والاجتماعيّة، والآراء الفلسفيّة والعلميّة المتنوّعة، وراحت تسعى في سبيل هدف واحد، وهو نزع السلطة من أيدي العبّاسيّين ونقلها إلى أحفاد علي عليه السلام. ودخلت في عقيدة الإسماعيليّة فكرة المهدي وإمام الزمان الذي سيعود ليتغلّب على بني

---

١ ـ الفاخوري والجرّ، تاريخ الفلسفة العربيّة، ص١٤٥ ـ ١٤٧.

العبّاس ويحلّ السلام والعدل في الأرض محلّ الاستبداد والجور. وقد عملت الاسماعيليّة أولاً في الخفاء، فأسّست جمعيّات سريّة شبيهة بالجمعيّات الفيثاغوريّة، منها إخوان الصفاء. ولم يُبَح الوقوف على أسرار هذه الجعيّات إلاّ للقادة المقرّبين إلى زعيم الحركة الذين قطعوا المراحل السّبع ووصلوا إلى المرحلة الأخيرة. أمّا عامّة الشعب، وهم في نظرهم "العميان والحمير"، فكان غذاؤهم ما جاء في الكتب المنزلة عامّة... وأمّا أولو العقول الثقافيّة، التي "فتح الله بصائرها وأبصارها"، فإنّها وحدها جديرة بمعرفة المذهب: "أدعُ الناس بأن تتقرّب إليهم بما يميلون إليه وأرهم كلّ واحد منهم بأنّك منهم، فمَن آنست منه رشدًا فاكشف له الغطاء". و"إذا ظفرت بالفلسفيّ فاحتفظ به فعلى الفلاسفة معوّلنا وإنّا وإيّاهم مجمعون على... القول بقدم العالم لولا ما يخالفنا فيه بعضهم من أنّ للعالم مدبّرًا لا يعرفه."

وتعتقد الإسماعيليّة بإمام معصوم، يسمّيه نصير الدين الطوسي "نور الهداية وقنديل العزّة الصمديّة وشخص المعرفة والمحبّة... وضع الله وحدته عليه، وخلع عليه ألوهيّته إلى الأبد... كلمته كلمة الله وأعماله أعمال الله وكذلك أوامره ونواهيه ورغباته ومعرفته وقدرته ووجهه وسمعه وبصره". فتصبح كلمة الإمام فوق أحكام الشريعة وكلّ معرفة لا تكون إلاّ به، فالمعرفة الحقّ هي إذن تعليم، لذلك عرفت الاسماعيليّة بـ"التعليميّة".

وتقسم العقيدة الاسماعيليّة قسمين: الظاهر، وهو كلّ ما يتعلّق بالسلوك الخارجيّ والعلاقات بين البشر؛ والباطن، ومعناه أنّ للآيات المنزلة والعقائد معنى باطنًا لا يعرفه إلاّ الإمام والمقرّبون إليه. وقد تمسّك الاسماعيليّون بالمبدإ القائل بأن "لا ظاهر بدون باطن يقابله كما أنّه لا باطن بدون ظاهر يقابله". وهذا ما جعل الاسماعيليّة تُعرف باسم "الباطنيّة". ولم يختلف المذهب الظاهري عن السنّي اختلافًا في شأن، حتّى

أنّ كلّ ما يأمر به الإسلام كان إلزاميًّا لكلّ إسماعيليّ مهما سمت مرتبته وتعمّق في معرفة الباطن. أمّا المذهب الباطنيّ فيقوم على أساسين: أوّلهما تأويل القرآن والشريعة تأويلاً يتّفق مع أهداف الاسماعيليّة، والثاني، وهو الأهم، معرفة الحقائق، وهي جملة المذهب الفلسفيّ والعلميّ للاسماعيليّة الذي يرجع في جوهره إلى البرهان على أنّ الإمامة أمر ألهيّ، وأنّها تعود للفاطميّين دون سواهم[1].

الأشعَرِيَّة

أهمّ ما يتألّف منه مذهب الأشعريّة هو أنّه جعل لله ما يليق به دون أن يتحيّف من حقّ الإنسان، وأنكر التشبيه ونزّه الذات الإلهيّة عن كلّ ما يتعلّق بالجسم وبالإنسان، وقال إنّ الله قادر على كلّ شيء وخالق كلّ شيء، وليس للطبيعة عنده فعل ما، بخلاف الإنسان الذي يستطيع أن يفعل أفعالاً يخلقها فيه الله، فينسبها الإنسان إلى نفسه ويزعمها من كسبه. ويقول المذهب أيضًا ببعث الجسد ورؤية الله في الحياة الآخرة، ويفرّق بين كلام الله القائم بذاته وهو قديم وبين الكتاب الذي هو القرآن الكريم والذي أنزل في زمن معيّن. وعوّل المذهب على الوحي الذي هو عنده الأصل الوحيد لمعرفة الله، في حين أنّ العقل آلة للإدراك فقط ولكنّه يستطيع إدراك وجود الله إلاّ أنّه ليس للعقل عندهم ما له من شأن عند المعتزلة فهو لا يوجب شيئًا من المعارف ولا يقتضي تحسينًا ولا تقبيحًا، ولا يوجب على الله رعاية لمصالح العباد، والواجبات كلّها واجبة

---

١ ـ الفاخوري والجرّ، تاريخ الفلسفة العربيّة، ص١٤٧ ـ ١٥٠؛ راجع: الفاطميّون، في الجزء العشرين من هذه الموسوعة، الفصل الرابع.

بالسمع "ومعرفة الله بالعقل تحصل وبالسمع تجب". وقد أصبح مذهب الأشعريّ مذهبًا لأهل السنّة وأصحاب الحديث، ولا سيّما الشافعيّة منهم[1].

أساس الأشعريّة، ويُعرف أتباعها بالأشاعرة، أبو الحسن الأشعريّ[2] (٢٦٠ ـ ٣٣٣ هـ/ ٨٧٣ ـ ٩٤٤م) الذي كان من تلاميذ أبي علي الجُبائيّ، أحد كبار المعتزلة المتأخّرين. وقد استمرّ الأشعري على مبادئ المعتزلة وطرقهم حتّى سنّ الأربعين، حين اختلف مع الجبائيّ في مسألة "الصلاح والأصلح"، فانفصل عنه، ورجع عن الاعتزال واعتكف في بيته عدّة أيّام خرج بعدها إلى المسجد الجامع بالبصرة ليعلن توبته عن مذهب الاعتزال وأقاويله في علم الكلام، وممّا قاله على المنبر: "مَن عرفني فقد عرفني ومَن لم يعرفني فأنا أعرّف بنفسي، أنا فلان بن فلان، كنت أقول بخلق القرآن وأنّ الله لا تراه الأبصار، وأنّ أفعال الشرّ أنا أفعلها، وأنا تائب مقلع، معتقد للردّ على المعتزلة مخرج لفضائحهم ومعايبهم".

بعد انسحابه من المعتزلة، أصبح لأبي الحسن الأشعري مذهبه الخاص في علم الكلام، وهو مذهب معتدل أخذ بما جاء به الكتاب والسنّة من عقائد، وأخذ بنصوص القرآن كما هي من دون أن يدخل نفسه في تأويل المتشابه منها. وقد كان الأشعريّ على مذهب الشافعيّ في فروع الفقه. وكان يستعمل الأدلّة الكلاميّة لإثبات عقائده الدينيّة مع نهي "أصحاب السنّة والحديث" عن ذلك، بَيدَ أنّه كان يوفّق بين مبادئ تلك الأدلّة وبين عقائد أهل السنّة والجماعة، ونشر علم الكلام بصورة جديدة بين أهل السنّة

---

١ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، مرجع سابق، ص٢٢٨.

٢ ـ هو أبو الحسن علي بن اسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم بن اسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة عامر بن أبي موسى الأشعريّ صاحب رسول الله ﷺ، وُلد في البصرة وتوفّي في بغداد، وقد جاء في أكثر المراجع أنّ وفاته كانت ٣٣٣هـ فيما ذكر بعضها أنّه توفّي ٣٢٤.

والجماعة. وأعلن عن تأييده ودعمه لمنهج أهل السنّة، في مقابل المنهج البرهانيّ والكلامي للمعتزلة التي كان يعرف حقيقة نهج أهلها في العمل، ونقاط الضعف في فلسفتهم، لذلك تمكّن من أن يقضي عليهم بموازرة علماء السنّة والجماعة له. ويقول الأشعري: "ديانتنا التي ندين بها: التمسّك بكتاب ربّنا عزّ وجلّ وبسنّة نبيّنا محمّد ﷺ وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمّة الحديث، ونحن بذلك معتصمون".

وفي موضوع "النقل والعقل"، أنكر الأشعريّ على المعتزلة أقوالهم بضرورة تأويل الآيات القرآنيّة تبعًا لما أوصل إليه العقل، وعنده "الواجب أن يتمّ الأخذ بالنقل والعقل معًا، فالشرع نور من خارج، والعقل نور من داخل، والعقل كالمصباح والشرع كالزيت".

وفي موضوع الجبر والاختيار قال الأشعريّ بأنّ الله تعالى قادر على كلّ شيء وخالق كلّ شيء، وإنّ قدرة العبد ملازمة لفعله، ولا وجود لها قبله، كما ليس لها تأثير عليه، ومن هذا المنطلق تُخلق للعبد قدرة مع الفعل، ولا وجود لفعل دون قدرة. ويسمّي الأشاعرة الفعل مع القدرة: كسبًا، ولكنّه ليس كسبًا إذا كان بدون قدرة اللّه ولا يرون مؤثّرًا في الوجود إلاّ اللّه تعالى، وكلّ ما يقع أو يكون إنّما هو بإرادته، وهو سبحانه الذي يخلق في الناس القدرة على أداء الأفعال، والنصوص القرآنيّة تؤيّد ذلك أي أنّ القدرة على الفعل من الله والكسب من العبد، بالاستناد إلى قوله تعالى ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[1]، و﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[2]. فـ"اللّه خالق أفعال العباد، وصدورها بإرادة اللّه، وخلق اللّه وإبداعه من الإحسان، واللّه غير مكلّف بمصالح عباده، والواجب ما أوجبه الشرع".

---

١ ـ من الآية ٢٨٦ من سورة البقرة.

٢ ـ من الآية ٢١ من سورة الطور.

ألّف الأشعريّ قرابة ثلاثمئة كتاب، منها: "الإبانة عن أصول الديانة"، و"اللمع في الردّ على أهل الزيغ والبدع"، و"مقالات الإسلاميّين".

إعتقدّ الأشعري بقدم القرآن، وخالف المعتزلةَ في قولهم بخلق القرآن، وقال بأنّ "كلام الله تعالى صفة ذات لم تزل غير مخلوقة وهو غير الله تعالى وخلاف الله تعالى، والقرآن قديم غير مخلوق".

وخلافًا لنفي المعتزلة رؤية الله في العالم الآخر، يرى الأشعريّ بأنّ رؤية الله في العالم الآخر أمر حقيقيّ، ولكنّنا لا نعرف الطريقة التي تتمّ بها. فـ"اللّه موجود، واحد، قديم، ليس جوهرًا، ليس جسمًا، ليس عرضًا، ليس مخصوصًا بجهة، ولا محدودًا بمكان، يمكن أن يُرى، وهو باقٍ أبدًا". فمع اعتقاد الأشعريّة بتجرّد اللّه تعالى وعدم جسمانيّته، إلاّ أنّهم يجوّزن رؤيته. ويقولون: "ليس المراد بالرؤية أن تنطبع صورته المرئيّة في عين الناظر، أو يخرج خطٌّ شعاعيّ من عينه يتّصل بالشيء المرئيّ، بل المراد بها حالة الناظر بعد حصول العلم به"، ويقول بعض الأشاعرة: "إنّ معنى رؤية اللّه، أنّه للمؤمنين يوم القيامة كالبدر في اللّيلة الرابعة عشرة، ويراه الجميع".

وخالف الأشاعرة المعتزلة بالنسبة لمرتكبي الكبائر، حيث كان يرى المعتزلة أنّهم لا مؤمنون ولا كافرون، بل في "منزلة بين المنزلتَين" وصرّح الأشعريّ في مخالفته لهم، وأقام الحجّة والبرهان في تبيين عقائد أهل السنّة والجماعة وتأييدهم، على خلاف براهين المعتزلة وتأويلاتهم.

وفي موضوع "النصّ والتعيين"، قال الأشاعرة بأنّ "الإمامة لا تثبت إلاّ بالاتّفاق والاختيار دون النصّ والتعيين، لأنّه لو كان هناك نصٌّ على إمامة أحد، لما ظلّ خافيًا، وبسبب عدم وجود نصّ، اتّفق المسلمون على أبي بكر في سقيفةَ بني ساعدة، ثمّ اتّفقوا بعده على خلافة عمر، ثمّ عثمان، ثمّ عليّ على التوالي".

وعلى العموم، فقد ابتعد الأشعريّ عن الغلوّ واعتمد في مذهبه الطريق الوسط، فوجد أتباعًا ونصره كثيرون في حربه ضدّ المعتزلة وأهل البدع، ونال لقب إمام أهل السنّة والجماعة، وعُرف مذهبه بمذهب أهل السنّة والجماعة. وبالرغم من محاربة السلطة له في عهد طغرل السلجوقيّ (ت١٠٦٣) مؤسّس السلالة السلجوقيّة، الذي كان عميد الملك الكندري وزيره من الأنصار المتحمّسين للمعتزلة، ففي عهد السلطان السلجوقيّ الثاني ألب أرسلان (١٠٦٣ - ١٠٧٣) ووزيره نظام الملك، توطّد المذهب الأشعريّ، وحظي بتأييد العبّاسيّين. وأُسّست "المدرسة النظاميّة" في بغداد لترويج ذلك المذهب الكلاميّ، ونشره في مختلف البلدان الإسلاميّة. وكان من المؤيّدين المتشدديّن للمذهب الأشعريّ، ممّن جهدوا في بثّه وترويجه: الفقيه الشافعيّ أبو إسحاق ابراهيم الفيروز أبادي الشيرازي (ت٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م)، وابن تومرت مؤسّس دولة الموحّدين في المغرب، والإمام المفسّر فخر الدين محمّد بن عمر التيمي البكري الرّازي (ت٦٠٦هـ/ ١٢١٠م) الذي عُرف بشيخ الإسلام وكان واسع المعرفة بعلوم "المعقول والمنقول" وله عشرات المؤلفات في العربيّة والفارسيّة، والقاضي عضد الدين الإيجي (ت٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م) الإمام في علم الكلام والأصول صاحب "المواقف" المرجع الضخم في المطالب الكلاميّة و"شرح مختصر إبن الحاجب" في أصول الفقه، وأبو حامد الغزاليّ[1]، وقد قوي المذهب الأشعريّ بعد صدور كتب أبو حامد الغزاليّ، وأصبح مذهب عامّة أهل السنّة والجماعة في أكثر البلدان الإسلاميّة. ورغم محاربة البويهيّين لهذا المذهب بسبب ميلهم إلى التشيّع وإلى مذهب المعتزلة، فقد انتشر وأصبح

---

١ - أبو حامد الغزاليّ (ت٥٠٥هـ/ ١١١١م): متكلّم لقّب بـ"حجّة الإسلام"، وُلد بالقرب من طوس خراسان، نشأ نشأة صوفيّة ثمّ انصرف إلى دراسة الفقه والكلام والفلسفة، علّم في المدرسة النظاميّة في بغداد وكتب "تهافت الفلاسفة" وفيه كفّر الفلاسفة أو بدّعهم ثمّ مرّ بمرحلة من الشكّ قادته إلى الصوفيّة لترك التدريس وتبع طريق الصوفيّة وبعد عشر سنوات تجوّل فيها بين دمشق والقاهرة ومكّة عاد إلى نيسابور ومنها إلى طوس حيث توفّي، له "إحياء علوم الدين"، و"المنقذ من الضلال".

له أتباع كثيرون بعد استيلاء السلاجقة على الحكم، وضعف الشيعة والمعتزلة في بغداد وخراسان. ويُعتبر الإمام الفخر الرازي (ت٦٠٦هـ/١٢٠٦م) أكبر عالم أشعريّ في عصره في الجدليّات والتشكيكات ودقّة الرأي والتحقيق، وقد قام بتفنيد عقائد المعتزلة، وترسيخ معتقدات الأشاعرة في كتبه الدراسيّة وأحاديثه[1].

أهلُ الحَقّ

أطلقت تسمية أهل الحقّ وأهل الحقيقة على نفسها فرق إسلاميّة عديدة، مثل: الحروفيّين، والصوفيّين، والعليّ اللّهيّين... وأهل الحقيقة مصطلح يُطلقه علماء التصوف على مَن تحصل شرح الصدر بعد سلوك طريق الولاية من خلال التصوّف، يقابلهم الفقهاء، ويسمّونهم علماء الشريعة.

فعند الصوفيّين أنّ الفقهاء من أهل حكومة الظاهر، إذ إنّ دورهم ينحصر في استنباط الأحكام وفق الأصول المبيّنة في النصوص، أمّا أهل الحقيقة فهم أهل حكومة الباطن الذين يسعون لتنوير القلوب بالعرفان. وقد ميّز الترمذي بين أهل الحقيقة وأهل الشريعة حيث قال: "ليس مَن يكون فقيهًا في الفروع فقيهًا في الأصول، لأنّ الفقه في علم الأحكام كثير، وهو فقيه بالتفقّه حامل الفقه والعلم، وأمّا الفقه في الحقيقة فهو فقه القلب. والحقيقة النورانيّة يستنير بها الفؤاد بفضل ونعمة من الله، تتحصّل لمَن طلب

---

١ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، مرجع سابق، ص٢٢٨؛ موسوعة الأديان في العالم، مرجع سابق، ص٣٩، ٩٨؛ السحمراني أسعد، في: موسوعة الأديان الميسّرة، ص٢٧ ـ ٢٨؛ بدوي، مذاهب الإسلاميّين، ١: ٤٨٧ وما يليها؛ المنجد في الأعلام، دار المشرق (بيروت،١٩٧٦).

القرب فداوم على الذكر والطاعات، وبذلك صفى قلبه ونفسه وتجهز كي يحصل له شرح الصدر لتكون له معارف لا تكون بالاكتساب ونظم البراهين والأدلّة. والعرف من أهل الصور الحقيقيّة هو مَن يشغله علم الله تعالى عن جميع الأسباب. وأهل الحقيقة يسمّون علمهم "العلم الدينيّ"، وهذه العلوم النورانيّة لا تقبل إلاّ إذا وافقت الكتاب والسنّة.

أمّا أهل الحقّ، أصحاب المذهب الباطنيّ، ففرقة يعيش أكثر معتنقي مبادئها في غرب إيران، كان المركز الأصليّ لطوائفها حتّى القرن السابع الهجري في لرستان، ثمّ انتقل إلى المناطق الغربيّة لكردستان وكرمانشاهان، ويوجد عدد كبير منهم بين أكراد العراق، في مدن السليمانيّة، وكركوك، والموصل، وخانقين، ومنهم في المناطق الكرديّة في تركية، ومنهم جماعة أيضًا في القفقاز، وآذربايجان السوفياتيّة، وسورية، ومازندران، وفارس، وخراسان. ويقال لأهل الحقّ: "الكَوران" أيضًا، وكَوران منطقة من مناطق آذربايجان، تُعتبر من المراكز المهمّة لهذه الفرقة. وينحدر الكَورانيّون من سلالةٍ كانت تقطن في أطراف "كرامانشاهان" ثمّ انتقلوا منها إلى آذربايجان، ولهم لهجة خاصّة يتحدّث بها أهالي المناطق العربيّة والجنوبيّة لكردستان، وهي كلام خليط من اللّهجة الكرديّة الأورامانيّة والكرمابجيّة واللّكيّة.

عقائد فرقة أهل الحقّ خليطة من الاعتقادات المانويّة، والأديان الفارسيّة القديمة، والمذهب الإسماعيليّ، والتناسخ الهنديّ، وبقيّة الأديان السّريّة. ويُعتبر أهل الحقّ، إلى هذا اليوم، من الفرق التابعة للغلاة. وتُعرف طوائف أهل الحقّ بأسماء مختلفة مثل: أهل الحقّ، أهل السرّ، اليارسون، العليّ اللّهيّة. أمّا أساس مذهبهم فهو السعي للوصول إلى الحقّ، وإلى اللَّه. وهناك مراحل يجب اجتيازها لتحقيق هذا الهدف، وهذه المراحل هي: مرحلة الشريعة وتعني أداء الواجبات والطقوس الدينيّة الظاهريّة، مرحلة

الطريقة، وتعني التقاليد العرفانيّة، مرحلة المعرفة وتعني معرفة اللّه، وأخيرًا مرحلة الحقيقة، وتعني الوصول إلى اللّه. ودينهم محفوف بالأسرار، والسرّ الذي أفضاه اللّه إلى أنبيائه، وهو سرّ النبوّة، بدأ بأبي البشر آدم، واتّصل بخاتم الأنبياء محمّد ﷺ، وبعد ذلك تحوّل هذا السر إلى سرّ الإمامة الّذي أفضاه محمّد ﷺ إلى عليّ عليه السلام، وبعد غيبة الإمام، انتقل هذا السرّ إلى أقطاب أهل الحقّ، وأتباعهم واحدًا تلو الآخر. وهم يعتقدون بالتناسخ أي حلول روح من قالبٍ إلى قالب آخر، على غرار ما ورد في الفلسفة البراهميّة الهندوسيّة. وجاء في كتابهم "سر أنجام": "إنّ اللّه كان يعيش داخل دُرّة، ثمّ تجسّم لأوّل مرّة، فظهر بصورة إنسان يدعى خالق العالم، وفي المرّة الثانية ظهر بصورة عليّ عليه السلام. وجاء في كتبهم الدينيّة: لا تخافوا من الموت، فليس فيه خوف، لأنّ موت الإنسان يُشبه اختفاء البطّ تحت الماء، أي: إنّه يغطس في مكان، ويخرج رأسه من مكان آخر. والقصد من التناسخ، والانتقال من بدن إلى بدن آخر هو تطهير الإنسان من الذنوب.

البَابيَّة

فرقة دينيّة ظهرت في شيراز إيران في القرن التاسع عشر، عندما أدعى ميرزا عليّ محمّد الشّيرازي (١٢٣٥ ـ ١٢٦٦هـ/ ١٨١٩ ـ ١٨٥٠م) أنّه الباب سنة ١٨٤٣، فعُرف أصحابه بـ"البابيّة". وكان محمّد رضا البزّاز الشّيرازي، والد علي، قد توفّي وهو لما يزل صغيرًا، فتكفّله عمّه: عليّ، وربّاه، ولمّا بلغ السابعة عشرة من عمره عمل في شغل أبيه، فسافر إلى ميناء "بوشهر" للتجارة. وظلّ هناك زهاء الخمس سنين، ثمّ عاد إلى شيراز، وترك التجارة. سافر إلى مكّة، وزار قبور الأئمّة في العراق، وأقام في كربلاء سنتَين أو ثلاث سنين، وحضر هناك درس السيّد كاظم الرشتي رئيس "الشيخيّة" وأصبح من تلاميذه، كما درس على أحمد الإحسائي[1]، وحسين البشروئي.

تأثّر علي محمّد بالصفات الأخلاقيّة والدينيّة الّتي كانت تطبع شخصيّة الرشتي، فاتّصف بها، وبدأت تراوده أفكار ادّعاء المهدويّة سنة ١٢٥٩هـ/ ١٨٤٣م. وبعد وفاة الأخير الرشتي، أعلن في ٤ جمادي الأول ١٢٦٠هـ/ ١٨٤٤م أنّه باب الوصول إلى قائم آل محمّد ﷺ، والإمام المهديّ. وزعم أنّ دعوته هي القيامة وكل مَن لا يؤمن بمزاعمه كافر ودمه مباح.

في نفس تلك السنة، جهر بدعوته في بيته "للملا حسين بشرويه"، فآمن به، ولقّبه بـ" باب الباب". وفي خلال أشهر قليلة، أصبح لديه عشرون تابعًا، كانوا يلقّبونه بـ"حضرة الأعلى"، و"مظهر الرب الأعلى"، و"السيد الباب"، و"نقطة البيان". فقد زعم

---

١ ـ كان الشّيخ أحمد الإحسائي وتلميذه السيّد كاظم الرشتي قد سبقا علي محمّد في إظهار ادّعاء البابيّة بشكل شبه علنيّ، ولكنّ عليّ محمّد هو الذي جهر بهذا الادّعاء.

أنّه "الباب" القرن التاسع عشر ميلادي لأنّ كلّ عصر تحتاج فيه الشريعة إلى باب، وهذا الباب يكون إسمه عليّ وهو عليّ. وكان يقول: "أنا باب صاحب الزمان، وإذا أراد الناس معرفة الأسرار والحقائق الأزليّة والأبديّة الكبيرة والمقدّسة، فلا بدّ لهم أن يمرّوا من الباب حتّى يصلوا إلى الحقيقة، ولذلك عليهم أن يؤمنوا بي حتّى يحصلوا على تلك الأسرار". وبعد مدّة، ذهب إلى أبعد من ذلك فقال: أنزل اللّه تعالى عليّ كتاب "البيان"، وهو يشير إليه بقوله: "الرحمن. علّم القرآن. خلق الإنسان. علّمه البيان. فالإنسان هو أنا، والبيان هو كذلك الكتاب الذي نزل عليّ". وممّا جاء في كتاب البيان: "لا يجوز أن يتعايش البابيّ مع غير المؤمن بالبابيّة فهذا أمر غير مشروع يدلّل على عدم الإلتزام عند البابيّ، لأنّ شرط الصداقة هو طهارة الدين ولا شيء آخر. ومن واجب الناس أن يخشو الله كما يجب وذلك يتبلور بأن يصبحوا جميعًا بابيّين". وسرعان ما دعا كسواه من أصحاب الحركات الهدّامة إلى هدم مكّة والقدس وسائر المقدّسات ومقامات الأنبياء وجيع الأماكن المقدّسة، حيث المقدس عنده هو مكان مولد الباب ومدفنه.

إعتُقل علي محمّد بعد ادّعاءه بالبابيّة من قِبَل حاكم شيراز حسين خان مقدّم الملقّب: نظام الدولة. وبقي في السجن ستّة أشهر إلى أن جاء المبعوثون السريّون لمنوجهر خان معتمد الدولة حاكم أصفهان، وأخذوه معهم إلى أصفهان، فأسكنه حاكمها في عمارة مستورة تُعرف بعمارة الشمس. وكان معتمد الدولة يرعاه ويحافظ عليه من أذى الأعداء طيلة حياته إذ يبدو أنّه كان متألّمًا على حاله. وبعد وفاته، عُيّن ابن أخيه "كَركَين خان" حاكمًا على أصفهان من قِبَل حكومة طهران. فقام هذا بإرساله إلى طهران مخفورًا تقرّبًا للحكومة. بعد ذلك أُتي به إلى تبريز، فناظره علماؤها بحضور وليّ العهد ناصر الدين ميرزا، وبعد ضربه، أعلن عن توبته.

وبعد وفاة الشّه محمّد القاجاري حدثت اضطرابات وحركات تمرّد متواصلة في مازندران وزنجان دعماً للباب. بعد ذلك أصدر الوزير الأوّل لناصر الدين، وهو الميرزا تقي خان أمرًا، بجلب الباب من قلعة جهريق إلى تبريز وأعدمه رميًا بالرصاص في ٢٧ شعبان سنة ١٢٦٦هـ/ ٨ تمّوز (يوليو) ١٨٥٠م في تبريز. وهناك اختلاف في أمر مصير جثمانه، فالبعض يقول إنّه رُمي في خندق المدينة ليكون لقمة سائغة للحيوانات، والبعض الآخر يقول إنّ أتباعه سرقوه ليلاً ودفنوه في جوار أحد أحفاد الأئمّة.

إشتد القمع على البابيّين بعد سنتَين إثر محاولتهم اغتيال الشاه، فانتقلوا إلى اسطنبول، ثم إلى أدرنة وقبرص، وفي ١٨٦٨ كان لقسم من البابيّين مركز في عكّا تحت زعامة حسين علي المازنداري بهاء الدين مؤسّس البهائية، التي بعد تأسيسها حلّت محلّها ولم يعد ثمّة وجود للبابيّة[١].

---

١ ـ الموسوعة العربيّة الميسرة، مرجع سابق، ص٤٢١ ـ ٤٢٢؛ موسوعة الأديان في العالم، مرجع سابق؛ السحمراني أسعد، موسوعة الأديان الميسرة، مرجع سابق، ص١١٢٦؛ دراسات عن البابيّة والبهائيّة، المكتب الإسلامي (بيروت)؛ الحسني عبد الرزاق، البابيّون والبهائيّون، مطبعة العرفان ,(صيدا ـ لبنان).

البكتاشيّة

فرقة صوفيّة تركية، منسوبة إلى الوليّ التركيّ السيد محمّد بن ابراهيم أتا، الشهير بالحاج بكتاش (ت١٣٣٦)، انتقل إلى الأناضول من خرسان في القرن الثالث عشر ميلادي. أنشأ الخانقاه المعروفة بـ"بير أوى" في بلدة "صوليجة قارا أويك"، وشرع في الدعوة لطريقته التي هي خليط من الفرق التي تقدّمتها. ومع أنّ الكثيرين يعتبرون البكتاشيّة من أهل السنّة، بيد أنّ أعمالهم وسلوكيّاتهم على نقيض ما عند السنّة، بل تشبه كثيرًا ما عند غلاة الشيعة. فهم يشتمون أبا بكر وعمر وعثمان، ويمجّدون إمامة الأئمّة الإِثني عشر، ولا سيّما الإمام الصادق، وكذلك يمجّدون المعصومين الأربع عشر. وللحاج بكتاش كتاب عربيّ إسمه "مقالات"، يبدو منه أنّه من أتباع "الإثني عشريّة". غير أنّ البكتاشيّة تبدو متأثرة في نفس الوقت، ببعض المعتقدات المسيحيّة، فهي تقول بتثليث اللّه ومحمّد ﷺ وعليّ عليه السلام. ويقيم البكتاشيّون كالمسيحيّين، العشاء الربانيّ، ويضعون على موائدهم الخمر، والخبز، والجبن. كما أنّهم يعترفون بذنوبهم أمام شيخهم الذي يسمّونه: البابا، ويستغفرونه. وهم لا يصلّون، ولا يصومون، ولا يحجّون، ولا يدفعون الزكاة. وشرب الخمر غير محرّم عندهم، كما أنّ نساءهم متبرّجات. يعتقدون بأسرار الأعداد والحروف، ويحترمون فضل اللّه الحروفيّ رئيس الحروفيّين، ويعتبرون كتابه "جاويدنامة" من الكتب المقدّسة. ويتكوّن لباس البكتاشيّة من عباءة بيضاء، وقبّعة سوداء مثلّثة ذات عدد من الزوايا، وقد يصل عدد شقوقها إثني عشر شقًا رمزًا للأئمّة الإِثني عشر، ويلبس شيخهم عمامة خضراء. يضع البكتاشيّة في رقابهم قلائد من الحجر، يسمّونها "تسليمتاش" وتعني: حجر التسليم. كما أنّ لهم فأسًا ذات حدّين، وعصًا طويلة. ويعلّق عزّابهم الأقراط في آذانهم ليُميِّزوا عن المتزوّجين.

إتّصلت البكتاشيّة بفرقة الإنكشاريّة[1]، فقد سار السلطان أورخان (١٣٢٦ ـ ١٣٨٩) مع فرقته الإنكشاريّة إلى الحاج بكتاش، وطلب إليه أن يبارك فرقته، فوضع بكتاش يده على رأس جنديّ ودعا لهم قائلا: "فليكن إسمهم إنكشاريّة، أللهمّ إجعل وجوههم بيضاء، وسيوفهم فواصل، ورماحهم قاتلة، واجعلهم منتصرين قاهرين لأعدائهم". من هنا سمّى الإنكشاريّة أنفسهم بالبكتاشيّة. وتوثّقت العرى بين الطريقة وفرقة الجيش، وكانت التكايا المنتشرة في أرجاء الدولة موئلاً للإنكشاريّة الذين تسلّطت البكتاشيّة عليهم تسلطًا تامًّا إلى أن قضى السلطان محمود الثاني على هذه الطريقة سنة ١٨٢٦. وكانت البكتاشيّة قد انتشرت في صفوف الشعب بسبب ما كان في شعائرها من لذة روحيّة وسهولة أسلوب، وكانت تكاياها مثالاً للنظافة والأناقة، منها تكيّة في جبل "الجيوشي" بالقاهرة، يرقد بها "قايغوزس سلطان" المعروف بـ"عبد الله المغاوري"، وهو أحد أقطابها وشعرائها، وقد نقلت التكيّة إلى المعادي، وكان آخر شيوخها "أحمد سرى بابا"[2].

---

١ ـ الإنكشاريّة: إسم لتنظيم عسكريّ تركيّ، معنى الإسم "الرقباء" أو "الحرّاس" أو "الحافظون"، إذ كانت توكَل إليهم المحافظة على الأمن، وقد اشتهرت فرقة الإنكشاريّة بسطوتها حتّى كانت أشبه بالجند البريتورياني عند القياصرة، ولذلك قويت شوكتهم فصاروا يتصرّفون بالأحكام بحسب أهوائهم وتوصّلوا إلى عزل السلاطين وقتلهم.

٢ ـ موسوعة الأديان في العالم، مرجع سابق؛ الموسوعة العربيّة الميسرة، مرجع سابق، ص١٥٣٨؛ مشكور د. محمّد جواد، موسوعة الفرق الإسلاميّة، مجمع البحوث الإسلاميّة (بيروت)؛ الشبيبشي محمود، الفرق الإسلاميّة (القاهرة،١٩٣٢).

البهائيَّة

تُنسب البهائيّة إلى مؤسّسها حسين علي نوري بن عبّاس بن بُزُرك المازنداري من بلاد فارس، وُلد عام ١٢٣٣هـ/ ١٨١٧م، كان وشقيقه يحيى من أركان البابيّة، وقد بدأ نشاطه للبروز بين البابيّين بعد إعدام الباب. وأعلن دعوته عام ١٢٧٩هـ/ ١٨٦٣م، وذلك في الكرخ ببغداد، فزعم أنّه "من يظهره الله" وأنّه المقصود بدعوة "البيان" التي جاء بها علي محمّد الشيرازي[1] وأنّه قد حلّت فيه بعض ألوهيّة، وأنّ "الباب" لم يكن سوى "نقطة" جاء كمَن سبقه من الرسل والأنبياء ليبشّر بمجيء "البهاء"، وهو أكمل وآخر مظاهر أمر الله ومهابط وحيه، وهو بذلك مظهر الله الأكمل وجماله الأبهى. ثمّ نفي إلى تركيا ومنها إلى عكّا بفلسطين سنة ١٨٦٨، وبقي فيها حتّى وفاته، وقد دُفن في عكّا حيث يتّجه البهائيّون في صلاتهم. خلف المازنداري في تولّي زعامة البهائيّة إبنه عبّاس الذي لقّبوه بـ"عبد البهاء"، وهذا يدلّل على تأليههم لـ"البهاء". وبعد عبّاس تولّى الزعامة سبطه شوقي أفندي الذي درس في الجامعة الأميركيّة ببيروت، وتزوّج أميركيّة إسمها ماري ماكسويل تحوّلت إلى البهائيّة باسم "روحيّة خانم". وبعد وفاة شوقي أفندي في لندن سنة ١٩٥٧، تحوّلت القيادة عند البهائيّين إلى مجموعة تقيم بحيفا في فلسطين المحتلّة حيث المركز العالميّ للبهائيّين، ويسمّون هذا المركز "بيت العدل البهائيّ العالميّ".

ترك "بهاء الله" عدّة مؤلّفات في العقيدة أبرزها "كتاب الأقدس" و"الإيقان". أمّا في "الكتاب الأقدس" فقد عارض القرآن الكريم وادّعى أنّ آياته كلّها نزل بها الوحي عليه،

---

١ - راجع: البابيّة في هذا الكتاب.

وأنّها قديمة قدم الذات العليّة، وأعلن أنّ ما كتبه لا يمثّل كلّ علمه الإلهيّ، بل هناك ما احتفظ به لصفوة أصحابه لأنّ من عداهم لا يطيق هذه العلوم الباطنيّة. ويتبيّن أنّ عقيدة البهائيّة تقوم على مذهب مؤدّاه أنّ الله يعرّف نفسه للإنسان بواسطة الأنبياء الذين يظهرون على مرّ الأجيال، مثل براهما، وبوذا، وكونفوشيوس، وإبراهيم، وموسى، وداود، وعيسى، ومحمّد، والباب، الذين بشّروا في النهاية ببهاء الله، وأنّ هؤلاء جميعًا في الحقيقة مظاهر جميع أسماء الله تعالى وصفاته ومطالع شموس آياته وبيّناته، لا تظهر صفة من صفات الله في المرتبة الأوليّة إلاّ منهم، ولا يمكن إثبات نعت من النعوت الجلاليّة والجماليّة إلاّ بهم...

وهكذا يبدو أنّ البهائيّين يقولون بوحدة الأديان، وبضرب من التربية العالميّة. وبالسلام على الأرض. وبالمساواة بين الرجل والمرأة. وينشدون لغة عالميّة. ويؤكّدون على بساطة المعيشة ومعونة المعذّبين من إخوانهم في الإنسانيّة.

وتعود البهائيّة في معظم معتقداتها وتشريعاتها إلى كتاب "البيان" الباقي من "البابيّة". ومعتقدهم بـ"البهاء" غريب، يحمل زعمًا يجعلهم منحرفي العقيدة بنظر كافّة علماء الأديان، فهو عندهم مظهر أو منظر الله الذي يتجلّى في طلعته جمال الذات الإلهيّة. ومن أقوالهم عنه: "لولا البهاء من يقدر أن يتكلّم أمام الوجوه. أنصفوا ولا تكونوا من الظالمين. به ماجت البحار وظهرت الأسرار ونطقت الأشجار. الملك والملكوت لله منزّل الآيات ومظهر البيّنات". ويبدو أنّ البهائيّين قد سمّوا "البهاء" في كتبهم المقدسة وألواحهم الإلهيّة "ربّنا الأبهى"، رغم أنّ هذه الربوبيّة قد نازع فيها "البهاء" أخوه يحيى المسمّى "صبح الأزل" الذي خرج عليه وقال إنّ الوحي نزل عليه هو، ولكنّ أخاه حسين، أي "البهاء"، قد سرق كتاب الوحي وادّعاه لنفسه. وظلّ يقول هذا حتّى بعد أن كشف أمرهما وتمّ نفيهما إلى عكّا.

ويقول أكبر دعاة البهائيّة في شرح عقيدته في كتاب "الـدرر البهائيّـة": "كـلّ الأدلّـة والـبراهين تثبّت حقيقـة مظهـر أمـر اللـه فـي زماننـا هذا، وهـو البهـاء مـيرزا حسـين المازنداري، أكثر وأوضح وأجلى ممّا كانت عليه حقيقة مظاهر أمر الله - أي الأنبياء - في الأزمنة السابقة. وهذه الـبراهين قائمـة متوافـرة فـي هـذا الظهـور الأعظـم الأسـنى والطلوع الأفخم الأبهى... ونعني به ظهور سيّدنا البهاء جلّ إسمه وعزّ ذكره".

أمّا البهاء، فقد قال إنّ الدين الجديد الذي يدعو إليه ليس هو الإسلام. بـل إنّـه ديـن جديد عالميّ يجمع الأديان كلّها والأجناس كلّهـا، ويدعـو لمحـو الإقليميّـة والوطنيّـة لأنّ الأرض للجميع، ويجعل البشر كلّهم متسـاوين مهمـا اختلفـوا، ويلغـي كـلّ مـا جـاء فـي الإسلام من أحكام الحرام والحلال، ويحلّ العقل في الحكم محلّ الشرع الإسلاميّ.

أمّا ابن "بهاء" وخليفته "عبد البهاء" فكان لثقافته الغربيّة أثرها في تحوير تعاليم أبيه بما يتقارب مع العقل الغربيّ. فأبعد فكرة "حلول الله في جسد الإمام" ولم يدّع الخوارق التي ادّعاها أبوه. واتّسعت البهائيّة مع انتماء عـدد مـن اليهـود والمسـيحيّين والمجـوس إليها، بعد أن وجدت رفضًا مـن قِبَـل المسـلمين، وأقـام البهـائيّون حـول فـارس والبـلاد القريبة منها، كما أسّسوا بناء لهم في بلاد تركستان يعقدون فيه اجتماعاتهم. وتبعهم بعد ذلك عدد من الناس في أوروبّا وأميركا، حتّى أصبحت شيكاغو مركز الدعاية البهائيّـة. وأصبح البهائيّون يعلنون اليوم صراحة أنّ "البهاء" ليس فقط مظهر صفات الله، بل لقد أصبح يتّصف بها من دون الله. وهو مصـدر أفعـال اللـه يفعلهـا بنفسـه مـن دون اللـه. وهو المعنيّ بالقيامة وبالساعة الكبرى. وهو وجه اللـه وجمالـه البهـيّ الأبهـى... وهـو الموعود للناس في كلّ البشارات التي أتى بها كلّ الأنبياء والرسل... ثمّ، هـو الإلـه لا إله إلاّ هو ولا قيامة إلاّ قيامته، ولا آخرة إلاّ بدايته، ولا دين إلاّ دينه. وكما أنّ الإسـلام نسخ الديانات التي سبقته فالبهائيّة نسخت الإسلام. وكلّ الأديان كانت ناقصة بدائيّة ولـم

تأتِ إلاّ لتكمل بالدين الكامل الذي جاء بـه البهـاء. وازدادت البهائيّـة انغماسًا بالإلحـاد، خاصّة بعد أن خلف عبد البهاء عبد العبّاس أباه، وكانت خلافته هـو نفسـه صـورة مـن صور الغدر، فبينما قيل إنّه خلـف أبـاه بوصيّـة منـه، قـال آخـرون إنّ البهـاء جنّ فـي أواخر أيّامه، وكان ابنه يعمل كحاجب له، فاستأثر بالأمر وأغدق على الجماعة أموالا وحبّب الأتباع به حتّى سمّوه "المعلّم"، فلمّا مات البهاء وحلّ محلّه عبّاس غضب أخوه وسعى ضدّه لدى الحكومة العثمانيّة التي ضيّقت عليه حين أعلن الدستور سـنة ١٩٠٨، وفي ذلك العام أطلق سراحه وتمكّن من قضاء ثلاث سنوات سائحًا بين مصر وأوروبّـا وأميركا، وعندما نشبت الحرب العالميّة الأولى كـان فـي فلسطين فخدم الحلفاء حتّـى أنعمت عليه الحكومة البريطانيّة برتبة فارس مع لقـب "سـير SIR"، وعندما توفّـي عـام ١٩٣١ وهو في السابعة والسبعين خلفه بوصيّة منه حفيده لابنته شوقي ربّاني.

يقول باحثون إنّ البهائيّة لم تعـد اليوم مذهبًا خاصًّـا، وإذا كـان البهـائيّون كثـيرين اليوم في إيران، إلاّ أنّ مذهبهم تحوّل منذ زمـن ليس بقصـير ليكـون حركـة صـهيونيّـة أميركيّة. فبعد أن أعلـن البهـائيّون أنّ عقيدتهم دوليّـة وأنّهـا تهـدف إلـى تحقيـق الديانـة العالميّة التي لا تفرّق بين جنس وجنس، وبعد أن مات "مـيرزا شـوقي ربّـاني" دون أن ينجب ولـدًا، اجتمـع المجلس الأعلـى للطائفـة البهائيّـة فـي إسـرائيل، وانتخـب اليهـود الأميركي الصـهيوني "ميسون" رئيسًا روحيًّا لجميـع أفـراد الطائفـة البهائيّـة فـي العـالم. ومنذ ذلـك التـاريخ، تحوّلـت البهائيّـة إلـى حركـة صهيونيّـة. ولا يـزال المعبـد الرئيـس للبهائيّين في إسـرائيل، بمدينـة عكّـا، حيـث يحـجّ إليهـا كـلّ عـام عشـرات الألـوف مـن البهائيّين من الشرق والغرب[1].

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات؛ السحمراني، موسوعة الأديان الميسّرة؛ عبد الرحمن د. عائشـة، قـراءة فـي وثـائق البهائيّـة، مركـز الأهرام للترجمة والنشر والتأليف (القاهرة)؛ شرف د. عبد العزيز، أباطيل البهائيّة وبروتوكولات صهيون، دار الجيل (بيروت، ١٩٩٣).

البُهرَة

البُهرة: كلمة هنديّة معناها التاجر، أُطلقت على فرقة إسلاميّة من طوائف الشيعة من الإسماعيليّة المستعلويّة في غرب الهند، أفرادها من أصل هندوكيّ اعتنقوا الإسلام في خلال القرن الحادي عشر وما بعده بفضل بعض اليمنيّين، هاجروا إلى ساحل أفريقيا الشرقي حيث كوّنوا مع الأحمديّة والإسماعيليّة جالية إسلاميّة في تنزانيا وكينيا وأوغندا، لا زال منهم أيضًا في اليمن، يشتغل غالبيّتهم بالتجارة والحرف اليدويّة. ومن البُهرة مَن أصبح على مذهب السنّة في ميناء "كَجرات" في بورما حيث يشكّلون شريحة ثريّة يعمل أفرادها بالتجارة. وقد أهدت الطائفة مقصورة ذهبيّة لضريح الإمام الحسين بن علي عليه السلام ومقصورة فضيّة لضريح السيدة زينب بنت علي عليها السلام بالقاهرة سنة ١٩٧٨.

أُطلق على البهرة إسمهم تمييزًا لهم عن الإسماعيليّة النزاريّة والآغاخانيّة، فبعد انقسام الإسماعيليّة الفاطميّة إلى مستعلية وهم المؤيّدون لإمامة أبي القاسم أحمد بن المستنصر بالله (ت١٠٩٢م)، ونزاريّة وهم المؤيّدون لإمامة نزار أخيه الأكبر والمستحق للإمامة[1]، صارت القاهرة مركزًا للمستعلية، بينما صارت شمال إيران قاعدة للنزاريّة. وبعد وفاة المستعلي سنة ٤٩٥هـ/ ١١٠١م، تولّى بعده إبنه الآمر بأحكام الله الذي بقي في الإمامة حتّى اغتياله على يد تسعة رجال من العامّة في أحد شوارع القاهرة قيل إنّهم من النزاريّة سنة ٥٢٤ هـ / ١١٢٨م، فقام بعده ابن عمّه عبد المجيد ابن محمّد بن المستنصر، الذي لُقّب بالحافظ لدين الله. غير أنّ فريقًا قد قال بأنّ

---

١ - راجع: الجزء العشرين من هذه الموسوعة تحت عنوان: إنهيار الدولة الفاطميّة.

الآمر قد دخل كهف الستر والغيبة فتسلّم الإمامة من بعده أربعة وكلاء هم على التوالي: الحافظ لدين الله إبن الآمر، والظافر بأمر الله إبن الحافظ، والفائز بنصر الله إبن الظافر، والعاضد لدين الله الذي كان آخر الفاطميّين، وبوفاته سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١م، انتهى حكم الفاطميّين بمصر.

ولكنّ المستعلية لم تسقط بسقوط الخلافة الفاطميّة، واستمرّت في اليمن والهند تحت إسم البهرة، أي "التاجر" باللغة الكَجراتيّة الهنديّة، ذلك لأنّهم كانوا يقومون بالتجارة بين اليمن والهند. وقد قاموا ببثّ الدعوة بين الهندوس وخاصّة في جنوب الهند بومباي حيث انتقلت الدعوة إلى هناك، ولهم الآن في الهند ما يزيد على مائة مسجد أفخمها مسجد بومباي المعروف بـ"غرّة المساجد"، وفي بومباي أيضًا قبر "محمّد علي" الذي يُزار من قبل البُهرة، وهو داعية جاء إلى الهند سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م. ولهم تكايا منظّمة في جميع البلاد التي يقصدونها إمّا للحجّ وإمّا للزيارة.

أطلق المستعلية على أعضاء ملّتهم في مختلف بلاد العالم وحيثما كان لهم أتباع إسم "العامل". ويطلقون إسم سلطان البهرة على مَن يعتبرونه النائب عن الإمام الغائب.

أمّا رئيس هذه الفرقة، فكان يعيش في اليمن، إلى أن هاجر من اليمن إلى الهند "السلطان" يوسف بن سليمان سنة ٩٤٦هـ/ ١٥٣٥م، وسكن في "سدهبور"، وكان البُهرة يدفعون له ضريبة العشر والزكاة.

بعد وفاة يوسف، خلفه داود بن عجب شاه، وفي سنة ١٥٨٨م انتخب البُهرة في "كَجرات" داود بن قطب رئيسًا لهم، ولكنّ البُهرة في اليمن لم يبايعوه، وانتخبوا رجلاً يُدعى سليمان لإمامتهم، وكان هذا يعتبر نفسه وصيًّا وخليفة لداود بن عجب شاه، وصار له أتباع عُرفوا بالسليمانيّة، وهكذا انقسمت البهرة إلى فرقتَين: البهرة

السليمانيّة، والبهرة الداوديّة[1]، بعد ذلك جاء سليمان إلى "كَجرات"، ومات في أحمد آباد، فدُفن هناك، وقبره مزار أتباع هذه الطائفة.

يقدّر عدد البهرة اليوم بنحو ٢٥٠ ألفًا، منهم نحو ٢٠٠ ألف في الهند يسكن أكثر من نصفهم في بومباي. وهم على مذهبَين: شيعيّ وسنّيّ[2].

---

١ ـ عدد الداوديّة اليوم يفوق عدد السليمانيّة، حيث يربو على المائة والأربعين ألف شخص، يقيم علماؤهم ورؤساؤهم في مدينة "سوارت" منذ القرن الثامن عشر حتّى الآن.

٢ ـ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نشر جوينبول (ليدن،١٨٥٥) ج ٢ ق ٢، ص ١٢٠ وما بعدها؛ إبن الأثير، الكامل في التاريخ، طبعة دار صادر (بيروت،١٩٨٢) ١١: ١٤١، ١٩٣ ــ ١٩٤؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة (مصر،١٩٥٢)؛ راجع: مغنيّة الشيخ محمّد جواد، دول الشيعة في التاريخ (كربلاء،١٩٦٥) ص ٨٤ ـ ٨٥؛ موسوعة الأديان في العالم، مرجع سابق، ص١٢٣؛ الإسكندراني محمّد، موسوعة الأديان الميسرة، مرجع سابق، ص١٤٨ ـ ١٤٩؛ الموسوعة العربيّة الميسّرة، مرجع سابق، ص٥٧٨.

التيجانيّة

فرقة مؤسّسها أحمد بن محمّد التيجاني الذي اختلف الناس في تقديره من معجب مبالغ في تعظيمه إلى منتقد مبالغ في الحطّ من شأنه[1].

الجبريّة

طائفة ظهرت في القرن الأوّل للهجرة، نسبها بعضهم إلى "جهم بن صفوان" وقال إنّها تُسمّى أيضًا "الجهميّة" نسبة إليه، وهي ضد القدريّة، تقول بأنّ الإنسان مجبَر لا اختيار له ولا قدرة، وإنّ الله قدّر الأعمال أزلاً وخلقها، وأنّ المعتزلة قد عارضوهم لأنّهم يعطّلون الجزاء ويلغون المسؤوليّة[2]. فيما قال بعضهم أنّ الجبريّة إنّما تُنسب إلى رجل يُدعى "الجعد بن درهم"، وكان قد أخذ أفكاره عن يهوديّ بالشام يُدعى أبان بن سمعان، وكان قد أظهر الإسلام وجعل يدسّ في المسلمين أفكارًا غريبة بهدف التشكيك والبلبلة وتعكير الفكر الإسلاميّ، ثمّ تولّى نشر مقالاته في الصفات الإلهيّة وإرادة الإنسان وخلق القرآن ونحو ذلك، رجل يُدعى "بن صفوان" مستغلاً في ذلك قدرته الكلاميّة والخطابيّة، فنشر تلك الآراء بين الناس حتّى أحدث قلقًا وحيرة فيهم، فأحسّ به والي خراسان فطلبه حتّى ظفر به وقتله، لكنّ تلاميذه نقلوا مذهبه ونشروا آراءه في

---

١ ـ وهبة غسّان، جريدة الديار اللبنانيّة، ٢٥ حزيران (يونيو) ١٩٩٩، ص١٢.

٢ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، ص٨٤٥.

نهاوند، ومنها انتشرت في مناطق أخرى بنوع من التخفّي. وقد استمرّت حتّى شاعت الفرق في العهد العباسيّ فأظهروا دعوتهم. وقد نفت الجبريّة الفعل عن العبد وإضافته إلى الربّ تعالى. وقالت بنفي الحريّة الإنسانيّة وبأنّ الإنسان مسيّر في كلّ شؤونه وهي مقدورة عليه من الله، والعبد لا تنسب له الاستطاعة ولا قدرة له ولا إرادة على الاختيار، وإنما يخلق الله فيه الأفعال على كسب ما يكون في المخلوقات الآدميّة كالكواكب والنباتات والحيوانات والمياه...، وقد حشد الجبريّون لتبرير موقفهم آيات قرآنيّة يفيد ظاهرها الجبريّة[1].

الحَرَبِيَّة

فرقة كيسانيّة تبعت رجلاً اسمه عبد الله بن عمرو بن حرب الكندي، قال بأنّ أبا هاشم بن محمّد ابن الحنفيّة، قد نصّبه إمامًا، وتحوّلت روح أبي هاشم فيه. هذه الفرقة بعد أن اتّبعت عبد الله بن حرب وعُرِف أصحابها بالحربيّة، اكتشف أعضاؤها كذب عبد الله[2]، فساروا إلى المدينة يلتمسون إمامًا، فلقوا عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن

---

١ ـ راجع: أبو زهرة محمّد، تاريخ المذاهب الإسلاميّة؛ الهيثمي علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد؛ المصري زكريّا، موسوعة الأديان الميسّرة، ص١٩٥ ـ ١٩٧.

٢ ـ يقول بن حزم الأندلسي: كان عبدالله بن عمرو بن حرب الكندي الكوفيّ يقول بتناسخ الأرواح، وفرض على أتباعه تسعة عشرة صلاة في اليوم والليلة، في كلّ صلاة خمس عشرة ركعة إلى أن ناظره رجل من متكلّمي الصفريّة، وأوضح له براهين الدين، فأسلم وصحّ إسلامه، وتبرّأ من كلّ ما كان عليه، وأعلم أصحابه بذلك وأظهر التوبة، فتبرّأ منه جميع أصحابه الذين كانوا يعبدونه، وفارقوه، ورجعوا كلّهم إلى القول بإمامة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وبقي عبد الله بن عمرو بن حرب على الإسلام وعلى مذهب الصّفريّة إلى أن مات.

جعفر بن أبي طالب، الذي دعاهم إلى أن "يأتمّوا به، فاستجابوا له، ودانوا بإمامته وادّعوا له الوصيّة وافترقوا في أمر عبد الله بن معاوية هذا على ثلاث فرق: فرقة قالت بأنّه مات. وفرقة قالت بأنّه بجبال أصفهان وبأنّه لم يمت ولا يموت حتّى يعود بنواحي الجبال إلى رجل من بني هاشم. وفرقة قالت بأنّه حيّ بجبال أصفهان لم يمت ولا يموت حتّى يلي أمور الناس، وهو المهديّ الذي بشّر به الرسول"[1] ﷺ.

الحَرُورِيَّة

لقب أُطلق على فرقة من الخوارج نسبة إلى "حاروراء" القريبة من الكوفة، حيث اجتمع حوالى أربعة آلاف من الخوارج، وسمّوا عبد الله بن وهب الراسبيّ خليفة، وبايعوه. ومنذ ذلك الحين، بات الخوارج يلقّبون بالحروريّة. وقد جعلوا شعارهم: "لا حكم إلاّ لله"[2]. ويسمون أيضًا "المحكّمة"، لأنّهم رفضوا التحكيم، وهي تسمية من أسماء الأضداد.

---

١ ـ طعيمة د. صابر، الشيعة معتقدًا ومذهبًا، مكتبة الثقافة (بيروت،١٩٨٨) ص١٧٣؛ راجع: الشهرستاني، الملل والنحل؛ الفخر الرازي، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (الطبعة المصريّة) ص ٦٢ وما يليها.

٢ ـ راجع: الخوارج، في هذا الكتاب.

الحُروفيَّة

فرقة من فرق "أهل الحقّ" أو "أهل الحقيقة"[1]، تقول بأنّ جميع الحروف مقدّسة، وفي كلّ حرف سِرّ، وحروف الألفباء منسوخات إنسانيّة، وأنّ مظهر الحروف جمال الإنسان، وتقول بأنّ الإنسان قد امتاز على سائر الموجودات بالقوّة الناطقة، وتدوّن تلك القوّة بواسطة ثمانية وعشرين حرفًا ألفبائيًّا، لذلك عُرفت فرقتهم بالحروفيّة[2]. وهم أتباع فضل الله النعيميّ التبريزيّ المولود في أستر آباد سنة ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م. كان صوفيًّا اشتهر بالتقوى والزّهد فلقّب بـ"آكل الحلال". وكان يعتبر نفسه من السادة العلويّين. سافر إلى الحجّ سنة ٧٥٨هـ/ ١٣٥٦م، وبعد عودته أقام مدّة في خوارزم ثمّ جاء إلى أصفهان وعمل في صناعة القلنسوات. ولمّا بلغ الأربعين من عمره رجع إلى تبريز حيث ادّعى أنّه أُلهم الأسس الغيبيّة للكتب السماويّة وتفاسيرها، فبلغ النبوّة والإمامة. ثمّ عاد إلى أصفهان مرّة أُخرى، فجهر بدعوته سنة ٧٨٨هـ/١٣٨٦م، وألّف كتابه "جاويدان نامه كبير" ٧٩٦هـ/١٣٩٣م، وجعل له تسعة خلفاء. وادّعى فضل اللّه في كتابه "جاويدان نامه كبير" أنّه المقصود بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[3]. وأُطلقت عليه ألقاب كثيرة في كتبه وكتب أتباعه منها: خاتم الأولياء، الخاتم الثاني، مظهر الألوهيّة، صاحب الولاية، المسيح القائم، قائم آل محمّد، المهديّ الشّهيد، صاحب

---

١ ـ راجع: أهل الحق في هذا الكتاب.

٢ ـ الاعتقاد بقدسيّة الحروف لم يكن جديدًا في الإسلام بل يعود إلى القرن الثاني للهجرة، حين قال به المغيرة بن سعيد العجليّ الذي تُنسب إليه الفرقة المغيريّة من غلاة الشيعة، وكان يعتقد أنّ اللّه شيء من نور، ويشبّه أعضاءه بحروف الهجاء فيقول: إنّ الألف منها مثال قدميه، والعين على صورة عينه...

٣ ـ من الآية ٤٣ من سورة الرعد.

البيان، صاحب التأويل، مظهر الكلام القديم... وقيل إنّه عندما كان ميران شاه بن تيمور حاكمًا في آذربايجان، وسمع بكفر فرقة الحروفيّة، استدعى فضل اللّه من شروان إلى تبريز، فقتله بفتاوى من فقهاء ذلك العصر، ثمّ سحب جسده في أسواق تبريز وأزقّتها. ويسمّي الحروفيّة في كتبهم ميران شاه "مارانشاه" أو الدجّال. ولكنّ الحروفيّة قد استمرّت بعد مقتل مؤسّسها، ولها كتاب الـ"محرمنامه" الذي تمّ تأليفه سنة ٨٢٣هـ/ ١٤٢١م الذي يضمّ عقائد الحروفيّة ورسائلها. ويقال إنّه بعد مقتل فضل اللّه الأسترآبادي، قام طلاّبه وخلفاؤه ببثّ الدعوة الحروفيّة في مختلف الأمصار الإسلاميّة. وفرّ أحد خلفاء فضل اللّه الملقّب بـ "عليّ الأعلى" (ت ٨٢٢هـ/١٤١٩م) إلى الأناضول، ونزل في بيت الدراويش والمرشدين التابع للحاج بكتاش[1]، وعاش هناك في عزلة، وقام بتعليم كتب الحروفيّة للصوفيّين الموجودين في ذلك البيت، فقبل به الحاج بكتاش وأتباعه، وأصبحوا من الحروفيّين. ومن عقائدهم: أنّ اللّه تعالى يتجلّى في شخص الإنسان، وأنّ محمّد ﷺ خاتم الأنبياء، انتقلت النبوّة بعده إلى الإمام علي عليه السلام وتسلسلت حتّى الإمام العسكريّ، ثمّ وصلت إلى فضل اللّه الأسترآبادي، وهو خاتم الأولياء وآخر تلك المظاهر الذي يعتبرونه أيضًا طليعة المرحلة الجديدة ومظهر الألوهيّة[2].

---

١ ـ راجع: البكتاشيّة في هذا الكتاب.

٢ ـ موسوعة الأديان في العالم، مرجع سابق، ص١٣٢ ـ ١٣٤؛ أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلاميّة، مرجع سابق.

الحَشّاشُون

الحشّاشون: لقب أُطلق على الإسماعيليّين النزاريّين أتباع الحسن بن الصبّاح وخلفائه، والتسمية مأخوذة من الكلمة الفرنجيّة ASSASSIN وهي بمعنى "فاتك"، أطلقها عليهم الصليبيّون لاشتهارهم بالاغتيال، يبدأ تاريخهم باحتلال "ألموت" ١٠٩٠ على يد الحسن بن الصبّاح الذي انضمّ وهو حدث للدعوة الفاطميّة، ووفد إلى مصر في أثناء حكم الخليفة المستنصر الفاطميّ (١٠٣٥ ـ ١٠٩٤) وانضمّ إلى مؤيّدي إمامة نزار، ثمّ عاد إلى إيران وبثّ دعوته فالتفّ حوله كثيرون. ولمّا احتلّ قلعة "ألموت" اتّخذها مقرًّا لدعوته، ووجّه اهتمامه إلى الإستيلاء على قلاع أخرى وإلى التخلّص من أعدائه. إشتدّ نفوذهم بعد اغتيالهم للوزير السلجوقيّ نظام الملك ١٠٩٢ وكان وزيرًا للسلطان السلجوقيّ ملكشاه. عمل السلاجقة على إخضاعهم عبثًا فاستغلّ الحشّاشون ضعف السلاجقة ونزاعهم على العرش وانقسام الشرق الأدنى الإسلاميّ على نفسه لتقوية صفوفهم وتوسيع نطاق دعوتهم، كما استغلّوا الحروب الصليبيّة لتحقيق أهدافهم، فاستولوا على قلاع مصياف وعليقة وقدموس ١١٤٠ ـ ١١٤١. وقد تميّزوا بتنظيم دقيق وباتّخاذ الاغتيال أداة يتخلّصون بها من أعدائهم، فكان يرأسهم "السيّد" أو "شيخ الجبل" الذي كان صاحب الأمر والنهي ويليه الدعاة، يتلقّون أوامرهم منه وينفّذون تعليماته. وينقسم الباقون إلى مراتب بحس اطّلاعهم على أسرار الفرقة. ومن هؤلاء الفدائيّون الذين كانوا يغتالون الأعداء. ولم يكن يصل إلى مرتبة الفدائيّ إلاّ صاحب البأس وشديد الطاعة الذي يسعى إلى الاستشهاد في خدمة الدعوة. وكان شيخ الجبل يهيّئ الفدائيّ للقيام بوظيفته ويكافئه بإدخاله من حين إلى آخر في جنّة غنّاء قائمة داخل الحصن الجبليّ بعد أن يكون قد تعاطى نوعًا من الحشيش المخدّر، وكان يسمح للفدائيّ

بأن يمارس في الجنّة مختلف أنواع اللذّات الحسيّة. وعندما توفّي حسن بن الصبّاح سنة ١١٢٤ خلفه على رئاسة الدعوة من حصن ألموت على التوالي ستّة من شيوخ الجبل كان آخرهم ركن الدين بن محمّد (١٢٥٥ ـ ١٢٥٦). واتّسع نطاق الدعوة في أيّامهم حتّى شمل الشام. كسرهم المغول على يد هولاكو ١٢٥٦ ـ ١٢٦٠ فاحتلّ قلعة ألموت وقتل ركن الدين، وتتبّع هولاكو باقي الحشّاشين حتّى قضي على مَن كان منهم بفارس. ولقي الحشّاشون في الشام مصيرًا مشابهًا عندما وجّه إليهم سلطان المماليك بيبرس الضربة القاضية سنة ١٢٧٢[1].

الحَلَّاجِيَّة

راجع: الحلوليّة

الحُلوليّة

يشير الصوفيّة بالحلوليّة إلى الصلة بين الربّ (اللاهوت) والعبد (الناسوت)، ويقال للقائلين بالحلول "حلوليّة"، كغلاة الشيعة والباطنيّة وبعض الفرق والحلّاج من الصوفيّة. ولا يعتبر رجال الدين المسلمين أهل الحلوليّة من الإسلام. وكان الغلاة يزعمون أنّ الله تعالى قد يحلّ في أشخاص معيّنين، وأنّ أئمّة مذاهبهم ورؤسائهم ممّن كانوا

---

١ ـ لويس برنار، فرقة الحشّاشين، ترجمة المقدم الياس فرحات، منشورات أحمد منصور حسين بالتعاون مع روضة المعارف للتوزيع، (١٩٩٣)؛ الموسوعة العربيّة الميسّرة؛ حتّي د. فيليب، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين.

يتمتّعون بذلك، وقد عبدوهم بسبب هذا الاعتقاد. وتوالى ظهور القائلين بالحلول عبر التاريخ الإسلامي، ومنهم مَن قال بأنّ بعض أئمّتهم له حقيقة لاهوتيّة لا تدرَك بالحواس ولا بالأوهام، ولا تُعرف بالرأي ولا بالقياس، مهما حاول الإنسان أن يعرف كنهها، وأنّ الجسد هو حجاب لهذا اللاهوت الذي حلّ فيه.

ومن القائلين بالحلوليّة الحسين بن منصور الحلاج (٢٤٤ ـ ٣٠٩هـ/ ٨٥٨ ـ ٩٢٢م) المولود في قرية الطّور من قرى مدينة البيضاء، وهي على سبعة فراسخ من شيراز. ذهب مع أبيه إلى واسط تاركًا البيضاء. ودرس هناك العلوم الإسلاميّة، ثمّ سافر إلى البصرة وهو ابن عشرين سنة. وأصبح هناك من مريدي الصوفيّ المعروف في البصرة: عمرو مكّي. وفي سنة ٢٧٠هـ/ ٨٨٣م، سافر إلى مكّة، ومنها إلى الأهواز منشغلاً بدعوة الناس إلى نفسه. وكان يعرّف نفسه على أنّه رسول الإمام الغائب وبابه. ولهذا عدّه علماء الشيعة من المدّعين للبابيّة.

وبعد أن ادّعى الحلاّج البابيّة قرّر أن يكسب أبا سهل إسماعيل بن عليّ النوبختيّ، وهو من متكلّمي الإماميّة، إلى مذهبه، ليضمن بذلك انضمام آلاف من الشيعة الإماميّة التابعين له بالقول والفعل، إلى أفكاره وتعاليمه الحلوليّة. لا سيّما وقد تعاطف معه جمع من العاملين في البلاط العبّاسيّ. بيد أن أبا سهل، وهو الشيخ المتضلّع الخبير، لم يُطق أن يرى هذا الداعية الصوفيّ بتعاليمه الجديدة يعارض الحسين بن روح النوبختيّ سفير الإمام الغائب. وفي تلك الحقبة لم يكن هناك اعتراف بفقه الإماميّة من قِبَل الخلفاء، فاختار الشيعة المذهب الظاهريّ من بين مذاهب أهل السنّة، ومؤسّسه أبو بكر محمّد بن داود الأصفهانيّ. فاستعان رؤساء الإماميّة وبنو نوبخت على أثر ذلك بمحمّد بن داود الظاهريّ للقضاء على الحلاّج. وأجبروه على الإفتاء بوجوب قتل الحلاّج. فأفتى الظاهريّ بذلك سنة ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م قبل وفاته بقليل. وتزامن مع هذا، مؤازرة الوزير

الشيعيّ أبي الحسن عليّ بن فرات لبني نوبخت في تكفير الحلاّج. غير أنّ الحلاّج كان قد سافر إلى بغداد سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م وتفرّغ هناك لدعوة الناس إلى تعاليمه المرتكزة على نوع من التصوّف الممزوج مع شيء من الحلول. فلاحقه الوزير أبو الحسن بن فرات. وأفتى ابن داود فتواه المعروفة بإهدار دمه. فَفَرَّ الحلاّج من بغداد، وعاش متخفّيًا في شوشتر والأهواز، إلى أن وقع في قبضة السلطة العبّاسيّة سنة ٣٠١هـ/٩١٣م فحبس. وأفتى العلماء بارتداده وخروجه عن الدين، فصلب بأمر المقتدر العبّاسيّ ووزيره حامد بن عبّاس، ثمّ أُحرق. وعُلّق رأسه على أعلى جسر بغداد. كان ذلك في ٢٤ ذي القعدة من عام ٣٠٩ هـ/ ٩٢١م.

لم يعتقد الحلاّج بأداء الفرائض الدينيّة. ومن ناحية علم الكلام فإنّه ينزّه اللّه عن حدود الخلق، أي: الطول والعرض. وكان يقول بوجود روح ناطقة غير مخلوقة تتّحد مع روح اللّه، وحلول اللاّهوت في الناسوت. وبما أنّه يقول بحلول روح اللّه في الإنسان لذلك كان يدّعي: أنا الحق. وكان يقول: يمكن أن تتّحد إرادة الصوفيّ مع إرادة اللّه عن طريق الشوق والاستسلام للألم والمعاناة، ويسمّى هذا الاتّحاد: عين الجمع. ويذهب محيي الدين بن عربي (٦٥٠هـ/ ٦٣٨م) مذهبًا في وحدة الوجود يعدّ فيه كلّ عبادة عبادة صحيحة، فالخالق عنده قد حلّ في كلّ مخلوق، وظهر من خلاله، ولذلك يرى أنّ كلّ الناس يعبدون الإله الواحد المتجلّي في صورهم وصور جميع المعبودات.

ومن الأفكار المعاصرة في باب الحلول معتقد البهائيّة[1].

---

١ ـ أبو ريان د. محمّد علي، الحركة الصوفيّة في الإسلام، دار المعرفة الجامعيّة (الإسكندريّة)؛ الأمين يحيى بن شريف، معجم الفرق الإسلاميّة، دار الأضواء (بيروت)؛ السحمراني د. أسعد، البهائيّة والقاديانيّة، دار النفائس (بيروت)؛ السحمراني، موسوعة الأديان الميسرة، مرجع سابق، ص٢٢١ ـ ٢٢٢؛ موسوعة الأديان في العالم، مرجع سابق، ص١٣٤ ـ ١٣٦.

الخَوارِج

يعتبر محقّقون أنّ أوّل فرقة ظهرت في الإسلام، هم الخوارج. وقد أطلق الخوارج على أنفسهم لقب: الشُراة، أي: الباعة، ومفردها: شار. وقد اختاروا هذا اللقب لأنفسهم، لأنّهم يضحّون بأرواحهم طلبًا لثواب الآخرة على حدّ زعمهم. وهذا اللقب مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[1] ويعتبر باحثون أنّ ما قيل بأنّ أعداء الخوارج هم الذين ألصقوا لقب "الخوارج" بهم غير صحيح، وذلك لأنّه لا ينطبق عليهم بمعنى التمرّد والعصيان. فهذا اللقب مثل لقب المهاجرين الذين تركوا أوطانهم وهاجروا في سبيل اللّه، قد أُخذ من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[2]. ولكنّ الشائع أنّ تسمية الخوارج قد أُطلقت على أولئك الذين خرجوا على أمير المؤمنين عليّ عليه السلام من جنده، عندما قبل عليّ عليه السلام بموضوع التحكيم في معركة صفّين، فأعلنوا غضبهم لقبول التحكيم رغم أنّهم هم الذين أرغموه عليه. وأخذوا يلومونه ويلومون أنفسهم لانخداعهم بخدعة عمرو. ثمّ اجتمع حوالى أربعة آلاف من الخوارج في "الحروريّة"، أو "حاروراء" بالقرب من الكوفة، وسمّوا عبد اللّه بن وهب الراسبيّ خليفة، وبايعوه. ومنذ ذلك الحين، بات الخوارج يلقّبون بالحروريّة. وقد جعلوا شعارهم: "لا حكم إلاّ لله".

---

١ ـ البقرة: ٢٠٧.

٢ ـ من الآية ١٠٠ من سورة النساء.

وبذلك، بات في الإسلام، للمرّة الاولى، أكثر من خليفة. بل أصبح هنالك ثلاثة خلفاء: الخليفة الشرعيّ عليّ بن أبي طالب ﷺ. والخليفة المتمرّد، معاوية. وخليفة الخوارج، عبد الله بن وهب الراسبيّ.

وبينما كان أنصار بني أميّة في الشأم ومصر، يرون أن تكون الخلافة في قريش وأنّ البيت الأمويّ أحقّ بها، وبينما كان شيعة عليّ بن أبي طالب ﷺ في العراق يرون أن تكون الخلافة في قريش، وأنّ عليًّا ﷺ، وأولاده من بعده، أحقّ المسلمين بها، كان الخوارج، وهم خصوم الفريقَين، يستحلّون دماءَ أنصار الإثنَين، ويرون أنّ كل أفراد الجماعتَين خارجون على الدين. وكان هؤلاء الخوارج يمثّلون الديموقراطيّة الإسلاميّة، إذ كانوا يرون أنّ الخلافة حقّ لكلّ "مسلم عربيّ حرّ"، ثمّ عدّلوا شرطهم إلى "الإسلام والعدل" بدل "العروبة والحريّة"، خاصّة بعد أن انضمّ إلى صفوفهم كثير من المسلمين من غير العرب، أكثرهم من الفرس. كما قالوا إنّه "إذا اختير الخليفة فلا يصحّ أن ينزل عنها"، إشارة إلى قبول عليّ ﷺ بالتحكيم. وإذا ظلم استحلّوا عزله أو قتله، إشارة إلى موقفهم من مقتل عثمان[1]. كما "أبى الخوارج الأخذ بكرامة الأولياء، وبما يرافق ذلك من مراسم خاصّة وزيارات إلى مدافن الصالحين، وحرّموا الطرق الصوفيّة على اختلافها"[2].

عند هذه المستجدّات، كان لا بدّ من أن يصطدم عليّ ﷺ بالخوارج، قبل أن يعود الى تحكيم السيف بينه وبين معاوية. خاصّة بعد أن كان هؤلاء قد بدأوا ما يشبه الثورة على عليّ ﷺ، إذ بعد مبايعتهم الراسبيّ، شنّوا هجومًا على المدائن "وقتلوا عامل

---

١ ـ راجع: مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص٥٢٨ ـ ٥٢٩.

٢ ـ بولس جواد، التحوّلات الكبيرة في تاريخ الشرق الأدنى منذ الإسلام، دار عودة (بيروت، لا.ت.) ص ١٠٣.

عليّ ﷺ عليها: عبد خبّاب، ذبحًا، وبقروا بطن امرأته الحامل، وقتلوا غيرها من النساء، وطاردوا الأنصار والمهاجرين"[1].

إنتقل عليّ ﷺ على رأس خمسة وثلاثين ألف مقاتل ونزل الأنبار[2]، حيث التأمت إليه العساكر، فخطب في الناس وحثّهم على محاربة جماعة معاوية "فإنّهم أهمّ علينا من الخوارج". غير أنّ الجموع أبوا إلاّ أن يبدأوا بالخوارج[3].

سار عليّ ﷺ بجيوشه حتّى وصلوا النهروان، الواقعة بين بغداد وواسط. وكعادته قبل كلّ قتال، حاول عليّ ﷺ أن يثني الخوارج عن موقفهم، فبعث إليهم رسولاً يدعوهم إلى الرجوع وقد خرجوا، إلاّ أنّ جوابهم كان عنيفًا:

إن تبْت من حكومتك وشهدت على نفسك بالكفر بايعناك، وإن أبيت فاعتزلنا حتّى نختار لأنفسنا إمامًا؛ فإنّا منك براء[4]. وإذ لم ييأس عليّ ﷺ من إقناعهم، راح يردّ الرسول بكلام يدعو إلى التعقّل، ويعود الرسول بجواب رافض لا يخلو من التحدّي. بينما راح الخوارج يتقدّمون نحو موقع جند عليّ ﷺ، حتّى أعطى أوامره بالهجوم عليهم، وكانت "واقعة النهروان" التي كاد عليّ ﷺ أن يبيد فيها الخوارج، وقيل إنّه لم يسلم منهم سوى عشرة أنفار من أصل أربعين ألفًا. وإنّه لم يُقتل لعليّ ﷺ سوى عشرة[5]. إلاّ أنّ عددًا لا بأس به من الخوارج، على ما يبدو، لم يكن في صفوف

---

١ ـ راجع: المسعودي، مروج الذهب (القاهرة،١٩٦٥) ٣: ١٥٥.

٢ ـ **الأنبار**: مدينة قديمة كانت تقع على الفرات من العراق.

٣ ـ راجع: المسعودي، مرجع سابق، ٣: ١٥٥ ـ ١٥٦.

٤ ـ راجع: المسعودي، مرجع سابق، ٣: ١٥٦؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٩٢.

٥ ـ راجع: الطبري، الطبري أبو جعفر محمّد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك (١٨٧٩ ـ ١٨٨١) ١: ٣٣٨٣؛ شرح نهج البلاغة، ١: ٢٠٥؛ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٥٧ ـ ١٥٨؛ اليعقوبي، طبعة دار صادر (بيروت، لا.ت.) ٢: ١٩٣.

المقاتلين، وقد يكون هؤلاء هم الذين سلموا، وواصلوا الانتشار في ما بعد، سواء في أيّام الدولة الأمويّة أو الدولة العبّاسيّة[1]. أمّا موقعة النهروان، فقد جرت سنة ٦٥٨. وفي صبيحة ٢٤ كانون الثاني (يناير) سنة ٦٦١، بينما كان عليّ عليه السلام في طريقه إلى المسجد في مدينة الكوفة، سدّد إليه أحد الخوارج طعنة صائبة بخنجر مسموم وقعت في جبهته، تنفيذًا لمؤامرة حاكها الخوارج، كانت تقضي بقتل عليّ عليه السلام ومعاوية وعمرو بن العاص. إلاّ أن عليًّا عليه السلام وحده، قُتل، ولم يوفَّق المكلّفان بقتل الآخرَين في إنجاز مهمّتهما[2].

إصطبغت آراء الخوارج السياسيّة بالأبحاث الدينيّة، فقالوا إنّ العمل بأوامر الدين من صلاة وصيام وصدق وعدل جزء من الإيمان، وليس الإيمان هو الاعتقاد بالله ورسالة محمّد ﷺ فحسب... فمَن اعتقد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّدًا رسول الله، ثمّ لم يعمل بما يفرضه الدين، وارتكب الكبائر فهو كافر. وامتاز الخوارج بشدّة تمسّكهم بالقرآن الكريم واتّباع أحكامه وتنفيذ أوامره، وكان خوفهم من عذاب الله يوم القيامة يثير في نفوسهم الحماس للحقّ وشدّة التمسّك به، والامتثال لأوامر الله واجتناب نواهيه. إلاّ أنّهم غالوا في إنكارهم حتّى عدّوا مرتكب أيّ هفوة مهما صغرت كافرًا. واشتدّوا في معاملة المخالفين لهم. حتّى كان كثير منهم لا يرحم المرأة ولا الطفل الرضيع ولا الشيخ الفاني. ولم يتورّعوا عن ارتكاب أشدّ الأعمال قسوة، برغم ما كان من ظهورهم بمظهر العباد الزاهدين وتورّعهم عن تافه الأشياء، كما كانوا يأتون بأفظع المنكرات كأنّهم لا يدينون بإله ولا يعرفون شفقة ولا رحمة. ويقول البعض إنّ العوامل

---

١ - راجع: مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص٥٢٩.

٢ - لتفاصيل مقتل عليّ عليه السلام: راجع الجزء التاسع عشر من هذه الموسوعة؛ وراجع: المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٦٤ وما يليها؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٢١٢.

التي أثّرت في عقيدة الخوارج لم تكن عوامل داخليّة ذاتيّة بقدر ما كانت عوامل خارجيّة، إذ ساهم فيها اختلاط العرب باليهود والنصارى واختلاطهم أكثر من ذلك بالفرس، الذين كانوا عوامل رئيسيّة في كلّ ذلك الاضطراب الذي دخل على الدين. ومن أجل ذلك أيضًا تفرّق الخوارج أنفسهم إلى فرق عدّة، كاد عددها يصل إلى عشرين فرقة. ولكنّ هذه الكثرة لم تمنع من أن يكون بين الخوارج مَن يبدو فيهم الاعتدال، وأن يكون بينهم مَن يميلون إلى المغالاة. على أنّ مغالاة بعض فرق الخوارج كانت هي السبب بغير شكّ في اتهامها هي نفسها بالخروج على الإسلام. وكان من بينها فرقتان بارزتان هما: اليزيديّة أتباع يزيد بن أبيه الذي زعم أنّ الله سيرسل رسولاً من العجم وينزل عليه كتابًا ينسخ القرآن... والميمونيّة أتباع ميمون العجردي الذي أباح الاتّصال ببنات الإبن وبنات أولاد الإخوة والأخوات، كما أنكر سورة يوسف ولم يعدّها من القرآن، وزعم أنّها قصّة من القصص. وقالوا إنّه لا يجوز أن تكون قصّة العشق من القرآن فاستبعدوها[1].

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص٥٣٠ ـ ٥٣١.

الدَّاوُدِيَّة الظَّاهِرِيَّة

فرقة أو مذهب منسوب إلى أبي سليمان داود بن عليّ بن خلف الأصفهانيّ الملقّب بالظاهري (٢٠١ ـ ٢٧٠هـ/ ٨١٦ ـ ٨٨٣م)، أحد أئمّة الفقه والاجتهاد في الإسلام، وصاحب مذهب عُرف به هو المذهب الظاهريّ، وبعدها بات يُعرف باسم داود الظاهري. كان داود الظاهريّ كاشانيّ المحتد، كوفيّ المولد، بغداديّ الموطن، أخذ العلم عن إسحاق بن راعويه وأبي ثور وسواهما، أيّد الإمام محمّد بن ادريس الشافعي بحماسة، وانتهت إليه الزعامة الفقهيّة لأهل السنّة والجماعة. إشتهر بزهده وورعه.

في منهجه الفقهيّ أعرض داود عن التأويل والرأي والقياس مكتفيًا بظاهر القرآن. وبالنسبة إلى الإجماع، فقد قال بإجماع صحابة النبيّ ﷺ أو إجماع جميع علماء الأمّة، ولم يقرّ بالاستحسان والتقليد. كانت له مؤلّفات كثيرة ذكرها ابن النديم في صفحتَين من كتاب الفهرست. كثرت أعماله بالسنّة النبويّة حيث جمع في ما خطّه ثبتًا كبيرًا من الأحاديث النبويّة الشريفة، وإليه ينسب مؤرّخو المدارس الفقهيّة القول بالظاهر، وأخذ الأحكام من ظاهر الشريعة. وكان يقول: "أفضل الناس بعد الأنبياء أصحاب رسول الله ﷺ. وأفضل الصحابة الأوّلون من المهاجرين، ثمّ الأوّلون من الأنصار، ثمّ من بعدهم منهم ولا نقطع على إنسان منهم بعينه أنّه أفضل من آخر من طبقته".

كان أبرز مَن عمل على نشر المذهب الظاهريّ من تلاميذ داود، إبنه أبو بكر محمّد بن داود، وقد انتشر مذهبه في القرن الرابع الهجريّ في المشرق وكثر أتباعه حتّى ضاهى مذاهب أبي حنيفة والشافعي ومالك، بعدها خبا المذهب ليعود فيظهر في المغرب بفضل ابن حزم الأندلسي المتوفّى سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م الذي ألّف كتابًا في

أُصول مذهبه يقع في ثمانية أجزاء، عنوانه: الفقه الظاهريّ. ومن ثمّ لم يلبث المذهب أن تقلّص أتباعه، ولكنّه لم يفقد وهجه بين العلماء[1].

الدَّرقاويَّة

فرقة من الصوفيّة منسوبة إلى سيدي أبي حامد الدرقاويّ (١٧٣٧ - ١٨٢٣) تدعو إلى الزهد واحتقار الغنى، وقد أوجد في التصوّف حماسة دينيّة شديدة وامتدّ تأثيرها من مراكش إلى المغرب الأوسط، لا بل إنّها خرجت من حدود المغرب وانتشر أتباعها في الجزائر وليبيا ومصر وسوريا وفلسطين، وكان الهدف من تأسيس هذه الطريقة إصلاح الخلل الذي طرأ على الطريقة الشاذليّة التي أسّسها أبو الحسن الشاذلي. فالشاذليّ أسّس طريقته على عدم حرمان النفس من نعم الحياة مع الكسب والعمل. ومع الزمن انحرف أتباعها فانتخبوا منها ومن التصوّف القديم ما يُشبع شهواتهم. فمن الشاذليّة أخذوا حريّة الاستمتاع بالطيّبات من الدنيا ومن غيرها وأخذوا ترك العمل والتواكل على اعتبار أنّ ما كُتب لك سوف يأتيك وأنّ رزقك يطلبك وإن لم تطلبه، وقالوا بوجوب توفير حاجة شيوخ الطريقة. ويؤخَذ على هذه الطريقة ما تابعوا فيه شيخهم الذي كان يلبس الخشن من الثياب ويجعل على ظهره قرابين ويعرّي رأسه ويمشي حافيًا متسوّلاً في الأسواق سيرًا على منهج "الملامتية". ويُذكر لأصحاب هذه الطريقة مشاركتهم بشكل فعّال في الحرب ضدّ الفرنسيّين في المغرب والجزائر[2].

---

١ - ابن خلكان، وفيّات الأعيان (القاهرة،١٢٩٩هـ)؛ إبن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل؛ السحمراني، موسوعة الأديان الميسّرة، ص٢٤٠ - ٢٤١؛ إبن النديم، الفهرست.

٢ - وهبة غسّان، جريدة "الديار" اللبنانيّة، عدد ٢٥ حزيران (يونيو) ١٩٩٩، ص ١٢؛ الموسوعة العربيّة الميسّرة، ٢: ١٠٨٨.

الرِّفاعيَّة

تُنسب هذا الطريقة لأبي العبّاس أحمد بن علي بن أحمد الرفاعي المغربيّ (١١١٨ ـ ١١٨٢) المولود بإقليم البطائح بقرية أمّ عبيدة ما بين البصرة وواسط العراق، نشأ في البصرة، أخذ العهد عن خاله الذي كان شيخ طريقة تُعرف بالرفاعيّة أسّسها في العراق، ثمّ خلف خاله على الطريقة، وكان من شيوخه عبد القادر الجيلاني. ومن العراق تفرّعت الرفاعيّة إلى تركيا وسوريا ولبنان ومصر. ويُروى أنّه كان شديد الزهد في الدنيا يعيش حياة فاقة وفقر، شديد الحلم على الحيوانات والحشرات، كثير الخدمة للعجزة والمعوزين. ولعطف الرفاعيّة على الحيوانات قيل عنهم إنّهم يروّضون الحيوانات المفترسة والثعابين ويقومون بأعمال خارقة كأكل الزجاج والنيران وركوب السباع. وقيل إنّ هذه الكرامات لم تُنسب للرفاعي إلاّ بعد موته بزمن طويل، ولعلّ ما يرجّح هذا الرأي ما نُقل عنه قوله: "أي أخي، أخاف عليك من الفرح بالكرامة وإظهارها، الأولياء يستترون من الكرامة كاستتار المرأة من دم الحيض". أمّا ما عُرف عن كراماته في حياته فكان إذا تحدّث من مكانه سمعه أهل القرى المجاورة كأنّه يتحدّث إليهم. بعد وفاته انتقلت الرئاسة إلى أسرة أخيه وما لبثت أن انقسمت إلى فرعَين: العلوانيّة والجباويّة وتُعرف في مصر بـ "الدوسة" وهي أنّ الشيخ يدوس أجساد أتباعه المنبطحين وهي أكثر الطرق غلوًّا من حيث جرح الأجساد وأكل الزجاج والحديد. وأثناء الذكر يردّدون اسم اللّه في شكل أنين نصف منطوق. كانت الرفاعيّة في تنافس مع الطريقة الجيلانيّة[1].

---

١ ـ وهبة غسّان، جريدة "الديار" اللبنانيّة، عدد ٢٥ حزيران (يونيو) ١٩٩٩، ص ١٢؛ الموسوعة العربيّة الميسّرة، ٢: ١١٩٤.

الزاريّة

المقول إنّ "الزاريّة" شيعة، غير أنّ هذا القول ليس دقيقًا. منهم كثرة في أفريقيا، وتفرّعوا إلى بندر عبّاس وأطرافها، وبعضهم في اليمن، ولا يزال عدد منهم يتكلّم اللّغة "السّواحليّة" الأفريقيّة. ويبدو أنّ طقوسهم بقيت متأثّرة ببعض الطقوس الأفريقيّة البدائيّة رغم اعتناقهم الإسلام، فأعمالهم وممارساتهم فيها شيء من السحر. فهم يجتمعون، فيعزفون، ويضربون على طبل يسمّى "لايبا"، ويركلون الشخص الذي مسّه الجنّ ضربًا، لطرد الشّيطان أو الجنّ أو الروح الشرّيرة من بدنه. ويسمّون شيخهم "البابا"، وهذا له قدرة، مع عدد من أصحابه، على طرد الأرواح الشرّيرة من جسم المجنون، أو الذي سكنه "الزّار". وعند إجراء المراسيم يفقد البابا وعيه. ومن ضمن تلك الأعمال والممارسات حرق نباتات خاصّة قرب الشخص الذي مسّه الجنّ ليشمّ دخّانها، أو تقديم أضحية كذبح الدجاج. ويمكن لمن استقرّ الزّار في بدنه أن يوحي إليه من قبل الروح التي في داخله، فيتنبّأ بالغيب. وأحيانًا تقوم امرأة ساحرة بإخراج الزّار من جسم الممسوس[1].

---

١ ـ موسوعة الأديان في العالم، ص١٤٣ ـ ١٤٤.

الزنادقة

"الزنديق"، كلمة معرّبة عن الفارسيّة، يقابلها في العربيّة "ملحد" و"دهري"، وأصبحت كلمة زنديق اصطلاحًا في العصر العبّاسيّ الأول، يُطلق على المسلم الملحد الذي يكون تفسيره للنصوص الشرعيّة في القرآن والسنّة موجبًا لضلال المسلمين، وعلى مَن ينفي وجود الله، أو يقول إنّه شريكًا له، أو مَن يبطن الكفر ويظهر الإيمان، ومَن يتمسّك بعقيدة الثنويّة وعبادة إلهَين اثنَين، وأتباع تعاليم ماني، بل إنّه أُطلق في الروايات المبكّرة على كلّ مَن يتأثّر بالفرس في عاداتهم ويسرف في العبث والمجون. وجريمة الزندقة في الإسلام تعرّض صاحبها للقتل عملاً بالآية: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾[1].

إعتبر بعض الباحثين أنّ أوّل الزنادقة هم الموالي الفرس الذين كانوا في الكوفة والحيرة، ونسبوا أنفسهم إلى قبائل عربيّة، وكانوا يروّجون لعقائدهم الكافرة. وأوّل من أظهر الزندقة هو الجعد بن درهم المقتول سنة ١٢٠هـ/٧٣٧م، وكان في العراق. ثمّ تبعه بشّار بن برد، وصالح بن عبد القدّوس، وابن الراونديّ، وابن المقفّع.

وبمرور الزمن، أخذ الزنادقة يشدّدون هجومهم على عقيدة المسلمين وأدبهم وتراثهم وتاريخهم، ومضوا في إعلان آرائهم بين الناس، وخاصّة في زمن الخليفة المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩هـ/ ٧٧٥ ـ ٧٨٥م) حيث انتشرت الزندقة حتّى سرت إلى بيوت الوزراء والشعراء، ولكن المهدي ما لبث أن بدأ حملته المعروفة ضدّهم، فتتبّعهم وأنشأ

---

١ ـ من الآية ٣٣ من سورة المائدة.

ديوانًا خاصًّا لهم عُرف بـ"ديوان الزنادقة"، وعيّن عليه عددًا من المسؤولين في بغداد. أمّا في الأقاليم فكان عريف الزنادقة هو الذي يشرف عليهم، يعاونه المحتبسون ورجال الشرط. وقد تشدّد المهدي في ملاحقة الزنادقة وقتل من تثبت عليه تهمة اتباعهم، وجعل لهم سجنًا خاصًّا عُرف بسجن الزنادقة. وأمر المهدي المتكلّمين بتصنيف الكتب والردّ على تعاليمهم، فاكتسبت ملاحقة الزنادقة عمقًا فكريًّا. وبعد المهدي واصل الهادي الحملة على الزنادقة وقتل منهم العديدين، وأقسم أنّه سيبيدهم. وكذلك فعل الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣هـ/ ٧٨٦ ـ ٨٠٩م.) الذي ضرب البرامكة بسبب زندقتهم. غير أنّ الزندقة بقيت بعد عهد الرشيد وتسرّبت إلى بلاط المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ/ ٨٣٣ ـ ٨٤٢م) الذي كان قائده الأفشين بدين بعقائد المانويّة. ويبدو أنّ الزنادقة الحقيقيّين لم يتراجعوا عن دينهم المزدكيّ والمانويّ، وكانوا يضحّون بأنفسهم في سبيل ذلك. ومن مشاهير الزنادقة ومتكلّميهم: ابن طالوت، والنعمان، وكلاهما أُستاذا ابن الراونديّ، الزنديق المشهور. ومن الشخصيات البارزة للزنادقة: عبد الكريم بن أبي العوجاء. وممّن عُدّ من الزنادقة من بين الأدباء والشعراء: إبان بن عبد الحميد اللاّحقيّ الذي نظم "كليلة ودمنة" لابن المقفّع، شعرًا. وبشّار بن برد الذي كان من القوميّين الإيرانيّين العنصريّين. وعدّوا أبا العتاهيّة من الزنادقة أيضًا، لأنّه ذكر في شعره أصالة الخير والشرّ، والنور والظلمة. وكذلك عدّوا منهم الوليد بن يزيد الأمويّ، الخليفة الملحد الذي تطاول على القرآن الكريم، فمزّقه بسهم رماه عليه، ثمّ أحرقه، وممّن عدّ رعيل الزنادقة: معن بن زائدة الشيبانيّ، وعبد السلام بن رعبان.

لقد عدّت الزندقة مظهرًا أساسيًّا من مظاهر الشعوبيّة، وهي أعلى مراحل التحدّي الدينيّ والفكريّ والاجتماعيّ للإسلام. غير أنّ عناصر الوحدة والتماسك في المجتمع

العربيّ الإسلاميّ كانت لا تزال مسيطرة، فنجح التصدّي الفكريّ والسياسيّ للزندقة في القضاء عليها[1].

السَّبَئيَّة

تنسَب السَّبئيّة إلى ابن السوداء عبد الله بن سبأ، الذي كان يهوديّ الأصل، من صنعاء، يقول الشيعة، إنّه نزل حاضرة الإسلام فتظاهر بإسلامه، وتغلغل بين صفوف الجماهير الإسلاميّة، فعرف مراميهم ومقاصدهم، وعرف أنّ منصب الخلافة أصبح واهي الدعائم تحت عثمان، وعرف أنّ النفوس تنزع إلى عليّ بن أبي طالب ﵇، وهو الرجل الذي يريد ابن سبأ أن يستغلّ اسمه في فكرته الجديدة ومذهبه الجديد، وإن كان هو، أي عليّ ﵇، لا يتقبّلها، ولا تنطلي عليه، وإن كانت تهدف إلى توليته وتنصيبه. ولعلم بن سبأ بأنّ تربة المدينة لم تكن تصلح لبذر فكرته ومذهبه، كان لا بدّ له من أن يجد تربة خصبة تنمو فيها وتؤتي أكلها. فإنّه وإن كان في المدينة مَن يتقبّل الفكرة ما دامت تقوم على رفع شأن عليّ ﵇، لأنّ في المدينة كثيرين ممَّن يحبّونه ويوالونه، غير أن عليًّا ﵇ ما كان ليسمع بها حتّى ينهض لمحاربتها، لأنّه لا يريد أن يرتفع، في المناصب، عن طريق البدع والافتراءَات. ورأى ابن سبأ أنّ خير تربة لفكرته هي التي تكون بعيدة عن مرأى عليّ ﵇ ومسمعه. إذن فليس غير البصرة بعيدة عنه، وبعيدة أيضًا عن مناهضة الدولة وقضائها على كلّ دعوة تقوم مخالفة للحكم القائم، خصوصًا

---

[1] الجاحظ، البيان والتبيين؛ الطبري، تاريخ الأمم والرسل والملوك؛ أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني؛ الغزالي أبو حامد، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة؛ خليل عماد الدين، موسوعة الأديان الميسّرة.

إذا كان فيها ما يسمّ الخلافة من قريب أو بعيد...

وينتقل هذا الإستنتاج الشيعيّ إلى اعتبار أنّ ابن سبأ، اختار البصرة، لنشر دعوته، لأنّها، إضافة إلى الأسباب التي ذُكرت، تضمّ "أذهانًا تتقبّل الفكرة ما دامت غايتها الظاهرة القضاء على الحكم القائم الذي انحرف عن تعاليم الشريعة الغرّاء، وعامل الناس بغير العدالة والمساواة الإسلاميّة التي آخت بين الناس وألغت الفوارق بينهم"[1]...

وبينما يردّ البعض وضع أسس مبادئ الشيعة إلى ابن سبأ، الذي أخذ بمذهب الوصاية، فقال إنّ "عليًا عليه السلام وصيّ محمّد ﷺ، وإنّه خاتم الأوصياء بعد محمّد ﷺ، خاتمة النبيّين"...، كما قال أيضًا "إنّ عليّا عليه السلام هو الخليفة بعد النبيّ ﷺ، وإنّه يستمدّ الحكم من الله"[2]، يتبرّأ الشيعة من هذا الداعية، ويلقبّونه بالـ"يهوديّ الأسود"، الذي كان يخطّط لهدم الإسلام.

لاقت دعوة ابن سبأ آذانًا صاغية في البصرة، خاصّة لجهة دعوته لإمامة عليّ عليه السلام وخلافته. إذ راح يُعيد على الناس ما نُسب إلى الرسول ﷺ من أنّه "وقف بين الألوف المؤلّفة في حجّة الوداع، عند غدير خمّ، يستظلّ حرارة الشمس الملتهبة بثوب عُلّق على شجرة، وهو ينادي قائلاً: "أيّها الناس مَن أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟ إنّ الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم". ثمّ أخذ بيد عليّ عليه السلام وهو إلى جانبه فرفعها حتّى بان بياض إبطَيهما وأردف يُتمُّ الحديث: "فمن كنتُ مولاه فعليٌ مولاه، اللهمّ والِ مَن والاه وعادِ مَن عاداه"[3].

---

١ - الإمام عليّ وفضائله، دار مكتبة الحياة (بيروت) ص٩٤.

٢ - مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص٤٩٧.

٣ - راجع: اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١١٢.

وعندما استفاق والي البصرة الشاب، ابن عمر، من غفلته، كانت دعوة ابن سبأ قد ملأت قلوب الناس، وكان رسله قد تفرّقوا في البلاد ينشرون مذهبه، ويدعون لولاية عليّ عليه السلام، قائلين بأنّ "عثمان قد أخذها بغير حقّ". وإذ خشي والي البصرة من مغبّة القضاء على ابن سبأ، نفاه. فتوجّه الداعية إلى الكوفة، حيث سارع إلى بثّ دعوته، وقد لاقى فيها التجاوب نفسه من الشعب، والمصير نفسه من الوالي، إذ نفاه سعيد بن العاص، فتوجّه إلى الشام، حيث كان النفي بانتظاره على يد معاوية الذي حرّم عليه المكوث في كلّ البقاع التابعة لولايته. وينتهي المطاف بابن سبأ في مصر، حيث راحت دعوته تنمو وتنتشر حتّى أصبحت مصر مقرًّا رئيسًا للسبئيّين، أتباع ابن سبأ، نظريًّا، وشيعة عليّ عليه السلام، عمليًّا، وإن كانت الشيعة لا تقرّ تعاليم ابن سبأ كما بشّر بها.

وفي المدوّنات أنّ بعضهم، من أنصار ابن سبأ، ذهب إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام وقالوا له: - "أنت هو". فقال عليّ عليه السلام: "ومَن هو؟" قالوا له: - "أنت الله"... وغضب عليّ عليه السلام وأمر بنار أوقدت، وأمر مولاه بأن يُلقي بهؤلاء الرجال في النار، وبينما كانوا يُساقون إلى النار كانت أصواتهم ترتفع لتقول: "الآن صحّ عندنا أنّه الله"[1].

وعندما مات عليّ عليه السلام قال السبئيّة بأنّه سيرجع مرة أخرى... وإنّه هو المهديّ المنتظر. وقال ابن سبأ لمّا بلغه مقتل عليّ عليه السلام: لو أتيتموني برأسه سبعين مرة ما صدّقنا موته. ولا يموت حتّى ينزل من السماء ويملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جورًا.

وقال السبئيّة إنّ المقتول لم يكن عليًّا عليه السلام وإنّما كان شيطانًا تصوّر للناس في صورة عليّ عليه السلام، وإنّ عليًّا عليه السلام صعد إلى السماء كما صعد إليها عيسى بن مريم عليه السلام، وعندما يعود سيجيء من السماء. وقالوا أيضًا إنّ الرعد صوت عليّ عليه السلام والبرق

---

١ - راجع: مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص٥٣٢.

نوره. حتّى إنّهم عندما كانوا يسمعون صوت الرعد كانوا يهتفون: "عليك السلام يا أمير المؤمنين"[1].

وما لا بدّ من توضيحه هنا، أنّ السبئيّة لم يكونوا وحدهم شيعة عليّ ﵇، فقد كان هناك فريق معتدل لا يمكن أن يتطرّق الشكّ إلى إيمان أفراده وإخلاصهم للإسلام[2].

السَّلمانيَّة

عرّف الباحثون في موضوع الفرق الإسلاميّة السلمانيّة بأنّهم الأتباع الشذاذ لسلمان الفارسيّ، أوّل إيرانيّ تشرّف بالإسلام. وقالوا إنّه كان من الصّحابة القدامى لرسول ﷺ الذي سمّاه: سلمان الإسلام. وما لدينا عن سلمان الفارسيّ (ت٣٥هـ/ ٦٥٥م)، أنّه يتحدّر من مجوس أصفهان، أو من رامهرمز، كان على الدين المزدكي، ثمّ اعتنق المسيحيّة قبل أن يعتنق الإسلام ويصبح من خواص الصحابة، كان رقيقًا، أسلم بعد الهجرة، قال الرسول ﷺ عنه "سلمان منّا آل البيت". ونقلَ الرواة عن الإمام الباقر قوله في تأييد هذا الخبر: "سلمان امرؤ منّا وإلينا أهل البيت، ومن لكم بمثل لقمان الحكيم. وكان بحرًا لا ينزف ولا يدرك، وعنده العلم الأوّل والعلم الآخر، والجنّة تشتاق إليه كلّ يوم خمس مرّات". وقد أجمع الرواة على أنّ سلمان هو الذي أشار على النبيّ ﷺ بحفر الخندق في غزوة الأحزاب[3]. ومع أنّ سلمان كان من الموالي، بيد أنّه كان يأخذ نفس

---

١ - مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص٥٣٣.

٢ - راجع: الجزء التاسع عشر من هذه الموسوعة.

٣ - اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٥٠ راجع: الجزء السابع عشر من هذه الموسوعة.

الحقوق الّتي كان يأخذها صحابة النبيّ ﷺ من البدريّين.

وكان سلمان حاضرًا في سقيفة بني ساعدة عند انتخاب الخليفة الأوّل أبي بكر. ولم يكن راضيًا بانتخابه بسبب حبّه وولائه الشديد للإمام عليّ[1] عليه السلام. غير أنّ عمر قد ولّاه عاملاً على المدائن.

كان سلمان يأكل من كدّ يمينه ويتصدّق بالفائض، فقد كان يأخذ حقّه وعطاءه من بيت المال، فيقسّمه على الفقراء والمحتاجين. وكان عليه لباس من الخوص، وطعامه من خبز الشعير الذي كان يسدّ به رمقه من الجوع. وكان ناسكًا زاهدًا، فلمّا احتضر بالمدائن[2] قال له سعد بن أبي وقّاص: "أوصني يا أبا عبد الله". قال:

نعم، أذكر الله عند همّك إذا هممت، وعند لسانك اذا حكمت، وعند يدك إذا أقسمت.

فجعل سلمان يبكي فقيل له: "يا أبا عبد الله ما يبكيك؟". قال": "سمعت رسول الله ﷺ يقول:

"إنّ في الآخرة عقبة لا يقطعها إلاّ المخفّون وأرى هذه الأساود حولي".

فنظروا فلم يروا في البيت إلاّ ركوة ودواة وقدرًا ومطهرة[3].

---

١ ـ يعتقد البعض بأنّ سلمان كان جليس رسول الله ﷺ، وكان يحلق رأسه الشّريف ولحيته الكريمة، ولذلك سمّي الحلاّق باللّغة الفارسيّة: سلماني. غير أنّ رأيًا آخر يقول بأنّه كان من المقرّر، بعد انتخاب أبي بكر، أن يخرج عدد من الموالين للإمام عليّ عليه السلام شاهرين سيوفهم، وحالقين شعر رؤوسهم، معارضة لخلافة أبي بكر، ولكن لم يفعل ذلك إلا سلمان، ولذلك سمّي الحلاّق باللّغة الفارسيّة: سلماني.

٢ ـ دُفن سلمان قريبًا من طاق كسرى، وكانت وفاته أيّام خلافة عثمان بن عفّان سنة ٣٦هـ/٦٥٦م، وقبره اليوم معروف بـ "سلمان باك"، قام السلطان العثمانيّ مراد الرابع (١٦٢٣ ـ ١٦٤٠) بتجديد بنائه، ثمّ جدّد ثانية سنة ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م.

٣ ـ راجع: المسعودي، مرجع سابق، ٣: ٤٩.

وفيما يعتبر أهل الإمامية المعتدلون أنّ سلمان كان أوّل الحواريّين الثلاثة للنبيّ ﷺ، حيث كان مع المقداد وأبي ذر، حافظي سرّ النبيّ ﷺ، وبعد وفاة النبيّ ﷺ كانت لسلمان نفس المنزلة عند خليفة عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وأقسم عليه النبيّ ﷺ مع خمسة من الصحابة الآخرين سرًّا أن يظهروا الولاء لعليّ بن أبي طالب عليه السلام، يعتبر باحثون أنّ قرب سلمان من البيت النبويّ الشريف، وانحداره من أصل فارسيّ، وتشيّعه الشديد لعليّ عليه السلام، عناصر جعلت الكثيرين من غلاة الشيعة يجلّونه، وكانت الكيسانيّة أقدم الفرق التي جلّت سلمان. وقد بلغ الغلوّ عند البعض في سلمان حدًّا جعل فرقًا تعتبر بأنّه المقصود في بعض الآيات القرآنيّة، فعرف هؤلاء بالسلمانيّة، وتشعّبوا إلى فرق. منها فرقة عُرفت بـ"السّينيّة" اختصارًا[1]. وقد نقل عن أبي حاتم الرازي قوله إنّ السلمانيّة كانوا ممّن يعتقدون بنبوّة سلمان الفارسيّ، وبعضهم كانوا يعتقدون بربوبيّته مستشهدين ببعض الآيات. إلاّ أنّ هذه الفرق قد انقرضت.

---

١ ـ كانوا يقولون: سلمان يعني السين الذي هو أعلى من الإمام، وحتّى أنّه يصل إلى مرتبة الألوهيّة. وكانوا يدخلون سلمان في التثليث مع محمّد ﷺ، ويعبّرون عن محمّد ﷺ بالميم، وعن عليّ عليه السلام بالعين، وأحيانًا كانوا يسمّون أنفسهم: السينيّة، العينيّة والميميّة، حيث أنّ الثلاثة تجلّيات الله العظيم.

السَّنُوسِيَّة

طريقة منسوبة إلى مؤسّسها محمّد بن علي السنوسيّ الإدريسيّ (١٧٨٧ ـ ١٨٥٩)، الذي وُلد في مستغانم الجزائر ودرس في فاس وتصوّف على يد الشيخ عبد الوهاب التازي، وجال يعظ الناس، ثمّ زار تونس وطرابلس وبرقة ومصر ومكّة، رحل إلى برقة سنة ١٨٣٩ حيث أقام في الجبل الأخضر وشيّد "الزاوية البيضاء"، وكثر تلاميذه وانتشرت طريقته. انتقل إلى واحة الجغبوب ببرقة وأقام فيها حتّى وفاته، وبها مقرّ الطريقة. أنشأ لأتباعه زوايا عمّمها أولاده بجغبوب، والكفرة، وفزان. له مؤلّفات بلغت زهاء الأربعين، منها: "بغية القاصد وخلاصة المراصد"، و"الدرر السنيّة في أخبار السلالة الإدريسيّة"، و"التحفة في أوائل الكتب الشريفة". خلفه في زعامة الطريقة السنوسيّة بعد وفاته ولده محمّد بن محمّد المهدي السنوسيّ (١٨٤٤ ـ ١٩٠٢). أقام في الكفرة سنة ١٨٩٤ ثمّ في واداي حيث توفّي. إنتشر أتباعه في عهده حتّى الهند، وانتشرت زوايا السنوسيّة في أيّامه من المغرب الأقصى إلى الهند وفي قلب الصحراء الكبرى. خلفه في زعامة السنوسيّة أحمد شريف السنوسيّ (١٨٧٣ ـ ١٩٣٣) الذي أسندت إليه الحكومة التركيّة أمر الأمّة الليبيّة عند انسحابها من ليبيا بعد توقيعها معاهدة أوشي (لوزان) مع إيطاليا سنة ١٩١٢، فقاد الليبيّين في جهاد عنيف ضدّ قوّات الاحتلال الإيطاليّ (١٩١٢ ـ ١٩١٨). إستجاب لدعوة الأتراك والألمان بالهجوم على مصر حتّى يشغل الجيش البريطانيّ المرابط هناك، ممّا يساعد الأتراك والألمان على تنفيذ خططهم في الحرب العالميّة الأولى، فهاجم مصر سنة ١٩١٥ واحتلّ السلوم ومرسى مطروح، ولكنّ القوات المصريّة والبريطانيّة استردّت المنطقة سنة ١٩١٦. اعتزل الزعامة السنوسيّة سنة ١٩١٨، وعندما قامت حركة مصطفى كمال أتاتورك

أيّدها، وأقام بمرسين، فاتُّهم بالاتّصال ببعض آل عثمان بعد زوال دولتهم. وأوعز إليه بالخروج من تركيا فقصد دمشق وكان الفرنسيّون فيها فلم يأذنوا له بالإقامة فرحل إلى الحجاز حيث أكرمه الملك عبد العزيز آل سعود فأقام بالمدينة المنورة إلى أن توفّي بها. أمّا خلفه محمّد إدريس السنوسيّ (١٨٩٠ - ١٩٨٣) ملك ليبيا (١٩٥١ - ١٩٦٩)، فقد وُلد في جغبوب وتلقّى تعليمًا دينيًا وتولّى زعامة السنوسيّة سنة ١٩١٥ في زمن عصيب إثر اعتداء إيطاليا على برقة وطرابلس. ثمّ اعترفت به إيطاليا أميرًا سنة ١٩٢٠. غادر وطنه إلى مصر في أعقاب تولّي موسوليني السلطة ووضع طرابلس وبرقة وفزان تحت حكم إيطاليا. قاوم الإحتلال مع طائفة من أعوانه مدّة طويلة. وفي أثناء الحرب العالميّة الثانية ساعد الحلفاء بنفوذه ورجاله إلى أن تمّ جلاء الإيطاليّين. اعترفت به بريطانيا أميرًا على برقة سنة ١٩٤٩ كما اعترفت بليبيا دولة مستقلّة بولايات ثلاث: طرابلس وبرقة وفزان سنة ١٩٥١ بعد انتهاء وصاية الأمم المتّحدة وأعلنت الجمعيّة الوطنيّة تنصيبه ملكًا على ليبيا. عمل على توحيد كلمة البلاد في حكومة دستوريّة مركزيّة سنة ١٩٦٣. ثمّ أوصى بأن يكون شقيقه محمّد الرضا وريثه على العرش، ولمّا توفّي محمّد حلّ مكانه ابنه الأمير حسن الرضا. نهض بالتعليم والصحّة وأنشأ الجامعة الليبيّة. أطاح به انقلاب عسكري بقيادة العقيد معمّر القذّافي سنة ١٩٦٩، أقام في مصر منذ ١٩٦٩ حتّى وفاته.

أنشأ محمّد بن علي السنوسيّ، مؤسّس السنوسيّة، لأتباعه زوايا عمّمها أولاده بجغبوب والكفرة وفزان. وللسنوسيّة أورادها وأسرارها، وقال أتباعها بالاجتهاد في الفقه والتشريع. وقدّم السنوسيّ اجتهادات في إطار المذهب المالكيّ الذي تمذهب به منذ صباه، الأمر الذي جلب عليه غضب شيوخ الأزهر المحافظين. وفي رحلات السنوسيّ لقي الكثير من شيوخ التصوّف واقتبس العديد من طرقه مع بعض التعديلات

حتّى استقرّ به اليقين على طريقة ابتكرها جاءت مزيجًا من الفقه والتصوّف ولقاء بين الشريعة والحقيقة ومزاوجة بين النصّ والذوق، ففيها رأي السلفية التي تعتمد براهين الكتاب والسنّة وتنكر الوسائط، والتصوّف الشرعيّ الذي يقصد إلى مجاهدة النفس وتزكيتها، فكانت طريقته مزيجًا من الطريقة البرهانيّة والطريقة الإشراقيّة مع ميل أكثر إلى البرهانيّة. وهي لا تقف عند حدود علوم الشرع وعلوم الذات والصفات والفقه والحديث والدلالات، وإنّما تدرس العلوم الطبيعيّة كعلم الفلك، وتقتني أدوات لها مثل الإسطرلاب.

وإذا كانت للإسلام اليوم دول ولعقائده اتباع في قلب أفريقيا وغربها، فإنّ مرجع ذلك كلّه إلى الطريقة السنوسيّة، فهي التي بشّرت بالإسلام بين القبائل الوثنيّة. وكان السنوسيّون يقطعون الطريق على النخّاسين تجّار الرقيق، ويخلّصون الأطفال الزنوج المخطوفين، ثم يحملونهم إلى الزوايا حيث ينشأون على الإسلام ويفقهون تعاليمه، ثم يبعثون بهم إلى أبناء جلدتهم في مواطنهم الأصليّة يبشّرون بالإسلام. وبفضل حركة التبشير السنوسيّة هذه دخل الإسلام واكتسب أنصارًا في العديد من المناطق الأفريقيّة وحول بحيرة تشاد التي أصبحت بفضل جهد السنوسيّة مركز الإسلام في وسط أفريقيا، ودان بتعاليم الإسلام من حولها أربعة ملايين من السكان الأفريقيّين، وعلى أيديهم كذلك دخل الإسلام السودان الأوسط. وبالإمكان القول إنّ أهل السنوسيّة هم الذين صنعوا الحزام الإسلاميّ لأفريقيا جنوبيّ الصحراء من سواحل الصومال شرقًا إلى سواحل السينغامية في الغرب. ويبيّن حجم الجهد السنوسيّ في هذه المنطقة عدد الزوايا الهامّة العائدة لهم والتي ذكرها الرحّالة والمؤرّخون في هذه البلاد [1].

---

١ ـ موسوعة الأديان في العالم؛ المنجد في الأعلام؛ الموسوعة العربيّة الميسّرة.

الشّاذليّة

فرقة صوفيّة، أسّسها بتونس أبو الحسن عليّ بن عبد اللّه بن عبد الجبّارين تميم بن هرمز الشاذليّ المغربي (٥٩١ ـ ٦٥٦هـ/ ١١٩٤ ـ ١٢٥٨م)، المولود في غمازة بالقرب من سبتة، توطّن شاذلة في جبل زعفران بتونس فنُسب إليها. وهو من الصوفيّين الكبار، وكان يدرس الكيمياء في بداية أمره وقد بالغ في الدرس حتّى فقد نظره بالمطالعة قبل أن ينصرف إلى علوم الدين بعد أن رحل إلى بلاد المشرق، وحجّ بيت اللّه الحرام، ثمّ سافر إلى العراق، وبعدها سكن في الإسكندريّة. وفي فاس تتلمذ على أصحاب الجنيد، وعلى الصوفيّ المراكشيّ عبد السلام بن مشيش. أمضى حياة سائحًا في الأرض يجتهد بالذكر والفكر في الوصول إلى الفناء في اللّه. عنه انتشرت الطريقة التي نُسبت إليه في شمال أفريقيا. عندما دعا إلى آرائه قوبل بالاضطهاد فهرب إلى الإسكندريّة، عاد وحجّ مرارًا، ومات في الحجّة الأخيرة وهو يجتاز صحراء مصر، ودُفن في حميثرة بصعيد مصر حيث قبره مزار من أهل التصوّف. له مؤلّفات دينيّة منها "مجموعة الأحزاب"[١]. أذاع الشاذليّة بمصر مريده وخليفته أبو العبّاس المرسي المتوفّي بالإسكندريّة سنة ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م، فانتشر مذهبه في غرب مصر وفي الجزائر وتونس. ولتلميذهما تاج الدين بن عطاءاللّه الإسكندريّ كتب كثيرة حول تلك الطريقة.

قالت الشاذليّة بأنّ أهل الكتاب من مسلمين ونصارى ويهود متساوون، وبتقوى اللّه تعالى في السرّ والعلانيّة، و بالرضا عن اللّه تعالى في القليل والكثير، وباتّباع السنّة

---

١ ـ جاء في بعض المراجع أنّ الشاذلي لم يؤلّف كتابًا ولكن أُثرت عنه وعن خليفته أبو العبّاس النرسي أوراد تُعرف بحزب الشاذليّ.

في الأقوال والأفعال. وقد تفرّع عن الشاذليّة نحو خمسة عشرة طريقة أخرى مثل الوفائيّة والجزوليّة وسواهما[1].

الشَّيخيَّة أو الكَشفيَّة

طائفة من الشّيعة الإماميّة أتباع الشيخ أحمد الأحسائيّ المعروف بزين الدين (١٧٥٢ ـ ١٨٢٥)، وهو فقيه شيعيّ وُلد في الأحساء وسكن العراق وإيران. توفّي في طريقه إلى الحجّ قريبًا من المدينة ودُفن فيها. لقّبه أتباعه بـ"الشيخ الجليل" ونُسبت طريقته إليه فعُرفت بالشيخيّة كما عُرفت بالكشفيّة. ترك مؤلّفات عديدة يربو عددها على التسعين كتابًا في الفلسفة والكلام والفقه والتفسير والأدب باللغة العربيّة، ردّ في بعضها على الفلاسفة. وبعد وفاة الشيخ أحمد الأحسائيّ، خلفه تلميذه السيّد كاظم الرشتي الملقّب بـ"السيّد النبيل" المتوفّى سنة ١٢٥٩هـ/ ١٨٤٣م، وقد ظلّ الرشتي في كربلاء حتّى آخر عمره مشغولاً بتدريس تعاليم المدرسة الشيخيّة وبثّها هناك، وألّف ما يربو على مائة وخمسين كتابًا ورسالة. ومن تلاميذ السيّد الرشتيّ: الحاج محمّد كريم خان الفاجار الكرمانيّ (١٢٢٥ ـ ١٢٨٨هـ/ ١٨١٠ ـ ١٨٧١م) الذي يعتبر مؤسّس الفرقة الشيخيّة الكرمانيّة، من العلماء الكبار في عصره، ألّف ما يربو على مائتين وستّين كتابًا ورسالة. وبعد وفاته خلفه في رئاسة الفرقة الشيخيّة الكرمانيّة نجله الحاج محمّد كريم خان القاجار (١٢٦٣ ـ ١٣٢٤هـ/ ١٨٤٦ ـ ١٩٠٦م)، وهو يُعدّ من العلماء الكبار لتلك الفرقة، وقد ألّف مئات الكتب والرسائل؛ خلفه في رئاسة الفرقة ولده الحاج

---

١ ـ المنجد في الأعلام، ص٣٨٠؛ موسوعة الأديان في العالم، ص١٥٦؛ الموسوعة العربيّة الميسّرة، ص ١٤٤٠ ـ ١٤٤١.

زين العابدين، ثمّ أبو القاسم خان الإبراهيميّ (١٣١٤ - ١٣٩٠هـ/ ١٨٩٦ - ١٩٧٠م)، ثمّ ولده الحاج عبد الرضا خان الذي اغتيل في العام الأوّل لانتصار الثورة الإسلاميّة في إيران.

وكانت الشيخيّة قد انقسمت إلى عدة فرق وبعد وفاة الحاج محمّد كريم خان، منها: "الباقريّة"، وهم أتباع محمّد باقر الخندق آبادي الذي كان في البادية ممثّلاً للحاج محمّد كريم خان في همدان، ثمّ استقلّ عنه؛ وفرقة "الثّقة الإسلاميّة" في آذربايجان، وهم أتباع الحاج ميرزا شفيع ثقة الإسلام التبريزيّ المتوفّى سنة ١٣٠١هـ/١٨٨٣م؛ وفرقة "الحجّة الإسلاميّة" أتباع الميرزا محمّد المامقانيّ؛ وفرقة "العميد الإسلاميّة" في تبريز؛ وفرقة "الإِخقاقيّة" أتباع الآخوند الملاّ باقر الاسكوئيّ في آذربايجان وكربلاء والكويت.

هذا المذهب مبنيّ على أساس مزج التعابير الفلسفيّة القديمة المتأثّرة بكتابات السّهرورديّ مع الأخبار الواردة عن آل محمّد ﷺ. ويعتقد الشيخيّة أنّ أُصول الدين أربعة: التوحيد، والنبوّة، والإمامة، والركن الرابع. وفي ضوء عقيدتهم فإِنّ الركن الرابع للدين هو معرفة الشيعيّ الكامل، وهو المبلّغ والناطق الأوّل، وهو الواسطة بين الشيعة والإِمام الغائب، يأخذ الأحكام من الإِمام بدون واسطة، ويوصلها إلى الآخرين. ولكنّ مشايخ الشيخيّة مع غير أهل هذه الطائفة يقولون: إنّ المقصود من الركن الرابع هو التولّي والتبرّي، ويعنون: تولّي الأئمّة المعصومين والتبرّي من أعدائهم. ويقول الشيخيّة: لا وجود للمعاد الجسمانيّ، والعنصر الذي يبقى بعد انحلال الجسم هو جسم لطيف، يطلقون عليه: الجسم الهورقليائي[1].

---

١ - المنجد في الأعلام، ص٢٤، ٣٩٧؛ الآلوسي محمود، المقامات الآلوسيّة (بغداد)؛ موسوعة الأديان في العالم؛ الأمين السيّد محسن، أعيان الشيعة، ١٠ أجزاء، دار التعارف (بيروت،١٩٨٦)؛ محفوظ د. حسين علي، تاريخ الشيعة، (بغداد،١٩٥٧)

صَاحِبُ الزَّنج

صاحب الزنج، هو لقب علي بن محمّد بن عيسى الورزنينيّ المعروف بالبرقعي (ت٢٧٠هـ/ ٨٨٣م)، من كبار الخارجين أيّام العبّاسيّين، عُرفت فتنته بفتنة الزنج، لأنّ أكثر أصحابه منهم. وُلد في "ورزنين" من قرى مدينة الريّ، وظهر أيّام المهتدي العبّاسيّ سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م. كان من فرقة الخوارج الأزارقة، فجمع حوله زنوج أهل البصرة، وسيطر على البصرة والأبلّة، ثمّ استولى على الأهواز، وتحرّك نحو واسط، فنهب وسلب منها. وبلغ عدد جنوده ثلاثمائة ألف مقاتل. وكان يسمّي نفسه: عليّ بن محمّد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام. إلاّ أنّ في نسبه خلاف[1]. سافر من سامرّاء إلى الإحساء سنة ٢٤٩هـ/ ٨٦٣م، وفي هجر دعا الناس إلى طاعته، مدّعيًا بأنّه قد أُعطي عددًا من آيات الإمامة، ولُقّن عددًا من سور القرآن، و"كان يفكّر إلى أين يولّي وجهه، وإذا بسحابة تظلّله، ويأتي منها الخطاب بأن يذهب إلى البصرة". وكان يقول لأهل البادية: "أنا ابو الحسن يحيى بن عمر العلويّ المقتول في الكوفة". بعد ذلك توجّه إلى بغداد، ومكث فيها زمنًا، وادّعى هناك أنّه هو محمّد بن أحمد بن عيسى بن زيد، وقال: "ظهرت لي علامات أعرف من خلالها ماذا يدور في ضمير أصحابي، وأعلم بكلّ عمل يعملونه". ولهذا انضمّ إليه جمع من أهل بغداد. بعد ذلك ذهب إلى البصرة، وكتب الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[2]، على قطعة من القماش، وجعلها على لوحة من

---

١ ـ روي أنّ بعض الشيعة سألوا الإمام العسكريّ عن صاحب الزنج، فقال: ليس منّا.

٢ ـ من الآية ١١١ من سورة التوبة.

الخشب، تساق بها السفينة، ودعا غلمان البصرة، فالتحق به جمع غفير منهم تخلّصًا من العبوديّة، ومنذ ذلك الحين، عُرف بـ "صاحب الزنج". وتتابعت الجيوش لقتاله، وعجز عن قهره الخلفاء حتّى ظفر به الموفق بالله أيّام المعتمد (٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م ـ ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) فقتله الجندِ بين واسط والبصرة وأتوا برأسه إلى بغداد. وكان صاحب الزنج قد بنى هناك قصرًا ومدينة سمّاها "المختارة، فنهبها الجند. وبذلك كانت نهايته. وقد رويت له أشعار كثيرة في البسالة والفتك[١].

الصَبَّاحيَّة

راجع: الحشّاشون.

١ ـ المسعودي، مروج الذهب (القاهرة،١٩٦٤)؛ اليعقوبي، طبعة دار صادر (بيروت، لا.ت.)؛ الموسوعة العربيّة الميسّرة.

الصُّوفيَّة

الصوفيّة طريقة ونهج في السلوك العباديّ عماده الأوّل الزهد والتوبة. وقد سبقت التصوّف في الإسلام حركة وهد نبعت من جوهر الإسلام الحنيف قرآنًا وسنّة، ولكنّ المجرى التاريخيّ للطرق الصوفيّة[1] عرف مؤثّرات داخليّة في ما بعد وردته من مصادر شتّى: من المسيحيّة والزردشتيّة واليهوديّة والفرس والهنود واليونان، وقد استخدم مصطلح الصوفيّة في الإسلام لأوّل مرّة في التاريخ الإسلاميّ في النصف الأوّل من القرن الثاني للهجرة، فلقّب به كلّ من الكيمائيّ المشهور جابر بن حيّان، وأبو هاشم البغداديّ المعروف بأبي هاشم الزاهد. ومن ثمّ توزّع الصوفيّون على مذاهب ومدارس عُرفت باسم الطرق الصوفيّة، ولكلّ طريقة شيخ مرشد، وبعد المؤسّس قد يتوزّع الأتباع في أكثر من إطار وحد، وبذلك تعدّدت الفرق الصوفيّة في الإسلام. فما أن انتهى القرن الثالث الهجريّ بعد تسرب الصوفيّة إلى الديار الإسلاميّة حتى امتلأت الساحة الإسلاميّة بالمدارس والمذاهب الصوفيّة التي صنعت للمريد لكي يدخل إلى مقام شيخه أو ينخرط في سلك عضويّة طريقه، نوعًا من الرسوم والطقوس، أطلقوا عليها اسم الأحوال والمقامات تدريجًا في طريق العشق والوجد والفناء والاتّحاد والحلول وغير ذلك.

والوليّ عند الصوفيّة هو مَن اختاره اللّه وجذبه من دون أن يكون ذلك مشروطًا بمواصفات معيّنة. وهم يستندون بذلك إلى الآية القرآنيّة ﴿يختصّ برحمته مَن يشاء﴾.

---

١ ـ يسمّي الصّوفيّة منهجهم "الطريقة"، وهي سير يخصّ السالكين إلى اللّه، حيث يقطعون المنازل من خلالها حتّى يبلغوا المقامات المعلويّة.

من هنا فهم يعتقدون بأنّ الولاية اختصاص وليست كسبًا بما يأتيه الإنسان من عمل صالح. وقد ذهب المتصوّفة إلى تقسيم مراتب الولاية إلى درجات. فمنهم مَن قالوا: إنّهم ينقسمون إلى:

١) الغوث الأكبر وهو أكبر الأولياء جميعًا وهو واحد في كلّ زمان.

٢) وتحته الأوتاد الأربعة وكلّ واحد منهم في إقليم من أقاليم الأرض السبعة.

٣) والأبدال وهم أربعة، يعيشون في العالم، وكلّما هلك واحد منهم أبدله اللّه بغيره لحفظ الكون.

٤) وهناك النجباء وهم ثلاثمائة، كلّ منهم يتولّى شأنًا من شؤون الناس والخلق.

أمّا مرتبة "القطب"، فلا يصل إليها المرء إلاّ بعد أن يحصل على معاني الحروف التي في أوائل السور المقطعة في القرآن، مثل: ألم... المص. وإنّ اسم القطب في كلّ زمان، وفق ابن عربيّ، هو عبداللّه وعبد الجامع الموصوف بالتخلّق والتحقّق بمعاني جميع الأسماء الإلهيّة بحكم الخلافة. فهو مرآة اللّه ومجلّي النعوت المقدّسة ومحلّ المظاهر الإلهيّة وصاحب الوقت وعين الزمان وصاحب علم سرّ القدر وله علم دهر الدهور. وغالبًا ما يكون غير معروف، كثير النكاح محبًّا للنساء يعطي الطبيعة حقّها على الحدّ المشروع له ويعطي الروحانيّة حقّها على الحدّ الإلهيّ... وبعد طرح صفات عديدة للقطب الغوث يصل المتصوّفة حدود اعتباره أنّه يختلي باللّه وحده، وهذه الخلوة من علوم الأسرار.

يقول ابن عربيّ: "إنّ الأقطاب لا يخلو عصر منهم، وجملة الأقطاب المكمّلين من الأمم السالفة من عهد آدم إلى محمّد ﷺ خمسة وعشرون قطبًا هم: الغرق، مداوي، الكلوم، البكاء، المرتفع، الشغار، الماضي، الأحقّ، العاقب، المنحور، عنصر الحياة،

الشريد، الصائغ، المراجع، الطيّار، السالم، الخليفة، الحيّ، المقسوم، الراقي، الواسع، البحر، المنصف، الهادي، الأصلح، الباقي".

وكذلك يعتقد المتصوّفة بوجود ختم للولاية، بمعنى أنّ هناك خاتم الأولياء والأزمنة. وإنّ كثرًا اعتبروا أنفسهم خاتمة الأولياء[1].

من التعريفات التي أطلقها العلماء على أهل التصوّف المسلمين، قول الجرجاني في التعريفات: الصوفيّة أتباع المذهب الصوفيّ الروحيّ، وكلّه جِدٌّ غير مشبوب بالهزل. وقيل: هو تصفية القلب من معاشرة الناس والابتعاد عن الأخلاق الطبيعيّة، وقمع الصفات البشريّة، والاجتناب عن الدعاوي النفسانيّة، واتّخاذ الصفات الروحانيّة، والتعلّق بالعلوم الحقيقيّة، واستعمال ما هو الأولى للسرمديّة، ومواساة الأمّة في غمّها، والوفاء للّه في الحقيقة، واتّباع الرسول في الشريعة.

يقول الهجويري في "كشف المحجوب": الصوفيّ هو الفاني عن نفسه، والباقي في الحقّ، معتوق من قبضة الطبائع، ومتّصل بالحقيقة. ويسمّى أهل الكمال: "صوفيّة"، والمتعلّقات والطلاّب "متصوّفة"[1].

وقد عرّف السرّاج الطوسي الصوفيّين بقوله: بعد أداء الفرائض واجتناب المحارم ترك ما لا يعنيهم، وقطع كلّ علاقة تحول بينهم وبين مطلوبهم ومقصودهم، إذ ليس لهم مطلوب ولا مقصود غير الله تعالى. ثمّ لهم أداب وأحوال شتّى، فمن ذلك القناعة بقليل من الدنيا عن كثيرها والاكتفاء بالقوت الذي لا بدّ منه، والاقتصار على ما لا بدّ منه

---

١ ـ وهبة غسّان، جريدة "الديار" اللبنانيّة، ٨ تمّوز (يوليو) ١٩٩٩، ص١٢.

٢ ـ الصحيح هو أن "الصّوفيّ" نسبة إلى الصوف حيث كانوا يرتدونه، وعُرفوا بلبسه، يقول أبو نصر السرّاج في كتاب "اللّمع": نسمّي هؤلاء "صوفيّة" لأنّهم كانوا يلبسون الصوف، وكان لبس الصوف دأب الأنبياء والحورانيّين والزهّاد.

من مهنة الدنيا من الملبوس والمفروش والمأكول وغير ذلك.

وقد أورد أبو بكر الكلاباذي في كتابه "التعـرّف لمذهـب أهل التصـوّف" مجموعـة تعريفات تدور كلّها حول صفاء النفس، فذكر: قالت طائفة إنّما سمّيت الصوفيّة صوفيّـة لصفاء أسرارها ونقاء أسرارها. وقال بشر بن الحارث: الصوفيّ مَن صفا قلبه. وقـال بعضهم: الصوفي مَن صفت للّه معاملته، فصفت له من الله عـزّ وجلّ كرامتـه. وقـال قوم إنّما سمّوا صوفيّة لأنّهم في الصفّ الأوّل بين يدي الله عـزّ وجلّ بارتفـاع هممهم إليه، وإقبالهم بقلوبهم عليه، ووقوفهم بسرائرهم بين يدَيه.

وأورد إبن خلدون في مقدّمته تعريفًا للتصوّف يجمع بين التعريف والظروف التـي نشأت فيها الصوفيّة يقول فيه: هذا العلم من علوم الشريعة الحادثة في الملّة، وأصله أنّ طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمّة وكبارها والصحابة والتـابعين ومـن بعدهم طريقـة الحقّ والهدايـة، وأصلهـا العكوف علـى العبـادة والانقطـاع إلـى اللـه تعـالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد في ما يقبل عليه الجمهور من لذّة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عامًّا فـي الصحابـة والسلف، فلمّا فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطـة الدنيـا، اختصّ المقبلون على العبادة باسم الصوفيّة والمتصوّفة.

وقد وضع شـيخ الإسـلام إبـن تيميـة تحديـدًا للصوفيّين يقـول فيـه: الصـواب أنّهـم مجتهدون في طاعة الله، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهـم السـابق المقرّب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كلّ من الصنفَين مَن قد يجتهد فيخطئ، وفيهم مَن يذنب فيتوب أو لا يتوب، ومن المنتسبين إليهم مَن هـو ظـالم لنفسه، عاص لربّه.

قد يكون المقصود في قول إبن تيمية "مَن هو ظالم لنفسه، عاص لربّه"، ما كان رسول اللّه ﷺ ينهاهم عن ذلك الإقبال أو هذا الانضواء والانطواء، حين كان ﷺ يقول: "إنّما بعثت بالحنيفيّة السمحة". وحين يقول ﷺ "فإنّ لجسمك عليك حقًا، وإنّ لعينيك عليك حقًا، وإنّ لزوجك عليك حقًا". و"ليس خيركم مَن ترك الدنيا للآخرة، ولا الآخرة للدنيا، ولكن خيركم مَن أخذ من هذه وهذه".

كان التصوّف في أوّل عهده يدور حول نقطتَين: أولاهما: إنّ العكوف على العبادة يولّد في النفس "فوائد" هي الحقائق الروحيّة؛ وثانيتهما: إنّ علم القلوب يفيض على النفس معرفة اللّه. وفي أواخر القرن الثاني، ولا سيّما في أوائل القرن الثالث، دخلت التصوّف مفاهيم جديدة مثل: العشق، المحبّة، العرفان، والمعرفة، البقاء وأمثالها. وكانت هذه المفاهيم تسير قدمًا بموازاة المفاهيم القديمة من قبيل: الزهد، والتعبّد، وطلب النجاة الأُخرويّة. ومع انبثاق هذه المفاهيم، ظهرت رموز وتعابير خاصّة، ولا سيّما عندما كان يُوصّى بكتمان أسرار الحقّ على غير أهلها. ووفقًا لكلام العرفاء، فإنّ الحسين بن منصور الحلاّج صُلب بسبب كشفه الأسرار.

إتّسعت مقرّات الصوفيّة المسمّاة "خانقاه" في الأقطار الإسلاميّة منذ القرن الخامس الهجريّ. وانبرى المرشدون إلى مساعدة السالكين وتوجيههم. واتّخذ التصوّف طابعًا علميًّا منذ القرن السابع حتّى غدا أحد العلوم الي يعبّر عنه بعلم العرفان أو التصوّف. ودخل التصوّف مرحلة جديدة في العصر الصفوي بإيران حيث كان الجدّ الأعلى لهذه الأسرة، وهو الشيخ صفيّ الدين الأردبيلي، وأبناؤه من صوفيّة آذربايجان. وأصبح الشاه إسماعيل ملكًا على إيران، وإبان حكمه كان مريدوه وأتباعه يطلقون عليه: الصوفيّ. وفي عصر الشاه طهماسب جاء جمع من الشيعة ومريديّ الصوفيّة القدامى من ديار بكر وسائر أنحاء آسيا الصغرى إلى إيران، والتحقوا بالصوفيّة.

سادت عند غاليّة الصوفيّة العديد من المفاهيم التي اختلف المسلمون حولها. فمنهم مَن اعتبرها مخالفة للشرع، ومنهم مَن اعتبرها حقيقة دينيّة، وهناك مَن وقف منها موقفًا وسطيًّا معتبرًا أنّ لها أصلاً في الشرع، لكنّ المغالاة فيها أمر غير مستحبّ. ومن أبرز هذه المفاهيم:

المرقّع: إعتقد الصوفيّة أنّ لبس المرقّع سنّة فدرجوا عليها، وهم يستدلّون على ذلك بقول مالك في الموطأ عن طريق أنس بن مالك: "رأيت عمر بن الخطّاب وهو يومئذ أمير المدينة وقد وقع بين كتفَيه برقال لبد بعضها فوق بعض". ونقلوا عن عليّ ﷺ أنّه قال: "لقد رقّعت مدرعتي هذه حتّى استحيت من واقعها". وكذلك بقول الرسول ﷺ لعائشة وهي ترقّع برقاع أخلاط بيض وسود، "لا تستبدلي ثوبًا حتّى ترقّعيه". ويقولون إنّه جاء عن رسول اللّه ﷺ أنّه كان يخصف النعل ويرقّع الثوب. ويقول سفيان الثوريّ: "كان على عمر أزار فيه اثنتا عشرة رقعة". ولم يقف ردّهم لباس المرقّع إلى الرسول ﷺ والصحابة بل يعيدون ذلك إلى اللّه عزّ وجلّ، فهذا هو الشيخ السنوسيّ في إطار سند الخرقة يقول: "هو لبسها من يد حسن البصري، وهو لبسها من يد أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، كرّم اللّه وجهه، وهو لبسها من يد سيّد الأوّلين والآخرين محمّد النبيّ الكريم صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم، وهو صلّى اللّه عليه وسلّم لبس الخرقة من ربّ العالمين بوساطة الروح الأمين". وينقل الشيخ الشعراني عن الشيخ نجم الدين البكري أنّ السلف الصالح "كانوا يكرهون للمريد أن يجعل علمًا من ثوبه من غير لونه بلا حاجة شرعيّة، كأن يتخرّق ولم يجد خرقة من لونه وما رقّع السلف الصالح ثيابهم إلاّ اضطرارًا".

مكانة الشيخ: لشيخ الطريقة مكانة خاصّة عند أهل التصوّف، واعتمد عليه المتصوّفة لسلوك الطريق، وقد ثار جدل حول الاكتفاء بالكتب والاستغناء عن الشيخ.

في هذا الإطار يسجّل الشيخ السنوسيّ: "وأمّا الاكتفاء بالكتاب في سلوك الطريق دون شيخ ولا رواية فقد وقعت مشاجرة بين فقهاء الأندلس، وكتبوا بذلك كتابًا إلى الشيخ الصوفيّ القدوة، شيخ الطريقة وإمام أهل الحقيقة أبي عبداللّه محمّد بن عباد، فأجاب بأنّ ذلك يختلف باعتبار الأحوال، فشيخ التعليم تكفي عنه الكتب لمَن له عقل وذكاء وإلاّ فَلا، وشيخ الطريقة واجب متأكّد".

ونُقل عن الغزالي اعتباره المريد بلا شيخ كالشجرة بلا ثمر.

ونُقل عن الإمام أبي عبداللّه بن عياد قوله: "لا بدّ للمريد في هذا الطريق من صحبة شيخ محقّق مُرشد قد فرغ من تأديب نفسه وتخلّص من هواه، فيسلّم نفسه إليه ويلزم طاعته، والانقياد إليه في كلّ شيء من غير ارتياب ولا تردّد، فقد قالوا: مَن لم يكن لديه شيخ، فإنّ الشيطان شيخه".

ويقول أبو علي الثقفي: "لو أنّ رجلاً جمع العلوم كلّها وصحب طوائف الناس لا يبلغ مبلغ الرجال إلاّ بالرياضة من شيخ وإمام أو مؤدّب ناصح".

ويعتبر الصوفيّة أنّ مَن يسلك على يد شيخ عارف، فلا يمكنه الترقّي إلى منازل القرب، ولو أتى لنفسه بعبادة الثقلَين، الأنس والجنّ، وأثناء الذكر يستحضر شيخه ليكون رفيقه في السير. إذاً هناك نظرة مستسلمة للشيخ بغضّ النظر عن عبادته وعلمه لمجرّد أنّه شيخ الطريقة، حتّى وصل ذلك حدود الطاعة العمياء وعدم الاعتراض في شيء من فعله ولو كان ظاهره أنّه حرام، كما أنّه لا يحقّ للمريد اللجوء إلى غير شيخه ولا يسمع ممَّن سواه حتّى يتمّ سقيه من ماء سرّ شيخه، ولا يقعد وشيخه واقف ولا ينام بحضرته إلاّ بإذنه في محلّ الضرورات ولا يجلس على سجّادته ولا يسبّح بسبحته، ولا يفعل أمرًا مهمًّا إلاّ بإذنه. وهذا يوضّح منزلة الشيخ عن المريدين. ووصل الأمر بأصحاب الطريقة العيسويّة إلى القول: "فإن وجد المريد الشيخ، وجب عليه أن يترك

عقله وعلمه وديانته ومروءته، فيصير الشيخ مقدمه، وخطأه أولى من صواب المريد، ولا يردّ عليه ولا يخالفه". وهذا أحمد بن مبارك يقول: "إنّ المريد لا يجيء منه شيء، حتّى لا يكون في قلبه غير الشيخ والله والرسول". والأدب الصوفيّ زاخر بالنتاج الذي يُظهر جليًّا موقع الشيخ وشأنه عند السالكين. إلاّ أنّ بعض مشايخ التصوّف قد أنكروا على بعض الطرق الصوفيّة كالتيجانيّة والعيسويّة اهتمامها بالمظاهر وتقديس الشيخ الذي يشبه العبادة والخضوع له كأنّه نبيّ جديد. ويرى أحد الباحثين أنّ نظرة سريعة على مسيرة التصوّف، تساعد على ملاحظة أمور على جانب من الخطورة هي:

١ - الجهل بالشرع، وهو أمر غالب على المريدين الذين يتأثّرون بالكرامات والخوارق الحسّيّة ويقدّسون الأفراد ويصدّقون ما يأتون به من خوارق ولو موهومة على حساب اقتناعهم بالقيم السامية المجرّدة مهما بلغت من السموّ الدينيّ والروحيّ.

٢ - خروج مشايخ الطرق الصوفيّة من إطار كونهم أصحاب تجربة روحيّة ورياضيّة ومعاناة فرديّة، واعتبار التصوّف ذوق شخصيّ لا يمكن نقله للغير ولا إقناعه به، لتصبح مسألة وراثيّة يسلّمها الخلف للسلف.

٣ - دعوة المريد إلى طاعة شيخه طاعة عمياء ممنوع عليه الاعتراض والمناقشة حتّى ولو أتى شيخه بما يخالف الشرع. وهذا بحدّ ذاته رفع مفهوم الطاعة إلى مرتبة العبادة. في هذا الإطار تقول المستشرقة "جب": "إنّ فكرة الاستسلام للشيخ جعلت الرجل العاديّ يربط نفسه بالأشخاص لا بالأفكار والمبادئ، وكان أثرها الرئيس ارتخاء قبضة السنّة الإسلاميّة في حلقة المريدين، لأنّ هذا النظام أخذ عليه العهد باتّباع فرد واحد والتأسّي بهم أنّى وجّههم دون تردّد، ذلك أنّ البركة لا يمكن إحرازها إلاّ بامتثال توجيهات الشيخ، والخلاص في الآخرة غير مضمون إلاّ بشفاعته لمريديه، وطغت خدمة الشيخ على حقيقة العبادة، فاغتصبتها".

ويمكن القول إنّ التصوّف مرّ بمرحلتَين:

١ ـ مرحلة الفرار من الناس لمناجاة اللّه دون واسطة.

٢ ـ مرحلة الاعتماد الكليّ على الشيخ، الذي يؤكّد الصوفيّة على أنّ الاتّصال باللّه بدونه غير ممكن.

ومع اتّساع مكانة الشيخ ووصول الأمر حدود تقديسه، بدأت تظهر تصنيفات تقول بوجود طبقات من الأولياء المستورين، عددهم محدود، وكلّما قبض واحد منهم خلفه غيره. وفي شيء من التحديد يؤكّدون على أنّ رجال الغيب هم ثلاثمائة من النقباء وأربعون من الأبدال وأربعة عمد ثمّ القطب وهو الغوث الذي يكلّل رأس هذه السلسلة، ويعتقد البعض أنّ للأولياء دولة تقود العالم "هذه دولة الأشباح (الأولياء) قد حضرت فامددِ يمينك كي تحظى بها شفتي".

هذا القول تسمعه كثيرًا في الزوايا الصوفيّة. ويُنقل عن الشيخ أحمد الرفاعي الكبير أنّه أطلقه أمام قبر الرسول، وأنّ يد الرسول خرجت إليه إكرامًا له ولمقامه، وكان خلفه الشيخ الجيلاني، فحين أدرك الشيخ الرفاعي أنّ الشيخ الجيلاني قد شاهد هذه الكرامة طلب منه أن يدوس على رأسه خشية الغرور، فطار الجيلاني في الفضاء، ومعروف أنّ من كرامات الشيخ الجيلاني الطيران لذلك لُقّب بالباز لأنّه كان يطير بلا جناحَين، حسب قول المتصوّفة.

ويردّ بعض الباحثين هذا الطرح عند الصوفيّة، حول تراتبيّة الأولياء، إلى تأثّر النظام الطرقيّ بالسلك التنظيميّ للحركة الإسماعيليّة، فمراتب الصوفيّة الطرقيّة من القطب إلى الوتد إلى البدل إلى المريد، تقابله عند الإسماعيليّة مقامات الإمام وداعي الدعاة والنقيب والتابع.

الصوفيّة والكرامات: الكرامة تعريفًا هي أمر خارق يُظهرها اللّه على يد الوليّ. غالبيّة أهل السنّة يجيزون وقوع الكرامات ويفرّقون بينها وبين معجزات الأنبياء. إلاّ أنّ المعتزلة وبعض الأشعريّة ينكرون وقوعها، والذين أنكروا الكرامات قالوا: "بأنّها تؤدّي إلى التباس النبيّ بغيره، إذ إنّ الفارق هو المعجزة والخروج عن بعض العادة لكثرة الأولياء. وانسداد باب إثبات النبوّة لاحتمال أن تكون المعجزة إكرامًا لا تصديقًا". إلاّ أنّ مؤيّدي وقوع الكرامة يقولون إنّ الأنبياء مأمورون بإظهار المعجزات والوليّ يجب عليه سترها "يخجل الوليّ من كرامته خجل المرأة من حيضها". ويقولون إنّ الوليّ لا يدّعيها، ولا يقطع بكرامته لجواز أن يكون ذلك استدراجًا. ويذهب "إبن فورك" إلى "أنّ الوليّ لا يجوز أن يعرف ذلك من نفسه، لأنّ معرفته لنفسه بأنّه وليّ يسلب عنه الخوف". وفي هذا الإطار يجزم "أن لا كرامة لمَن لا يتّفق ظاهره مع ظاهر الشريعة ولا كرامة تخالف ما شرّعه اللّه وأتى به رسوله". ويستدلّ القائلون بجواز الكرامة ووقوعها بما ذكره القرآن الكريم عن مريم بنت عمران ﴿كلّما دخل عليها زكريّا المحراب وجد عندها رزقا﴾ وكرامتها الكبرى كلام طفلها عيسى ناطقًا ببراءتها من مهده.

وفي أمر حصول الكرامات بعد الموت، منهم مَن يجيزها إذ لا يوجد ما يمنع وقوعها. عن هذا يقول الشعراني: "ذكر بعض المشايخ أنّ اللّه تعالى يوكل بقبر الميت ملكًا يقضي الحوائج وتارة يخرج الوليّ من قبره ويقضيها بنفسه".

أمّا الشيخ الكريّ فيقول: "واعلم أنّ الكرامة عند أكابر الرجال معدودة من جملة رعونات النفس إلاّ إذا كانت لنصرة دين، أو جلب مصلحة لأنّ اللّه هو الفاعل عندهم لا هم فالسكون في مجاري أقداره أليق بالأدب".

أنواع التصوّف: فرّق الباحثون وبعض العلماء بين نوعَين من التصوّف:

الأوّل: التصوّف السنّيّ، ونظروا إليه على أنّه مستحبّ ومقبول شرعًا وله جذور في الشرع، وكونه سلوكًا بعيدًا عن الشطح الصوفيّ.

ثانيًا: التصوّف الفلسفيّ، وصل الحدّ باعتباره ارتدادًا وخروجًا على الإسلام، حتّى أنّ بعض كبار المتصوّفة اعتبروا أنّ التصوّف الفلسفيّ هو علم الخاصّة ويجب ألاّ يكون مطروحًا للعامّة.

أمّا التصوّف السنّيّ فيُجمع عدد كبير من علماء المسلمين على استحسانه، لأنّه هو التصوّف الذي يستند إلى الفقه الإسلاميّ ولا يخرج عنه. ويؤكّد بعض العلماء على أنّه لم يكن هناك قبل شطحات الصوفيّة الفلسفيّة، تقسّم للعلماء إلى أهل الظاهر وأهل الباطن، أو علماء للشريعة وعلماء الحقيقة، بل كان المنهاجان يكمل أحدهما الآخر، فلا تصوّف إلاّ بفقه، إذ لا تُعرف أحكام اللّه الظاهرة إلاّ منه، ولا فقه إلاّ بتصوّف، إذ لا عمل إلاّ بصدق توجّه، ولا هما إلاّ بالإيمان، لا يصحّ واحد منهما بدونه، فلزم الجمع لتلازمهما في الحكم. ويقول مالك، صاحب مذهب في الفقه، "مَن تصوّف ولم يفقه فقد تزندق، ومَن تفقّه ولم يتصوّف فقد تفسّق، ومَن جمع بينهما فقد تحقّق". لعلّ هذا القول يختصر لبّ معنى التصوّف السنّيّ، بمعنى أن تكون التوبة والذكر والاستغفار والزهد... في الحدود التي يقرّها الشرع الإسلاميّ وفق القرآن والسنّة والإجماع. ويُعتبر القرن الثالث الهجريّ بداية التصوّف بمعناه الدقيق حيث أصبح ينفصل عن الفقه على أساس منهجيّ، بمعنى أدقّ أنّ الفقه يشمل الأمور الظاهرة من العبادات والمعاملات، في حين اهتمّ التصوّف بأحوال القلب الباطنة من المقامات والأحوال. ولعلّ هذا التاريخ، وتحت تأثير أفكار دخيلة على الإسلام، بفعل حركة النقل والترجمة واتّساع رقعة الخلافة الإسلاميّة وبالتالي إطلالة المسلمين بشكل واسع على حضارات مختلفة، كلّ هذا جعل الصوفيّة يباعدون بين الشريعة والحقيقة واعتبروا

الشريعة مجال اهتمام العامّة من الناس بينما الحقيقة هي جوهر اهتمام سالكي سبيل التصوّف.

وربّما كان لمسألة الحلول والاعتقاد بها الأثر البالغ في التصوّف. وهذا المفهوم، أي الحلول، كان مطروقًا ومعروفًا لدى العديد من الحضارات التي أطلّت عليها الفحوصات الإسلاميّة ولدى الديانات السماويّة التي سبقت الإسلام، ولا عجب والحال هذه، أنّ أكثر رجال الصوفيّة كانوا من غير العرب.

والمفهوم الثاني كان القول بالفناء ووحدة الوجود، وهذا المفهوم سار عليه غالبيّة الصوفيّة، إنّما لم يقُل جميعهم به.

مع هذه المفاهيم برزت بحدّة المواقف المدنيّة للتصوّف بين العديد من علماء المسلمين.

ومن أبرز مَن قال بهذه المفاهيم: الهروي، ابن عربي، ابن سبعين، ابن العفيف وابن الفارض. ولم تتوقّف مسألة تأثّر الصوفيّة بالمسيحيّة وبالحضارة الفارسيّة والهنديّة والصينيّة وحتّى اليونانيّة، من خلال حركة النقل، عند حدود الاعتقاد ببعض عقائدهم، إنّما وصل الحدّ إلى تأثّرهم بالقضايا الشكليّة، فلبسُ الصوف أخذوه عن الرهبان النصارى، ولبس الخرقة التي ترمز إلى الفقر ونبذ زخرف الدنيا وزينتها ناتج عن تقليد فكرة الاندماج في جماعة "البيكيشو" الهنديّة، وناتج عن تأثّرهم بفقراء الهند. يتبيّن إذن أنّ تأثّرهم كان بعيدًا عن الإسلام، وقد شمل الشكل والروح. ويعتقد بعض فقهاء المسلمين أنّ التأثّر الأخطر كان في الجوانب المتعلّقة بتصوّر بعض الصوفيّة للعلاقة بين الخلق والخالق، وجاء هذا من خلال ما أطلقه بعضهم من مواقف وألفاظ مخالفة للاعتقاد الإسلاميّ وهو ما سُمّي بشطح الصوفيّة مثل قول بعضهم "سبحاني ما أعظم شأني، وأنا واللّه، وما في الحلبة غير اللّه" وكلّ هذه الألفاظ تدلّ على اعتقادهم

بالفناء ووحدة الوجود والاتّحاد بين ذات اللّه وذات الإنسان. كما برزت عندهم، بفعل هذه الاعتقادات، مجموعة من المواقف والخطوات أبرزها:

١ ـ التهاون بتعاليم الشريعة وعدم قيامهم بالمفروضات من العبادات.

٢ ـ رأوا أنّ الصلاة صورة من صور الاتّصال مع اللّه، وهو اتّصال صامت يقوم على الفكر، وأنّ إقامتها بالشكل المتعارف عليه يخصّ العامّة، الذين لم يتقدّموا في حقل المعرفة الروحيّة، وعليه فإنّ لغير العامّة الحقّ بتركها.

٣ ـ إستحدثوا الذكر الجماعيّ، بترديد اسم اللّه مقطّعًا (هو) (ها).

٤ ـ لم يرضَ الصوفيّة بفهم القرآن على أساس ما تفيده دلالة الألفاظ، بل اعتبروا أنّ هناك ظاهرًا يفهمه العامّة وباطنًا يفهمه الخاصّة أصحاب الأحوال والمقامات من الصوفيّة مع ما يعنيه هذا من دخول في نفق الألغاز والشطحات.

إتّسعت رقعة الصوفيّة، وبدأت تزداد أعداد المتصوّفة، في القرن الثالث الهجريّ، وبدأت تزداد حالة الجدل التي تثيرها، حتّى أنّها كانت مسألة دسمة للاستشراق في العصر الحديث حيث اعتبرها بعض المستشرقين حركة فارسيّة، مستدلّين على ذلك بأنّ كبار رجال التصوّف كانوا من أصل فارسيّ، أمثال أبو زيد البسطامي أوّل قائل بنظريّة الفناء، والجنيد البغدادي الذي أكّد على نظريّة الاتّحاد مع الذات الإلهيّة، والحلاج أشهر مَن صرّح بوحدة الوجود. واعتبر فريق آخر من المستشرقين أنّ أظهر دليل على تأثير الفكر البوذيّ في التصوّف الإسلاميّ يتجلّى في إبراهيم بن أدهم الذي كان أميرًا على بلخ ويُقال إنّه سمع هاتفًا يناديه: "يا ابراهيم ما لهذا خُلقت". فترك فرسه وثيابه ولبس ثوب راعي وهامَ في البقاع حتّى انتهى فيه المقام في مكّة فانقطع هناك للعبادة.

ويجد هؤلاء المستشرقون في هذه الحادثة تكرارًا لِما كُتب عن بوذا، هذا بالإضافة إلى أوجه الشبه في تثقيف النفس بالتأمّل والزهد والتحرّر العقليّ واستعمال المسابح في الذكر.

ويؤكّد نيلسون أحد أهمّ المستشرقين الذين درسوا التصوّف على أنّ قولهم بفناء النفس في الوجود الكلّيّ تعود إلى أصل هنديّ "حلوليّة الفيدانتا". وها هو أبو يزيد البسطامي يقول: "ثمّ تنقّلت من إله إلى إله حتّى نادوا منّي في أنت أنا". ويؤكّد نيكلسون أيضًا على تأثّرهم بالغنوصيّة المسيحيّة، ويستشهد على ذلك بالتشابه الكبير بين نظريّة المعرفة وتعريف معروف الكرخي الذي عرّف التصوّف بأنّه "الأخذ بالحقائق واليأس ممّا في أيدي الخلائق".

وهناك اتّجاه ثالث يذهب إلى أنّ التصوّف بوصفه ردّة فعل العقل الآريّ في شكل مقاومة للدين الإسلاميّ الفاتح. ومن الملاحظ أنّ المستشرقين لم يقولوا بأيّ دور للفكر الإسلاميّ الأصيل وهذا فيه الكثير من المبالغة.

وعليه فمن الخطأ القول بأنّ علم الكلام محض فلسفة يونانيّة كذلك فإنّ القول عن التصوّف بأنّه تصوّف مسيحيّ أو غنوصيّ في ثوب إسلاميّ، ولعلّ التصوّف يمكن اعتباره، إلى حدّ بعيد، بأنّه استفاد من الاستبصارات الحدسيّة في القرآن، وأخذ من التجربة المسيحيّة والصور الغنوصيّة ما يتلاءم مع مواقفه الدينيّة الأساسيّة لذلك نجد أنّه من الصعب العثور على صوفيّ معتبر لم يتأثّر بالغنوصيّة ومناقضة الشرع كما يصعب أن تجد مَن تخلّص فكره تمامًا من الأفكار القرآنيّة.

ويرى أحمد أمين "أنّ ادّعاءات المستشرقين بتأثّر التصوّف الإسلاميّ بأفكار دخيلة مسألة غير مسلّمة على علاّتها، وهي أشبه بأحكام النقّاد على السرقات الأدبيّة، لأدنى شبه أو تقارُب في المعنى، دون وضع اعتبار لتشابه التجارب الإنسانيّة وتوارد

الخواطر. ويُستدلّ من ذلك أنّ رابعة العدويّة، وهي امرأة لم تطّلع على التصوّف المسيحيّ ومع ذلك فهي تشيّع في أقوالها عبارات في الحبّ الإلهيّ شديدة الشبه بالصوفيّة المسيحيّة".

لا يوجد باحث في أمر الصوفيّة ينكر مسألة تأثّرهم بالتصوّف المسيحيّ، وهذا عائد لاحتكاكهم بالرهبان. ونجد عددًا من كبار المتصوّفة يتحدّث مبديًا إعجابه بهم. ويروى أنّ إبراهيم بن أدهم يقول بإعجاب: "سألت الرهبان من أين تأكل فأجابني ليس هذا العلم عندي، سَل ربّي من أين يُطعمني".

ويقول ابراهيم الخواص: "سمعت ذات مرّة أنّ ببلاد الروم راهبًا مقيمًا بالدير منذ سبعين سنة بحكم الرهبانيّة فقلت في نفسي واعجبًا، شطّ الرهبانيّة أربعون سنة، بأيّ شرف أخلد هذا إلى الدير سبعين سنة؟ وقصدتُه فلمّا اقتربتُ من ديره فتح كوّة وقال لي: يا ابراهيم، عرفتُ لأيّ سبب جئت، أنا لم أقم هنا رهبانيّة في السبعين، بل لأنّي لي كلبًا هائجًا فأقمت هنا أحرسه، وأكفي الخلق شرّه، ثمّ قال لي: يا ابراهيم، إلامَ تطلب الناس؟ إمض واطلب نفسك وإذا وجدتها فاحرسها، لأنّ الهوى يرتدي ثوب الإلهيّة على ثلاثمائة وستّين لونًا، ويدعو العبد إلى الضلال".

ونُقل أنّ السراج الطوسي قال: "خرجت مع أبي عبداللّه الروزباري لنلتقي أنبيليا الراهب بصور، فنفذ بنا إلى ديره، وقلنا له: ما الذي حبسك ها هنا؟ قال: أسرتني حلاوة قول الناس يا راهب!".

وقال أبو يزيد البسطامي: "كنت يومًا في بعض سياحتي متلذّذًا بخلوتي وراحتي، مستغرقًا بفكري، مستأنسًا بذكري، وقد نوديت في سرّي، يا أبا يزيد، امضِ إلى دير سمعان واحضر مع الرهبان في يوم عيدهم والقربان، فلنا في ذلك نبأ وشأن، وساق قصّة طويلة في مجادلة النصارى وقال: قلت مَن مثلي وقد وصلت إلى هذه الحالة،

وعجبت، فهتف بي هاتف: أعجبت؟ اذهب فلا حاجة لنا فيك. قال: فهمْتُ في البادية على وجهي لا آكل ولا أشرب ولا أنام ثمّ مررت بدير فيه راهبة فقلت لها: ها هنا مكان طاهر أصلّي فيه؟ فقالت: طهّر قلبك، وصلِّ حيث شئت". ويبرز إعجابهم بالرهبان في أمرَين:

١ ـ تقليدهم المتمثّل بالعزلة والانقطاع عن الخلق وترك التكسّب والاهتمام بأيّ شأن من شؤون الدنيا.

٢ ـ تجمّع الصوفيّة في أماكن خاصّة "ضانقاه" وهو انقطاع يشبه حركة الأديرة[١].

أمّا فرق الصوفيّة، فقد أوردنا التعريف بأبرزها بحسب أسمائها في هذا الكتاب.

---

١ ـ السحمراني د. أسعد، التصوّف منشؤه ومصطلحاته، مرجع سابق؛ أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال؛ السحمراني، موسوعة الأديان الميسّرة؛ موسوعة الأديان في العالم؛ وهبة غسّان، جريدة "الديار" اللبنانيّة، عدد ٨ تمّوز (يوليو) ١٩٩٩، ص١٢.

العروسيَّة

طريقة صوفيّة تُنسب إلى الشيخ أبي العبّاس أحمد بن عروس بن عبداللّه بن محمّد بن أبي بكر، الذي يرجع نسبه إلى قبيلة هوارة ومواطنها قديمًا ببلاد طرابلس إلى تخوم برقة في ليبيا. يُقال إنّه، منذ صغره، ظهرت عليه معالم التقوى والصلاح، وكان شديد الحنوّ على الفقراء والغرباء، ولفت إليه الانتباه بظهور كرامة عليه وهو رضيع، حيث امتنع عن رضاع أمّه نتيجة لأكلها من لحم بقرة اتّضح أنّها لم تكن حلالاً[١].

العيسَوِيَّة

طريقة صوفيّة تُنسب إلى مؤسّسها محمّد بن عيسى الفهدي السفيانيّ الأصل والنشأة، المكناسيّ المولد والوفاة، توفّي سنة ٩٣٣هـ/ ١٥٢٦م. لم تمضِ مائة سنة على وفاة المؤسّس حتّى انتشرت زوايا هذه الطريقة في كلّ بلدان المغرب وموريتانيا والجزائر وتونس وطرابلس الغرب. والملفت في هذه الطريقة المكانة السامية التي يتمتّع بها الشيخ. فإن وقع المريد على الشيخ وجب عليه أن يترك عقله وعلمه وديانته ومروءته، فبصيرة الشيخ مقدّمة، وخطوة أولى من صواب المريد ولا يردّ عليه ولا يخالفه. كما أنّ هذه الطريقة تلفت بكثرة الاستغاثة بالأولياء، كما يظهر ذلك من الحزب الكبير الذي أخذوه عن الشيخ الجزولي[٢].

---

١ ـ وهبة غسّان، جريدة "الديار" اللبنانيّة، عدد ٢٨ حزيران (يونيو) ١٩٩٩، ص١٢.

٢ ـ وهبة غسّان، جريدة "الديار" اللبنانيّة، عدد ٢٥ حزيران (يونيو) ١٩٩٩، ص ١٢.

الغيلانيّة

فرقة من القدريّة، تُنسب إلى غيلان بن مروان الدمشقيّ (ت٧٢٣) ذي الأصل المسيحيّ، عاصر الدولة الأمويّة وعاش في دمشق، كان كاتبًا بليغًا، كتب غيلان رسائل في ألفي ورقة. وهو ثاني من قال بالقدر ودعا إليه، لم يسبقه سوى معبد الجهني. قيل إنّه تاب عن القول بالقدر على يد عمر بن عبد العزيز (خليفة ٧١٧ ـ ٧٢٠)، غير أنّه عاد وجاهر بمذهبه بعد موت عمر، فقتله هشام بن عبد الملك (خليفة ٧٢٤ ـ ٧٤٣) بناء على فتوى الإمام الأوزاعي[١].

القادريّة

طريقة صوفيّة منسوبة إلى مؤسّسها عبد القادر الجيلاني (١٠٧٧ ــ ١١٦٦) الذي وُلد في جيلان وتوفّي في بغداد، كان فقيهًا واسع المعرفة، يُفتي بمذهبَي الشافعي وأحمد معًا، سمع الحديث وتفقّه على أبي سعيد المخرمي، واشتغل بالوعظ، لازم الخلوة والمجاهدة والسياحة والمقام في الصحراء. وكان عظيم التقدير للسيّد المسيح ويقول: "يلزم ألاّ ندعو إلى إنقاذ أنفسنا فقط، بل لكلّ مَن خلقه اللّه مثلنا"، ولذلك امتاز أتباعه بروح التسامح مع المسيحيّين واليهود. والقادريّة كثيرون جدًّا في المغرب، وزاويتهم الكبرى في "غزوات" أسّسها "مختار كبير"، وبعد موته انقسمت القادريّة إلى ثلاث فرق:

---

١ ـ النوبختي الحسن بن موسى، فرق الشيعة؛ الموسوعة العربيّة الميسّرة.

١ ـ القادريّة البكائيّة

٢ ـ قادريّة أدرار

٣ ـ قادريّة والاتة

وقد انتشرت القادريّة في مختلف بلاد غرب أفريقيا من السنغال إلى بنين، وهم ينشرون الإسلام بطريقة سليمة عن طريق التجارة والتعليم، وأغلب التجّار في تلك المناطق من أتباع الطريقة القادريّة.

تقوم الطريقة القادريّة على الذكر الجهريّ في حلقة الاجتماع والرياضة الشاقّة، وتقليل الطعام والفرار من الخلق. والذاكر يجلس فاردًا أصابعه على ركبتَيه ثمّ يدَي وجهه جانب الكتف الأيمن قائلاً: "ها"، ويدير وجهه إلى اليسار قائلاً "هو"، ويخفض رأسه قائلاً "حي"، ويستمرّ على هذا المنوال بلا توان[١].

القَدَرِيَّة

تُعتبر القدريّة أقدم الفرق الفلسفيّة في الإسلام. وقد جاءَت تسميتها: القدريّة، نسبة إلى "القدرة" وذلك معارضةً للجبريّة، من معنى "الجبر والإلزام"[٢]. ذلك أنّ ظهور القدريّة كان ردّة في وجه تعليم الإسلام الصارم الذي يقول بالجبر المطلق، مستخرجًا

---

١ ـ وهبة غسّان، جريدة "الديار" اللبنانيّة، عدد ٢٥ حزيران (يونيو) ١٩٩٩، ص ١٢؛ الموسوعة العربيّة الميسّرة، ٢: ٩٣٦.

٢ ـ راجع: الأيجي، كتاب المواقف، نشر سورنسون (ليبزغ،١٨٤٨) ص ٣٣٤، ٣٦٢.

ممّا نصّ عليه القرآن من أنّ قدرة الله لا تُحدّ[1]. فكان علماء القدريّة يقولون إنّ للإنسان قدرة على أعماله، وفي هذا مناقضة مباشرة لقدرة الله كما وصفها القرآن الكريم: ﴿قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

وفي القرآن الكريم آيات تعلّم الناس أنّه مهما أصاب الإنسان، مهما يحدث في السماء أو الأرض فبقضاء من الله، ومحفوظ في كتاب[3]. إلاّ أنّ أصحاب هذا المذهب لم يستطيعوا أن يوفّقوا بين معتقدهم ومسؤوليّة الإنسان وإلزامه الأدبيّ. كانوا يقولون:

إنّ الله قادر ولكنّه عادل، والله العادل لا يجازي الإنسان على عمل قام به، ما دام هذا العمل مكتوبًا أو مقدّرًا له.

مثل هذه القضايا الدينيّة أزعجت عقول اللاهوتيّين المسيحيّين زمنًا طويلاً. وقد بدا وقع هذا الجدل على الإسلام في دمشق، ثوريًا. ففي هذه المدينة، ولأوّل مرّة، أُفسح للعقل أنّ يدخل في أمور العقيدة المنزَلة. أمّا في المدينة، فإنّ علماء الدين كانوا يعملون بعيدين عن التيّارات الفكريّة، وفي مجتمع لم يكن قد تمرّس بعد بأمور العلم والمعرفة؛ ولا ينطبق هذا الوصف على دمشق، فقد كان القدّيس يوحنّا الدمشقيّ (نحو ٦٧٥ ـ ٧٤٩) يُعتبر بمثابة العامل الرئيسيّ في نقل المعارف المسيحيّة والفكر الإغريقيّ إلى المجتمع الإسلاميّ. فمن جملة مؤلّفاته كتاب في حوارٍ قام بينه وبين عربيّ حول ألوهيّة المسيح وحرّيّة الإدارة الإنسانيّة. وقد كان الغرض من وضع هذا الكتاب أن يكون دليلاً

---

١ ـ أنظر: آل عمران: ٢٦؛ الحجر: ٢١؛ الشورى: ٢٦؛ الزخرف: ١٠.

٢ ـ آل عمران، ٢٦.

٣ ـ أنظر: النحل: ٧٧؛ الحديد: ٢٢.

يهتدي به المسيحيّ عند قيام جدل أو حوار بينه وبين المسلم[1]. وهكذا يتّضح ما كان للمسيحيّة من تأثير مباشر في ظهور مذهب القدريّة عند الإسلام.

القُرمُطيَّة

قد يكون البحث في حقيقة القرامطة من أكثر الأبحاث تعقيدًا في مجال المجتمعات الإسلاميّة وفرقها. وممّا زاد في تعقيدات البحث، سيل الآراء المتناقضة حول أصل القرامطة ومعتقدهم وارتباطهم بالإسماعيليّة. إنّما الثّابت هو أنّ القرامطة هم من الشيعة المتطرّفة، تصلهم صلة النسب بالإسماعيليّة والفاطميّين. أمّا نسبتهم: القرامطة، فتعود إلى فلّاح عراقيّ اسمه حمدان قرمط[2]، الذي عاش في القرن الثالث للهجرة القرن التاسع ميلادي. ويُجمع المؤرّخون على أنّ دخول حمدان قرمط في الدعوة جاءَ على يد داعية شيعيّ إسمه حسين الأهوازي، توجّه إلى سلميّة[3]، بعد أن سكن المكان المعروف بـ"عسكر مكرم"، ثمّ تحوّل إلى البصرة. ومن سلميّة، التي كانت مركز أئمّة السبعيّة، توجّه الأهوازي إلى العراق داعيةً، فصادف بطريقه في سواد الكوفة حمدان بن الأشعث، فسأله عن الطريق إلى قرية يُقال لها "قس بهرام" فتبيّن له أنّ حمدان أيضًا يقصد هذه القرية، فترافق الرجلان، وإذ عرض حمدان على الأهوازيّ أن يركب

---

١ - راجع: حتّي، صانعو التاريخ العربيّ، مرجع سابق، ص١٢٥.

٢ - BERNARD LEWIS, *THE ORIGINS OF ISMAILISM* (CAMBRIDGE,1940) PP.19-22.

٣ - السلميّة: مدينة سوريّة تقع شرقي العاصي، وهي اليوم مركز قضاء ينسب إليها، كانت قاعدة أئمّة الشيعة الإسماعيليّة المستورين قبل ظهورهم.

ثوره، أبى، قائلاً إنّه لم يؤمَر بذلك، ما أدهش حمدان الذي تساءَل عمّن يأمره وينهاه؟ فأجابه الأهوازيّ: "مالكي ومالكك ومَن له الدنيا والآخرة". وبعد تفكير، نظر حمدان إلى الأهوازيّ وتساءَل: "ما هذا؟ ما يملك ما ذكرته إلاّ الله!" ـ قال: "صدقت. والله يهب ملكه لمَن يشاء!" ـ قال حمدان: "فما تريد في القرية التي سألتني عنها؟" ـ قال: دُفع إليّ جراب فيه علم وسرّ من أسرار الله، وأُمرت أن أشفي هذه القرية وأغني أهلها وأستنقذهم وأُملّكهم أملاك أصحابهم".

وبعد أخذ ورد، طلب حمدان من الأهوازيّ أن "يدفع إليه من هذا العلم وينقذه"، فأجابه: "لا يجوز ذلك أو آخذ عليك عهدًا وميثاقًا أخذه الله على النّبيّين والمرسلين وأُلقي إليك ما ينفعك".

واستمرّ الحوار حتّى أخذ الحسين الأهوازيّ العهد على حمدان الذي دعاه إلى منزله قائلاً: "إنّ لي إخوانًا أصير بهم إليك لنأخذ عليهم العهد للمهديّ". فصار معه إلى منزله، وجمع عليه حمدان الناس، فأخذ عليهم العهد، واغتبط حمدان لكثرة ما شاهده من خشوعه وصيام نهاره، وقيام ليله... واغتبط به كافّة القوم، وترسّخ احترامه بينهم واشتدّت ثقتهم به. ولمّا مات الأهوازيّ، خلفه في الدعوة حمدان بن الأشعث. وكان ذلك سنة ٢٦٤ هـ / ٨٧٧ م[١].

أمّا الأهوازيّ هذا، فهو داعية أرسله إلى العراق أحمد بن عبد الله بن ميمون القدّاح. وكان عبد الله عالمًا بجميع الشرائع والسنن والمذاهب واشتهر بالعلم والتشيّع، فكان يدعو للإمام من آل البيت محمّد إسماعيل بن جعفر الصادق، وكوّن له الدعاة،

---

١ ـ المقريزي، إتّعاظ الحنفاء بأخبار الأئمّة الفاطميّين الخلفاء، (القاهرة، ١٩٤٨) ص ٢٠٤ وما بعدها؛ راجع عيّاش سامي، الإسماعيليّون في المرحلة القرمطيّة، دار إبن خلدون (بيروت،١٩٨١) ص٦٧ ـ ٦٨.

ولمّا مات خلفه ابنه أحمد[1].

أمّا حمدان، فكان راعي بقر، وكان ذكيًّا رغم جهله[2]. وبينما ذكر بعضهم أنّ لقب قرمط قد أُطلق على حمدان بن الأشعث لأنّه كان يقرمط بمشيه[3]، ذكر أخرون أنّ أصل لقب قرمط هو "كرميتة" الذي يعني باللغة النبطيّة "أحمر العين"، وقد لُقِّب حمدان بـ"كرميتة" لحمرة في عينيه، ثمّ خُفِّف فقيل: قرمط[4].

ويختلف بعض الروايات في موضوع اللقاء بين الأهوازيّ وحمدان، وإن كان الجوهر واحدًا[5]. إلاّ أنّ الاختلاف في الجوهر، يرد في موضوع الدعوة بالذات. وأساس الاختلاف هو في ما إذا كانت الدعوة أصلاً، حنفيّة أم إسماعيليّة.

فلقد أجمع عدد كبير من المؤرّخين على أنّ القرامطة قد جاؤوا بكتاب فيه:

"بسم الله الرحمن الرحيم! يقول الفرج بن عثمان، وهو من قرية يُقال لها نصرانة، إنّه داعية المسيح، وهو عيسى، وهو الكلمة، وهو المهديّ، وهو أحمد بن محمّد بن الحنفيّة، وهو جبريل" ويذكر أنّ المسيح تصوّر له في جسم إنسان وقال له: "إنّك الداعية، وإنّك الحجّة، وإنّك الناقة، وإنّك الدابّة، وإنّك يحيى بن زكريّا، وإنّك روح القدُس"... وعرّفه "أنّ الصلاة أربع ركعات: ركعتان قبل طلوع الشمس، وركعتان بعد غروبها. وأنّ الآذان في كلّ صلاة أن يقول المؤذّن: ـ الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر،

---

١ ـ المقريزي، الخطط المقريزيّة (القاهرة ١٣٢٦هـ) ٢: ١٥٠ وما بعدها.

٢ ـ البغدادي عبد القاهر، أصول الدين (استانبول،١٩٢٨) ص٢٣٩.

٣ ـ المرجع السابق.

٤ ـ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٧: ٤٤٥ ـ ٤٤٦.

٥ ـ قابل: إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٧: ٤٤٤ وما بعدها.

أشهد أن لا إله إلاّ الله، أشهد أن لا إله إلاّ الله، أشهد أنّ آدم رسول الله، أشهد أنّ نوحًا رسول الله، أشهد أنّ إبراهيم رسول الله، أشهد أنّ موسى رسول الله، أشهد أنّ عيسى رسول الله، أشهد أنّ محمّدًا رسول الله، أشهد أنّ محمّد بن الحنفيّة رسول الله...ـ وأن يقرأ في كلّ ركعة الاستفتاح، وهي ـ من المنزّل على أحمد بن محمّد بن الحنفيّة[1] ـ .

غير أنَّ مؤرّخين وبحّاثين آخرين، أكّدوا على أنّ القرامطة هم إسماعيليّة من خلال تأكيدهم على أنّ "القرامطة والإسماعيليّة والسبعيّة... هي ألقاب لدعوة واحدة... لها ألقاب متعدّدة على اختلاف الأَعصار والأزمنة ولكلّ لقب سبب"[2]... وقد ذهب بعضهم إلى أنّ "الإسماعيليّة تسمّوا بالقرامطة في مرحلة معيّنة، من مراحل نشر الدعوة وانطلاقًا من حادثة معيّنة وذلك عندما أوصى أحد دعاة "شطنبيل" أهل الأحساء[3] قائلاً: "إذا دخلتم هجَر فعبّسوا وجوهكم وقرمطوا أنوفكم على أهلها"[4]...

على أيّ حال، فإنَّ الدعوة القرمطيّة كانت دعوة باطنيّة، وقد طبعت مرحلة الاضطراب التي تميّز بها الإسلام في ما بين نهاية القرن التاسع وبداية القرن العاشر الميلاديّ. وقد كان للقرامطة نظام جمعيّة سرّية ذو مبدإٍ إشتراكيّ، ولم يكن الانضمام إلى جماعتهم جائزًا إلاّ بشروط معيّنة، وبعد إجراء مراسيم خاصة.

---

١ ـ إبن الأثير، الكامل، ٧: ٤٤٧ ـ ٤٤٨؛ قابل: ابن خلدون، ٣: ٣٣٥ ـ ٣٣٦؛ المقريزي، إتّعاظ الحنفا، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

٢ ـ الغزّالي أبو حامد، فضائح الباطنيّة، تحقيق وتقديم عبد الرحمن بدوي (القاهرة،١٩٦٤) ص١١.

٣ ـ الأحساء أو الحسا، أو هجر والبحرين، هو اليوم إقليم يشمل الساحل الشرقيّ في المملكة العربيّة السعوديّة من حدود الكويت إلى حدود قطر، قاعدته الدمّام.

٤ ـ العيّاش سامي، مرجع سابق، ص ٨١ بالاستناد إلى: حمزة بن عليّ، في: السيرة المستقيمة ورسائل درزيّة أخرى (مخطوطة لدى العيّاش).

هذه الطائفة التي بدأت تظهر عمليًّا بقيادة حمدان قرمط، سوف تنشيء دولة مستقلّة على الضفّة الغربيّة من الخليج الفارسيّ، لتنشر الدمار حواليها، ولتزحف من ثمّ على بلاد الشام ناشرة الويل والخراب و... شهوة السلطة والانتقام.

يبدو للمدقّق في ظاهرة القرامطة أنّ منطلقاتها كانت اجتماعيّة ثوريّة أكثر منها دينيّة، لا بل إنّ تلك المنطلقات كانت متسترّة بالدين لأهداف اقتصاديّة ومعيشيّة. وقد اعتبر الغزاليّ أنّ الحركات الباطنيّة، "لم يفتتحها منتسب إلى ملّة ولا معتقد... ولكن تشاور جماعة من المجوس والمزدكيّة[1]، وشرذمة من الملحدين، وطائفة كبيرة من ملحدة الفلاسفة المتقدّمين"، بهدف القضاء على الإسلام، ولم يروا سبيلاً إلى ذلك إلاّ بانتحال عقيدة طائفة من فرقهم... وراحوا يعتزّون بأهل البيت ويتودّدون إليهم بما يلائم طباعهم "من ذكر ما تمّ على سلفهم من الظلم العظيم والذلّ الهائل... حتّى يسهل استدراجهم إلى الانخلاع عن الدين.. وإن بقي عندهم معتصم من ظواهر القرآن ومتواتر الأخبار، وأوهموهم أنّ تلك الظواهر لها أسرار وبواطن"... واعتبروا "أنّ أمارة الأحمق الانخداع بظواهرها، وعلامة الفطنة اعتقاد بواطنها"، وقالوا: "ثمّ نَبثّ إليهم عقائدنا، ونزعم أنّها المراد بظواهر القرآن. ثمّ إذا تكثّرنا بهؤلاء سهل علينا استدراج سائر الفرق بعد التحيّز إلى هؤلاء والتظاهر بنصرهم". ثمّ قالوا: "طريقنا أن نختار رجلاً ممّن يساعدنا على المذهب، ونزعم أنّه من أهل البيت، وأنّه يجب على كافّة الخلق مبايعته، وتتعيّن عليهم طاعته فإنّه خليفة رسول الله، ومعصوم عن الخطأ والزلل من الله تعالى"[2]...

---

١ ـ المزدكيّة: نسبة إلى مزدك، داع إيرانيّ، إتّبع في تعليمه ماني وأيّد النزعة الغنوصيّة، أراد إشتراكيّة الأموال والنساء، أيّد مذهبه الملك قباذ الأوّل (٤٨٨هـ) حتّى خُلع فأعاد كسرى أنو شروان الزرادشتيّة.

٢ ـ الغزالي، فضائح الباطنية، ص١٨ ١٩.

عند بدء ترؤّس حمدان قرمط أتباعه، كانت حركة الزنج المنطلقة من المبادىء الثوريّة الاجتماعيّة لا تزال نشطة، وكان صاحب الزنج لا يزال حيًّا، فسار إليه حمدان وأبلغه أنّ لديه من الأتباع "مائة ألف ضارب سيف" ودعاه إلى الإنضمام إليه، إلاّ أنّ المناظرة التي حصلت بين الرجلَين لم تؤدّ إلى اتّفاق[1].

من شأن هذه المحاولة القرمطيّة أن تشير بوضوح إلى المنطلقات الثوريّة الاجتماعيّة للقرامطة. ذلك أنّ حركة الزنج لم تكن سوى حركة ثوريّة اجتماعية تحت غطاء دينيّ، اتّخذه لها قائدها الذي ادّعى أنّه المهديّ، وأنّه من سلالة عليّ بن أبي طالب عليه السلام من أحفاد الحسين، بينما الواقع أنّه من فخذ عبد القيس من بني أسد[2].

لم يكن مرّ أربعة عشر عامًا على دخول حمدان قرمط الدعوة التي صارت تنتسب إليه، حتّى ظهر أوّل تحرّك ثوريّ قرمطيّ فعّال بسواد الكوفة، وذلك في أواخر عهد الخليفة العبّاسيّ الخامس عشر: المعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ / ٨٧٠ ـ ٨٩٢ م) بعد أن كان قد انضمّ إلى حمدان معظم أهل الكوفة ومعظم القبائل العربيّة في هذه المنطقة، حتّى لم يتخلّف عنه رفاعيّ ولا ضُبَيْعيّ... ولم يبقَ من بطون العرب المتّصلة بواسط بطن إلاّ استجاب له[3]. وبرز بين أنصار القرمطيّ جماعة من الدعاة النشيطين الذين راحوا يستقطبون الناس، أبرزهم زكرويه بن نهرويه وأبناؤه، وقد لقّب زكرويه بالسيّد[4].

---

١ ـ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٧: ٤٤٩.

٢ ـ الطبري، م٦، ج١١، ص ١٨٣.

٣ ـ المقريزي، المقفّى، ص٩٨.

٤ ـ الطبري، م٦، ج١١، ص٣٨٠ ـ ٣٨١.

في هذه الأثناء، بثّ القرامطة الدعاة إلى الأقطار، ومنهم يحيى بن المهديّ الذي قصد القطيف ونزل عند عليّ بن المعلاّ، وهو من المُغالين في التشيّع. وعندما قرأ عليّ على أهل القطيف الكتاب المرسل من المهديّ، استجابوا له كما استجاب سائر قرى البحرين. وكان أحد المستجيبين، أبو سعيد الجنابيّ. وبعد أن غاب يحيى عن البحرين لبعض الوقت، عاد إليها ومعه كتابٌ ثانٍ من المهديّ، فيه أن "إدفعوا ليحيى خمس أموالكم"، فانصاع أهل البحرين لأمر المهديّ، الذي راحوا ينتظرون ظهوره بفارغ الصبر، وعَظُمَ أمر أبي سعيد بعد أن اجتمع حوله العديد من القبائل[1]. وفي ٢٨٦ هـ / ٨٩٨ م، ثار القرامطة في البحرين بقيادة أبي سعيد الجنابيّ الذي اجتمع إليه القرامطة والأعراب، فقتلوا الناس في القطيف، وأظهروا من البدع ما دفع والي البحرين إلى اعتقال يحيى بن المهديّ وضربه وحلق رأسه ولحيته، فهرب أبو سعيد الجنابيّ إلى خارج البحرين، وسار يحيى إلى بني كلاب وعُقيل والخريس، فاجتمعوا معه ومع أبي سعيد حتّى قويت شوكة القرامطة في البحرين[2]. وما أن حلّت السنة التالية (٢٨٧ هـ / ٨٩٩ م) حتّى أغاروا على نواحي هجر (الأحساء)، وهدّدوا البصرة، ممّا جعل الخليفة العبّاسيّ السادس عشر: المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ / ٨٩٢ ـ ٩٠٢ م) يرسل واليًا قويًا إلى البحرين هو العبّاس بن عمرو الغنويّ، مزوّدًا بألفَي رجل، إضافة إلى عدد كبير من المتطوّعين والخدم، بهدف القضاء على القرامطة. وقد أبدى أهل البصرة حماسًا في التطوّع لقتال القرامطة، بهدف ردّ خطرهم عن مدينتهم. بيدَ أنّ القرامطة بقيادة الجنابيّ أبادوا هؤلاء المهاجمين عند أوّل واقعة، وأسروا الوالي العبّاسيّ. ومَن نجا من متطوّعي البصرة عاد إلى أرضه بلا زاد. وإذ حاول قرابة

---

١ ـ راجع: العيّاش، مرجع سابق، ص٧٥، مستندًا إلى: ابن خلدون، ٣: ٣٥٠.

٢ ـ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٧: ٤٩٣ ـ ٤٩٥.

أربعماية من أهل البصرة ملاقاة المهزومين بالزاد والرواحل، هاجمهم بنو أسد، وسلبوا رواحلهم والزاد، وقتلوا مَن سَلِمَ من المعركة.

هذه الأحداث، أرعبت أهل البصرة الذين عزموا على الانتقال منها، لكنّ واليها منعهم من ذلك.

وبعد أيّام، أطلق القائد القرمطيّ الوالي العبّاسيّ الأسير، وأرسله إلى الخليفة "ليعرّفه ما رأى"[1].

لم يمضِ سنتان على سيطرة القرامطة على البحرين، حتّى بدأ ظهورهم في بلاد الشام ابتداءً من سنة ٢٨٩ هـ / ٩٠١م، وكان الداعية القرمطيّ هناك، ابن زكرويَه بن مهرويَه يحيى، الذي كنّى نفسه بأبي القاسم ولقّبوه بالشيخ. وقد زعم الشيخ بأنّه محمّد بن عبد الله بن محمّد بن إسماعيل بن جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام. كما زعم أنّ له في البلاد مائة ألف تابع، وأنّ ناقته التي يركبها مأمورة، فإذا تتبّعوها في مسيرها نُصِروا. وهكذا تمكّن من تجميع الأتباع حوله، حتّى إذا ما أرسل الخليفة حملة لاعتقاله، تمكّن من القضاء عليها ومن قتل قائدها. وراح ابن زكرويَه وأتباعه يعيثون بالأرض تدميرًا، فأحرقوا مسجد الرصافة، ونهبوا كل قرية مرّوا بها، حتّى بلغوا أرض الطولونيّين، وكانت إذ ذاك ولاية هارون[2] (٨٩٦ ــ ٩٠٤م).

أمّا في الكوفة، فقد اجتهد الخليفة العبّاسيّ في ملاحقة القرامطة، وقد يكون في الكلام الذي تجرّأ أحد قادتهم: أبو الفوارس، على أن يوجّهه إلى الخليفة المعتضد عندما

---

١ ـ ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٧: ٤٩٩ ـ ٥٠٠.

٢ ـ الطبري، م٦، ج١١، ص٣٨٠ ـ ١٣٩٧ ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٧: ٥١١ ـ ٥١٢.

أُحضر إليه بعد اعتقاله، أوضح تعبير عن موقف القرامطة من مسألة الخلافة. فلقد واجه هذا القرمطيّ المتشيّع الخليفة العبّاسيّ في عقر قصره بقوله: "إنّ رسول الله ﷺ مات وأبوكم العبّاس حيّ، فهل طالب بالخلافة أم هل بايعه أحد من الصحابة على ذلك؟ ثمّ مات أبو بكر فاستُخلف عمر، وهو يرى موضع العبّاس، ولم يوص إليه، ثمّ مات عمر وجعلها شورى في ستّة أنفس، ولم يوص إليه، ولا أدخله فيهم، فبماذا تستحقّون أنتم الخلافة؟ وقد اتّفق الصحابة على دفع جدّك عنها؟".

أمام هذا الكلام العميق الجريء، لم يكن بوسع الخليفة سوى أن يأمر بتعذيب القرمطيّ وقتله وتخليع عظامه. وهذا ما جرى له بعد تقطيع يديه ورجليه[1]. بيدَ أنّ الخليفة المعتضد قد مات هو الآخر بعد أيّام، ليخلفه المكتفي (٢٨٩ ـ ٢٩٥ هـ / ٩٠٢ ـ ٩٠٨م) وهو الخليفة العبّاسيّ السابع عشر.

في هذه الأثناء، سجلّ القرامطة في بلاد الشام انتصارًا واضحًا على الطولونيّين؛ ومع إطلالة سنة ٢٩٠ هـ / ٩٠١م، كانوا قد حاصروا دمشق، وضيّقوا على أهلها، فأرسل الخليفة العبّاسيّ الجديد نجدة إلى دمشق، وكذلك فعل المصريّون، ممّا أضعف القرامطة الذين قُتل مقدّمهم: الشيخ يحيى بن زكرويَه، على باب المدينة. فسارع أتباعه إلى الالتفاف حول شقيقه الحسين الذي سمّى نفسه أحمد، وتكنّى بأبي العبّاس.

فكّ أبو العبّاس القرمطيّ الحصار عن دمشق بعد فرض الخراج على أهلها. ثمّ سار إلى حمص، فاستولى عليها بسهولة، وخُطب له على منابرها، وتسمّى "المهديّ أمير المؤمنين". وبعد حمص، سار إلى حماة، ومعرّة النعمان، وغيرهما، فقتل أهلها بمَن فيهم النساء والأطفال. ثمّ سار إلى بعلبكّ وأباد أهلها في إحدى أبشع المجازر. ثمّ

---

١ ـ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٧: ٥١٢ ـ ٥١٣.

سار إلى سلميّة، وبعد أن صالحه أهلها وأخذوا منه الأمان، فتحوا له أبوابها، فغدر بهم، وبدأ بإبادة مَن فيها من بني هاشم، وانتقل إلى إبادة كل حيّ، بما في ذلك البهائم، ولم يترك فيها عينًا تطرف. مع العلم أنّ سلميّة كانت ملجأ الأئمّة الشيعة المستورين، ومنها خرجت الدعوة القرمطيّة.

بعد سلميّة، سار القرامطة بقيادة ابن زكرويَه الذي تكنّى بأبي العبّاس، يمشّطون القرى المحيطة، سبيًا ونهبًا. وقد أصبح اسم أبي الشامة، الذي أُضيف إلى ألقاب ابن زكرَويه إذ رسم شامة على وجهه وتكنّى بها، مُرادفًا للموت والرعب والدمار.

تجاه هذا الواقع، جرّد الخليفة العبّاسيّ جيشًا جرّارًا إلى نواحي حماة، للقضاء على أبي الشامة وجماعته. وقد تمكّن جيش الخليفة من إنزال الهزيمة في القرامطة الذين تفرّقوا بعدئذ في البوادي. ولم ينجح أبو الشامة في محاولة فراره. فقُبض عليه ونقل إلى الخليفة المكتفي في بغداد، هو وأصحابه الكبار، فأمر المكتفي بقطع أرجلهم وأيديهم وضرب أعناقهم بعد ذلك[1].

هذه الهزيمة لم تمنع زكرويَه، والد أبي الشامة، وأخاه الشيخ، اللذَين أصبحا في عداد الأموات، من إكمال نشاطه. فأرسل زكرويه جماعة إلى إذراعات[2] وبصرى[3] وبثينة[4]، فحاربوا أهلها حتّى أمّنوهم، فلمّا استسلم أهل هذه البلدات للقرامطة، أقدم هؤلاء، كالعادة، على قتلهم وسبي ذراريهم ونهب أموالهم. ثمّ هاجموا دمشق التي قاوم أهلها بقوّة بعد أن قضى القرامطة على العسكر النظاميّ، فتحوّلوا إلى طبريّة التي

---

١ - ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٧: ٥٢٣ - ٥٢٦، ٥٣٠ - ٥٣٢.

٢ - **إذراعات**: هي مدينة درعا السوريّة اليوم، قاعدة محافظة حوران.

٣ - **بصرى**: هي بصرى إسكي شام، مدينة سوريّة في محافظة حوران حاليًا.

٤ - **بثينة**: إسم أطلقه العرب على البلاد الخصبة المجاورة لحوران والجولان ما وراء الأردن، كانت قاعدتها إذراعات (درعا).

لم يكن حالها أفضل من أيّة بلدة عاث بها القرامطة قتلاً وسبيًا ونهبًا.

في هذه الأثناء، تحرّك زكرويَه في العراق، وتمكّن من جمع المريدين حوله، فاعترفوا له بالرئاسة، ودعوه بالسيّد، وصاروا يسجدون له ويتباركون منه. ولمّا حاول الخليفة القضاء على زكرويَه وأتباعه، فكلّفه ذلك حوالى ١٥٠٠ قتيل بخلال معركة دارت بسقي الفرات، ممّا زاد في قوّة القرامطة وسطوتهم[1].

في الوقت نفسه، بدأ ظهور القرامطة في اليمن، وبدأوا يُثيرون الاضطرابات هناك. ومع إطلالة السنة التالية (٢٩٤ هـ / ٩٠٦م) سار زكرويَه مع أتباعه يريد الحجّ. وبطريقه إلى مكّة، لم يدع بلدة إلاّ وقتل أهلها وسبى نساءَها ونهب أموالها، كذلك فعل بكلّ مَن التقاه وجماعته عائدًا من الحجّ. ولم يكتفِ القرامطة بهذا القدر من الإجرام، بل أقدموا على طمر الآبار الواقعة على طريق مكّة بالجيَف والتراب والحجارة. فكان لهذه الأعمال البالغة الخطورة أثر فظيع في نفوس القادة المسلمين والمجتمعات الإسلاميّة، وقد بلغ عدد القتلى من الحجّاج ما يزيد على العشرين ألفًا، وباتت طريق مكّة غير آمنة على الإطلاق. أمام هذا الواقع المخيف الذي لا يُحتمل، جهّز الخليفة المكتفي جيوشًا للقضاء على زكرويَه، وأتباعه. وبالفعل، فقد تمكّن جيش الخليفة هذه المرّة من إنزال الهزيمة بالقرامطة، فقتل زكرويَه، وأسر أكثر خاصّته وأقربائه، وتتبّع الجيش القرامطة في بلاد الشام والعراق فقتل بعضهم وسجن بعضهم الآخر سجنًا مؤبّدًا. ويذكر بعض المؤرّخين أنّ مجموع ما أُزهق من أرواح حتّى هذا التاريخ بسبب القرامطة، يبلغ الستمائة ألف نسمة[2].

---

١ ـ راجع: إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٧: ٥٤١ ـ ٥٤٧؛ السيوطي، مرجع سابق، ص٣٧٦.

٢ ـ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٧: ٥٤٨ ـ ٥٥١؛ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٤: ٢٨٠؛ السيوطي، مرجع سابق، ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧؛ المقريزي، المقفّى، ص١٠٦.

أمّا في البحرين، فقد تمكّن القائد القرمطيّ، أبو سعيد الجنانيّ، من الاستيلاء على هجر والأحساء والقطيف والطائف وسائر بلاد البحرين. غير أنّه في سنة ٣٠١ هـ / ٩١٢م، أقدم خادم أبي سعيد، وهو صقلبيّ، على قتل سيّده في الحمّام، إضافة إلى أربعة من رؤساء القرامطة. وقد اعتبر بعض المؤرّخين أنّ الخادم الصقلبيّ قد أقدم على قتل القادة القرامطة بتحريض من الداعية الفاطميّ: عبيد الله[1].

كان أبو سعيد الجنابي قد عهد قبل موته إلى ابنه البكر: سعيد، لكنّ سعيدًا كان أضعف من أن يتمكّن من السيطرة على الوضع بوجه طُموح أخيه الأصغر: أبي طاهر، الذي استجاب لطلب الخليفة العبّاسيّ بالإفراج عن الأسرى العبّاسيّين[2].

لم يكن أبو طاهر الجنّابي، رغم تجاوبه مع طلب الخليفة، أقلّ عُنفًا وثورة من أبيه وسائر كبار القادة القرامطة، فهو لم يوفّر التعرّض لقوافل الحجّاج، مثلما فعل زكرويَه، لا بل تجاوز أبو طاهر في عنفه وتطرّفه سائر أولئك القادة، إذ بلغ به الأمر أن أغار على مكّة نفسها محتجزًا الحجر الأسود عدّة سنوات. وفي سنة ٣١٢ هـ/ ٩٢٤م، راح أبو طاهر وأتباعه يتعرّضون لقوافل الحجّاج على طريق مكّة، وعندما فرّ الحجّاج إلى الكوفة تاركين جِمالهم في السنة التالية، تبعهم الجنابيّ وجماعته، ولمّا حاول جند الخليفة إيقافهم، هزمهم القرامطة رغم أنّ عديد الفرقة العبّاسيّة كان بحدود السبعة آلاف جنديّ، حتّى إنّ القرامطة تمكّنوا من أسر أحد كبار قادة الجيش، الذّي لجأ مَن نجا من أفراده إلى الفرار. ودخل القرامطة إذّاك الكوفة واستولوا على ما فيها من

---

١ ـ راجع: العيّاش، مرجع سابق، ص٧٦ بالإستناد إلى: دائرة المعارف الإسلاميّة، مادة "جنابي"؛ إبن الأثير الكامل، مرجع سابق، ٨: ٨٣ ـ ٨٤.

٢ ـ إبن سنان، مقالات في أخبار القرامطة، تحقيق سهيل زكار (بيروت، ١٩٧١) ص٣٦ ـ ٣٧ بالإستناد إلى سامي العيّاش، ص٢٢٢.

خيرات. وأقام أبو طاهر فيها ستّة أيّام، وقد امتنع بعد خروجه منها أهل العراق عن الحجّ تلك السنة خوفا من القرامطة[1]. وفي سنة ٣١١ هـ / ٩٢٣م، كان القرامطة قد أقدموا على مهاجمة البصرة بالطريقة نفسها، وقد فعلوا فيها ما فعلوه بالكوفة[2]. وبعد أربع سنوات (٣١٥ هـ/ ٩٢٧م) ألقى القرامطة الرعب مرّة جديدة بقلوب العراقيّين، إذ هاجموا بعض المدن العراقيّة بحوالى ألفَي مقاتل، فقهروا جيش الخلافة الذي قاتلهم بأكثر من ثمانين ألف جنديّ، وغزوا الكوفة، والأنبار، إلاّ أنّهم فشلوا في غزو بغداد. وفي السنة التالية (٣١٦ هـ / ٩٢٨م،) غزوا الدالية، والرحبة، والموصل، وقرقيسية، إضافة إلى أعراب الجزيرة، والرقّة، والربض، ورأس العين، وكفرتوثا، وسنجار، وأحلّوا الدمار والموت والنهب والسبي حيثما حلّوا[3].

تبقى كلّ هذه الغزوات أقلّ فظاعة ممّا أقدم القرامطة على فعله بمكّة في هذه الحقبة المظلمة من التاريخ الإسلاميّ.

لمّا وصل الحُجّاج إلى مكّة سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩م قادمين من بغداد، لم تكتمل فرحتهم بالوصول سالمين من مخاطر الطريق، حيث أصبح غزو القرامطة أمرًا شبه مستمرّ، إذ ما أن حلّوا بالمدينة المقدّسة، حتّى أرعبهم وفود القائد القرمطيّ أبو طاهر يوم التروية، بدخوله المدينة مع جماعته.

لم يضيّع القرامطة الوقت، إذ منذ لحظة وصولهم إلى مكّة، راحوا ينهبون الحجّاج أموالهم، ويقتلون مَن يطاله سيفهم، سواء كان الضحايا في الطريق أو في المسجد

---

١ ـ العياش، مرجع سابق، ص ٦٠، ٦٤؛ ابن سنان، مرجع سابق، ص٣٨؛ المقفّى، ص ١٠١؛ ابن خلدون، ٣: ١٣٧٧؛ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٨: ١٥٥.

٢ ـ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٨: ١٤٣.

٣ ـ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٨: ١٧١ ـ ١٧٣، ١٨١ ـ ١٨٢.

الحرام أو في البيت. وقلع القرامطة الحجر الأسود من مكانه، ونقلوه إلى هجر (البحرين)، وقلعوا باب البيت وأخذوه، وقتلوا كلّ مَن حاول الوقوف بوجههم ورموا الجثث في بئر زمزم، ولمّا لم يعد من مكان في البئر، ملأوا المسجد جثثًا لا مصلّى عليها ولا مغسولة. ثمّ تفرّغوا لكسوة البيت فنهبوها واقتسموها. وانتقلوا إلى بيوت أهل مكّة، فنظّفوها من كلّ ذي قيمة[1].

ولم يَعُد الحجر الأسود إلى مكانه إلاّ بعد مرور ٢٣ سنة، إثر تدخّل الداعية الفاطميّ أبي محمّد عبيد الله العلويّ المهديّ، الذي كتب إلى أبي طاهر القرمطيّ لائمًا بكلام قاسٍ، وآمرًا بإعادة الحجر المقدّس إلى مكانه[2].

وقد يكون من اللاّزم في هذا المجال، ذكر بعض ما جاء في كتاب المهديّ أبي عُبيد الله العلويّ الفاطميّ إلى أبي طاهر، ومنه:

> قد حقّقت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر بما فعلت... سجّلت علينا في التاريخ نقطة سوداء لا تمحوها الليالي والأيّام، وإن لم تردّ على أهل مكّة وعلى الحُجّاج وغيرهم ما أخذت منهم، وتردّ الحجر الأسود إلى مكانه، وتردّ كسوة الكعبة، فأنا بريء منك في الدنيا وفي الآخرة[3].

يرى بعض الباحثين أنّه كان هنالك تعاون تكتيكيّ بين القرامطة من جهة، ودعاة الدولة الفاطميّة من جهة أخرى، ممّا جعلهم يربطون بين أسباب غزو مكّة والاستيلاء على ما فيها من قِبَل القرمطة، وبين قيام الدولة الفاطميّة، من منطلق أنّ أحد أهداف القرامطة من غزو مكّة كان إشغال الخليفة وجيشه عن أحداث أفريقيّة حيث كان قد بدأ

---

١ - إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٨: ٢٠٧ - ٢٠٨.

٢ - القرطبي غريب بن سعيد، صلة تاريخ الطبري، ص ٧١؛ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٨: ٢٠٧ - ٢٠٨.

٣ - ابن خلدون، ٣: ٣٧٩؛ ابن سنان، ص ٥٤ - ٥٥؛ قابل: إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٨: ٢٠٨.

تأسيس دولة الإسماعيليّين الفاطميّين، وإن كان هؤلاء الباحثون يعدّدون لذلك أسبابًا أخرى، منها الانتقام لمقتل زكرويَه، ومنها الحطّ من قدر الخليفة العبّاسيّ وهيبته في عيون المسلمين[1].

قد يكون في ما جاء في الرسالة الجوابيّة التي بعثها القائد القرمطيّ أبو طاهر إلى الخليفة العبّاسيّ، إثر كتابة هذا الأخير له متوعّدًا بعد دخول القرامطة مكّة واقتلاعهم الحجر الأسود، أفضل توضيح لحقيقة دوافع القرامطة لأعمالهم العنفيّة تلك. ويتّضح من تلك الرسالة الجوابيّة، أنّ القرامطة كانوا مؤمنين بصحّة أعمالهم على عنفها ودمويّتها، وكانوا يرون أنّ الكفَرة إنّما هم أهل الخلافة وأتباعهم الذين، برأيهم، ابتعدوا عن صوابيّة الإسلام.

لقّب أبو طاهر نفسه في تلك الرسالة بـ "الداعي إلى تقوى الله القائم بأمر الله الآخذ برسول الله ﷺ"؛ ولقّب الخليفة بـ"قائد الأرجاس، المسمّى بولد العبّاس". واتّهم أبو طاهر الخليفة بأنّه يتّبع الأباطيل ويصغي "إلى فحش الأقاويل من الذين يصدّون عن السبيل، فبشّرهم بعذاب أليم، على حين زوال دولتك... وتمكّن أولياء الله من رقبتك وهجومهم على معاقل أوطانك، إلاّ أنّ حزب الله هم المفلحون... وقد خرج عليك الإمام كالأسد ليُبطل الباطل ولو كره المجرمون". ويردّ أبو طاهر إلى الخليفة جميع التُّهم التي وجّهها العبّاسيّ إليه وجماعته: "والله لتسألنّ عمّا كنتم تعملون، فأمّا ما ذكرت من قبل الحجيج، وإخراب الأمصار، وإحراق المساجد، فوالله ما فعلت ذلك إلاّ بعد وضوح الحجّة كإيضاح الشمس، وادّعى طوائف منهم أنّهم أبرار، ومعاينتي منهم أخلاق الفجّار، فحكمت عليهم حكم الله، ومَن لم يحكم بما أنزل فأولئك هم الكافرون...

---

١ ـ بندلي جوزي، من تاريخ الحركات الفكريّة في الإسلام (بيروت لا.ت) ص١٧٢ ـ ١٧٣.

خبّرني أيّها المحتجّ لهم والمناظر عنهم في أيّة آية من كتاب الله، أو أيّ خبر من رسول الله ﷺ، إباحة شرب الخمور، وضرب الطنبور، وعزف القيان، ومعانقة الغلمان؟ وقد جمعوا الأموال من ظهور الأيتام، واحتووها من وجوه الحرام؛ وأمّا ما ذكرتَ من إحراق مساجد الأبرار، فأيّ مساجد أحقّ بالخراب من مساجد إذا توسّطتَها سمعتَ فيها الكذب على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ، بأسانيد من مشايخ فجَرة بما أجمعوا عليه من الضلالة وابتعدوا من الجهالة"؟ وبعد أن يتّهم أبو طاهر القرمطيّ الخليفة العبّاسيّ بإسراف الأموال على الملذّات، وحجبها عن مستحقّيها، يقول: "يدْعو على المنابر للصبيان ويخطب للخصيان. الله أذن لكم أم على الله تفترون"؟ ويبلغ هجوم الرسالة ذروته عندما يوجّه القرمطيّ للعبّاسيّ أعنف ما قد يكون قرأه الخليفة من سباب، إذ يقرأ: "لأنت أمير الفاسقين أولى بك من أمير المؤمنين". وبعد أن يذكّره بواقع ضعفه وبسيطرة خدمه عليه، ينهي رسالته مُبديًا استغرابه من تجرّؤ خليفة المسلمين على الوعيد والتّهديد وهو على تلك الحال. مُعربًا، في الوقت نفسه، عن ثقته بقوّته وهو يخاطب الخليفة: "أعزم على ما أنت عليه عازم، وأقدم على ما أنت عليه قادم، والله من ورائي ظهير وهو نعم المولى ونعم النصير"[1].

واضح أنّ منطلقات القرامطة، بنظر هذا القائد، كانت دينيّة ـ اجتماعيّة ثوريّة. وفي شِعرٍ منسوب إلى أبي طاهر نفسه، يقول إنّه "سيملك الأرض مشرقًا ومغربا"[2]. ومن شأن هذا الكلام أن يزيد في توضيح أهداف القرامطة ودوافع عنفهم، وفي تفسير الغاية من الهجومات التي شنّوها على الخلافة في عاصمتها بالذات. وقد تمكّن

---

١ ـ اليماني أبو منصور، كشف أسرار الباطنيّة وأخبار القرامطة، ص٣٤ ـ ٣٥؛ راجع، العيّاش، مرجع سابق، ص٢٢٥ ـ ٢٢٦.

٢ ـ الديلمي، بيان مذهب الباطنيّة وبطلانه (استانبول،١٩٣٨) ص٨٨.

القرامطة فعلاً من تعميم البلبلة على مختلف نواحي الأمبراطوريّة العبّاسيّة. وقبل حلول العام ٣١٧ هـ / ٩٢٣م، كانوا قد تمكّنوا، بقيادة قائد دولتهم البحرينيّة، أبي طاهر بن أبي سعيد الجنابيّ، من السيطرة على معظم أراضي الخلافة في العراق والجزيرة، وبذلك راح الفقراء والصّعاليك والمحرومون يدخلون في الحركة القرمطيّة بإقبال، واستمرّت الحروب بينهم وبين جنود الخلافة التي كانت قد أصبحت منهمكة بمسألة محاولات إنشاء الحكم الفاطميّ في أفريقيا. ولمّا كان القرامطة في بعض الأحيان يُصابون بهزيمة أو أكثر، ما كانوا يتخاذلون أمام أيّة نكسة، بل كانوا يسيطرون على الوضع بسرعة في العديد من مناطق الخلافة، مصرّين على تحقيق أهدافهم حتّى النهاية. وقد كثرت أعمال ضرب الحجّاج، خاصة سنة ٣٢٣ هـ / ٩٣٤م، عندما اعترضهم أبو طاهر بالقادسيّة. كما قام بغزو الكوفة، وعلى غرار ما فعله في السابق، أقام فيها أيّامًا ثمّ رحل عنها[1]. وبعد سنتَين، أعاد العمليّة نفسها على الكوفة، بعد أن فرض على أهل بغداد وخراسان والشام ومصر الأموال الباهظة.

إنّ ما يدعو للدهشة، وللعبرة، هو أنّ رجلاً من القرامطة، قد تمكّن بالأساليب نفسها التي وضعها القرامطة لبثّ دعوتهم وفرض سيطرتهم، من أنّ يشقّ الجماعة على مختلف مستوياتها، ومن أن يُنزل الخلل في أمورها، ومن أن يضعها على شفير الهاوية، بعد أن قتل بعضهم بعضًا إثر فساد الحال في ما بينهم. ذلك الرجل، إسمه ابن سنبر، كان من خاصّة أبي سعيد والد أبي طاهر، وكان مُطّلعًا على أسرار أبي سعيد.

قصد ابن سنبر رجلاً من أصبهان، وأطلعه على أسرار أبي سعيد، ومنها علامات كان يذكر أنّها في صاحبهم، "المهديّ الذي يدعون إليه". وبناءً على توجيهات ابن

---

١ ـ ابن سنان، مرجع سابق، ص٥٥؛ ابن الأثير الكامل، مرجع سابق، ٨: ٣١١.

سنبر، حضر الأصبهانيّ إلى طاهر وإخوته، مظهرًا علامات المهديّ الذي تحدّث عنها أبو سعيد، وسرعان ما آمن به أبو طاهر وإخوته، فأطاعوه "حتّى كان يأمر الرجل بقتل أخيه فيقتله، وكان إذا كره رجلاً... يأمر بقتله. وبلغ أبا طاهر أنّ الأصبهانيّ يريد قتله لينفرّد بالملك، فقال لإخوته: لقد أخطأنا في هذا الرجل، وسأكشف حاله. ثمّ دعا أبناء أبي سعيد، الأصبهانيّ، وقالوا له: إنّ لنا مريضًا، فانظر إليه ليبرأ؛ وكانوا قد أحضروا والدتهم وغطّوها بإزار على أنّها ذلك الرجل. فلمّا رآها الأصبهانيّ، قال: ـ إنّ هذا المريض لا يبرأ، فاقتلوه! ـ فقالوا له: ـ كذبت هذه والدتنا ـ ثمّ قتلوه بعد أن قُتل منهم خلق كثير من عظمائهم وشجعانهم. وكان هذا سبب تمسّكهم (منذ ذلك الحين) بهجر (الآحساء) وترك قصد البلاد والإفساد فيها"[1].

بعد هذه النكبة على القرامطة، أتى موت أبي طاهر سنة ٣٣٢ هـ / ٩٤٣م ليزيدهم ضعفًا، ذلك أنّ أخوَيه: أبا القاسم سعيدًا، وأبا العبّاس الفضل، لم يكونا بقدرته، وإن كانا يتّفقان معه على الرأي والتدبير. أمّا الأخ الثالث، فكان بعيدًا عن كلّ هذه الأمور، منصرفًا إلى اللهو والشرب. وقد قام الأخوان بإدارة أمور القرامطة، فأبديا انصياعًا للفاطميّين، وكان أوّل ما فعلاه لإرضائهم نقل الحجر الأسود إلى مكّة سنة ٣٣٩ هـ / ٩٥٠م[2].

دام الانحسار القرمطيّ زمن قيادة الأخوَين ابنَي أبي طاهر حتّى سنة ٣٥٧ هـ / ٩٦٧م، إذ تحرّك حفيد أبي طاهر الجنابيّ: الحسن بن أبي العبّاس، الذي عُرف بعدّة أسماء، منها: الحسين بن بهرام، والحسن الأعصم، والحسين بن أحمد بن بهرام

---

١ ـ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٨: ٣٥١ ـ ٣٥٢.

٢ ـ المقفّى، مرجع سابق، ص ١٠٣ ـ ١٠٤؛ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٨. ٤١٥ ـ ٤١٦.

القرمطيّ، الذي خرج عن طاعة الفاطميّين، فأغار على دمشق وسيطر عليها وولاّها لأحد مؤيّديه، وسيطر على قسم كبير من الجزيرة، حتّى خطب للقرامطة في مكّة نفسها. واحتلّ القرامطة في تلك الحقبة المناطق المجاورة لدمشق، ثمّ توجّهوا إلى مصر، حيث واجههم الفاطميّون والإخشيديّون وجماعة كبيرة من العرب. رغم ذلك تمكّنوا من النزول في عين شمس حيث دارت اشتباكات بينهم وبين المقاومين، وخاصة جيش جوهر الصقلّي قائد المعزّ الفاطميّ، فحاصروا جيش جوهر حصارًا شديدًا، بيدَ أنّ القائد الفاطميّ استطاع فكّ الحصار مُجبرًا القرامطة على الرحيل إلى الشام، فنزلوا الرملة وحاصروا يافا وتمكّنوا من القضاء على القوّة الفاطميّة التي طاردتهم وحاولت مُساعدة المحاصرين بيافا.

ويبدو أنّ القرامطة قد تحالفوا في ما بعد مع البويَهيّين ضدَّ الفاطميّين في حروب دارت حول دمشق سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٥م، شنّ بعدها القرامطة هجومًا على مصر أيّام الخليفة الفاطميّ الرابع: المعزّ لدين الله (٣٤١ ـ ٣٦٥ هـ / ٩٥٣ ـ ٩٧٥م) الذي حاول أن يتّقي شرّهم من خلال كتاب أرسله إلى الحسن بن أحمد ذكر له فيه فضل الفاطميّين عليهم، وأنّ الدعوة واحدة، وأنّ القرامطة إنّما كانت دعوتهم إليه، وإلى آبائه من قبْله... كما ضمّن الكتاب مبالغة في الوعظ، وإشارة إلى التهديد. ولكنّ كل ذلك لم يُفد، إذ كان جواب القرمطيّ: "وصل كتابك الذي قلّ تحصيله وكَثُر تفضيله، ونحن سائرون إليك على أثره، والسلام". وسار القرمطيّ حتّى وصل مصر، "فنزل عين شمس بعسكره، وأنشب القتال، وبثّ السرايا في البلاد ينهبونها، فكثرت جموعه، وأتاه من العرب خلق كثير"...

وإذ برز الخطر القرمطيّ واضحًا على الفاطميّين، عرف الخليفة الفاطميّ كيف يوقع بين القرامطة وحلفائهم. وبعد أشهر قليلة أنزل الجيش الفاطميّ أشدّ الهزائم في

القرامطة بأرض الشام. وبعد أن سقط منهم ألوف القتلى، انهزموا إلى الآحساء[1]. وبذلك انتقلت السيطرة على دمشق إلى الفاطميّين، وبدأ نجم القرامطة بالأفول، وانتقلت أخبارهم إلى حواشي الكتب. ومن تلك الأخبار أنّهم غزوا بغداد سنة ٣٧٤ هـ / ٩٩٤م طامعين بموت عضد الدولة، "فصولحوا على مال أخذوه وعادوا". وكان القرامطة قد أولوا قيادتهم في البحرين إلى هيئة من ستّة أفراد، يؤلّفون شبه مجلس حاكم، وأطلقوا عليهم لقب السادة. وقد قصد اثنان من هؤلاء السادة الكوفة في السنة نفسها، وهما إسحاق وجعفر البحريّان، وملكاها، ما أدّى إلى الاقتتال بينهما وبين البويهيّين، وإلى انهزام القرامطة إلى القادسيّة بعد سقوط عدد كبير منهم، ومنذ ذلك الحين، "غاب ناموس" القرامطة عن العراق[2].

وفي نهاية سنة ٣٧٨ هـ / ٩٨٨م، ظهر رجل يُعرف بالأصفر، وهو من بني المنتفق[3]، وجمع الرجال حواليه للانتقام من القرامطة. وإذ تمكّن الأصفر من قهر القرامطة، تتبّعهم إلى قاعدة حكمهم في الآحساء، حيث تحصّن منه القرامطة، فعدل إلى القطيف[4]، وأخذ ما كان فيها من عبيدهم وأموالهم ومواشيهم وسار بها إلى البصرة[5]. ومنذ ذلك التاريخ، لم يعد يرد ذكرٌ للقرامطة.

---

١ - ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٨: ٦٣٨ - ٦٣٩؛ راجع: العيّاش، مرجع سابق، ص٢٢٧ - ٢٣٠؛ ابن سنان، مرجع سابق، ص٥٧ وما يليها؛ المقفى، مرجع سابق، ص٩٥ - ١٠٤.

٢ - ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٨: ٦٨٨، ٩: ٣٧، ٤٢ - ٤٣.

٣ - **المنتفق:** فرع من قبيلة بني عقيل المتفرّعة من عامر من صعصعة، موطنهم جنوب غربي اليمامة في جزيرة العرب، أقاموا أيّام الفتح بين الكوفة والبصرة، والمنتفق اليوم عشائر عراقيّة تسكن الناصريّة على الفرات الأسفل، وهي مركز قضاء الناصريّة.

٤ - **القطيف:** مدينة في منطقة الأحساء.

٥ - ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٩: ٥٨ - ٥٩.

بالإمكان اعتبار أنّ القرامطة قد انقرضوا تمامًا من الوجود كقرامطة، وإن كان بعض مفاهيمهم ومبادئهم قد انتقل إلى فرق أخرى. وجلّ ما يمكن اعتباره بالنسبة إلى هذه الحركة التي دامت أكثر من مائة عام، أنّها كانت حركة اجتماعيّة اشتراكيّة شعوبيّة أكثر منها حركة دينيّة. وكانت هذه الحركة، مثلها مثل أكثر الحركات في الإسلام، ذات جذور شيعيّة متطرّفة. وقد نسب بعض المؤرّخين الكثير من الاتّهامات الخلقيّة إلى القرامطة، ليس أقلّها إباحة نسائهم لبعضهم البعض من ضمن اشتراكيّتهم، وخروجهم عن الإيمان بالآخرة، إلاّ أنّ هذه الاتّهامات تفتقر إلى السند الموثوق. ولكنّ الثابت أنّ القرامطة قد مارسوا نظامًا اشتراكيًّا متقدّمًا جدًّا نسبة إلى تاريخ وجودهم. وقد وصف المقريزيّ[1] بعض تفاصيل هذا النظام، كما مارسها مؤسّس الدعوة: حمدان قرمط، فذكر أنّ قرمطًا بدأ بفرض ضريبة على أتباعه، سمّاها "الفطرة"، وكانت الفطرة درهمًا يؤخذ من كلّ عضو ينتسب إلى الدعوة، سواء كان رجلاً أم امرأة أم صبيًّا، وإذ لبّى الأتباع الأمر، فرض عليهم لاحقًا ما سُمّي بـ "الهجرة"، وهي دينار واحد يؤخذ من كلّ بالغ، وذلك بالإستناد إلى الآية ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّه سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2]. وفسّر لهم الآية بأنّها تعني الضريبة التي سمّاها الهجرة، فلبّوا الأمر متعاونين، وكانوا يسعفون مَن كان منهم فقيرًا ليتمكّن من دفع الفرض. ثمّ فرض عليهم "البلغة" وهي سبعة دنانير، وذلك بالاستناد إلى الآية: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[3]. وكان مَن يدفع سبعة دنانير عن البلغة يُطعمه شيئًا لذيذًا حلو الطعم بحجم البندقة ويقول: "هذا طعام أهل الجنّة". بعد ذلك فرض

---

١ ـ المقريزيّ، فضائح الباطنيّة، ص ١ ـ ٢؛ راجع: عيّاش، مرجع سابق، ص٢٣٦ ـ ٢٣٧.

٢ ـ التوبة: ١٠٣.

٣ ـ من الآية ١١١ من سورة البقرة.

عليهم "الخُمس" من كلّ ما يملكونه ويكسبونه تاليًا عليهم الآية: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾[1]. ولم يبخل الأتباع بتقديم الخُمس من كلّ ما يملكونه بما في ذلك الثياب، وصارت المرأة تؤدّي له خُمس ما يخرج من غزلها، والرجل يقدّم خُمس ما يكسبه؛ ثمّ فرض عليهم "الإلفة"، وهي أن يجمعوا أموالهم في مكان واحد، وأن يكونوا فيه أسرة واحدة لا يغفل أحد من أصحابه على صاحبه ولا أخيه في ملك يملكه بشيء البتّة، وقال لأتباعه: لا حاجة بكم إلى الأموال فإنّ الأرض بأسرها تكون لكم دون غيركم؛ وقال أيضًا: هذه محنتكم التي امتُحنتم بها ليعلم كيف تعملون. إضافة إلى هذا، ألزم حمدان أتباعه بشراء السلاح. وقد عمّمَ حمدان نظامه الاقتصاديّ ـ الاجتماعيّ ـ الاشتراكيّ هذا، إذ أقام في كلّ قرية رجلاً من الثقات تُجمع عنده الأموال والمتاع، وكان هذا الرجل يكسو عاريهم، وينفق عليهم ما يكفيهم حتّى لم يبقَ منهم فقير ولا محتاج.

حتّى إنّ إشتراكيّة القرامطة قد بلغت حدّ الشيوعيّة، إذ "أخذ كلّ رجل منهم بالاجتهاد في صنعته والكسب بجهده ليكون له الفضل برتبته، وجمعت إليه المرأة كسبها من مغزلها، وأدّى إليه الصبيّ أجرة نظارته وحراسته للطير ونحوه، ولم يبقَ في ملك أحد غير سيفه وسلاحه لا غير".

وقد اعتبر المقريزيّ، أنّ إشتراكيّة حمدان لم تقتصر على الأموال، بل تعدّتها إلى النساء، إذ يقول إنّ حمدانَ أمر الدعاة بجمع النساء في ليلة عيّنها لهم، ويقوم الرجال بمعاشرتهنّ قائلاً: "هذا من صحّة الودّ والإلف" وإنّ جماعته فعلوا ذلك[2].

---

١ ـ من الآية ٤١ من سورة الأنفال.

٢ ـ راجع: العيّاش، مرجع سابق، ص٢٣٧ ـ ٢٣٨.

وكما في الشيوعيّة، كذلك حرّر حمدان أتباعه من العديد من فرائض الدين، فأمر بالتخلّي عن الصوم والصلاة وجميع الفرائض، وقال لجماعته: "هذا كلّه موضوع عنكم، ودماء المخالفين وأموالهم حلال لكم، ومعرفة صاحب الحقّ تغنيكم عن كلّ شيء، ولا تخافون معه إثمًا ولا عذابًا"[1].

لقد عنى حمدان، على ما يبدو، بصاحب الحقّ، الإمام محمّد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وقال: "بهذا الإمام نسقت هذه الأمور ولولاه لهلك الخلق وعدم الهدى والعلم". حتّى إنّ بعض المؤرّخين نسب إلى القرامطة رسالة زعموا أنّها موجّهة من المهديّ إلى سليمان بن الحسن القرمطيّ، جاء فيها قول المهديّ إنّ "التحريمات مردّها إلى أنّ النبيّ حرّم الطيبات وخوّف الناس بغائب لا يعقل وهو ـ الإله المزعوم ـ فاستعبدهم النبيّ بذلك، وجعلهم له في حياته ولذريّته بعد وفاته، واستباح بذلك أموالهم". وتساءل المهديّ في هذه الرسالة: "هل الجنّة إلاّ هذه الدنيا ونعيمها؟ وهل النار وعذابها إلاّ ما فيه أصحاب الشرائع من التّعب والنصب في الصلاة والصوم والجهاد والحجّ"؟ ويقول المهديّ في رسالته المزعومة إلى سليمان القرمطيّ: "أنت وإخوانك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس، وفي هذه الدنيا، وأنتم نعيمها ولذّاتها المحرّمة على الجاهلين المتمسّكين بشرائع أصحاب النواميس، فهنيئًا لكم ما نلتم من الراحة عن أمرهم"[2].

على أيّ حال، فإنّ القرمطيّة أصبحت من التاريخ، ولا علاقة للفرق الشيعيّة المعاصرة بها.

---

١ ـ البغدادي، الفرق، ص٢٩٧ ـ ٢٩٨؛ راجع: العيّاش، ص٢٣٩ ـ ٢٤٠؛ للإطّلاع على المزيد، راجع: الديلمي، بيان مذهب الباطنيّة وبطلانه (استانبول،١٩٣٨)

٢ ـ أبو الحسن الملطي، التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع (مصر،١٩٤٩)؛ أبو منصور اليماني، كشف أسرار الباطنيّة وأخبار القرامطة.

الكَشفيَّة

راجع: الشيخيّة

الكِيسَانيَّة وفرَقُها

البعض يعتبر أنّ نسبة الكيسانيّة تعود إلى كيسان مولّى محمّد بن الحنفيّة. وقيل بل المختار[1] كان لقبه كيسان. وقيل أيضًا إنّما سمُّوا بذلك لأنَ رئيس شرطة المختار كان اسمه كيسان، وكان يُعرف أيضًا بأبي عمرة، وكان جبّارًا مغرمًا بتخريب الدور يهدم الدار بلحظة[2]. وقد اعتبر بعضهم أنّ أبا عمرة، ما هو سوى المختار الملقّب بكيسان[3]. وفي بعض المراجع يقال للكيسانيّة: المختاريّة أيضًا، نسبة إلى المختار.

غير أنّ المدقّق في المدوّنات الكلاسيكيّة، لا يستطيع أن يعتبر المختار مؤسّس الكيسانيّة، ولا أنّه مدَّعي النبوّة، وإن كان المختار قد قام ببعض المناورات التي من شأنها أن تشدّ الكيسانيّين إليه، خاصّة وأنّ هؤلاء كانوا فعلاً من الغلاة الذين تأثّروا كثيرًا بمقولات السبئيّة التي كانت بدورها، متأثّرة بالمفاهيم اليهوديّة. من تلك

---

١ ـ هو: المختار بن أبي عبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير بن عون بن عفرة بن عوف بن ثقيف ـ راجع: إبن كثير، البداية والنهاية، ٨: ٢٨٩.

٢ ـ طعيمة، الشيعة معتقدًا ومذهبًا، مرجع سابق، ص١٥٧.

٣ ـ راجع: المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، طبعة B. DE MEYNARD ET P. DE COURTEILLE تنقيح وتصحيح CHARLES PELLAT (بيروت، ١٩٦٦) الفقرة ١٩٤٥: ٥ ـ ١٨٠ و١٨١.

المناورات أنّ المختار كان يحتفظ بكرسيّ، جلبه من بيت أخت عليّ بن أبي طالب عليه السلام: أمّ جعدة، وقال إنّه كرسيّ عليّ عليه السلام. وعندما حصل المختار على هذا الكرسيّ، "دعا للصلاة جامعة، فاجتمع الناس، فقال المختار:

> إنّه لم يكن في الأمم الخالية أمر إلاّ وهو كائن في هذه الأمّة مثله، وإنّه كان في بني إسرائيل التابوت، وإنّ هذا (الكرسيّ) فينا مثل التابوت.

فكشفوا عنه، وقامت السبئيّة فكبّروا"[1].

وخلاصةً، يبدو راجحًا أنّ المختار، قد استمال إليه، بشتّى الوسائل، جميع الفرق الشيعيّة التي كانت قائمة في ذلك الوقت، بما فيها السبئيّة والكيسانيّة، إلاّ أنّ تقرّبه من محمّد ابن الحنفيّة، جعله، برأي البعض، كيسانيًّا، وأحيانًا مؤسّسًا للكيسانيّة، ولكنّ هذا الاعتبار يفتقر إلى الدليل الصحيح.

بداية، للتعريف بمنشأ الكيسانيّة، لا بدّ من العودة إلى المنطلق. فعندما توفّي أمير المؤمنين، الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، انتقلت إمامة الشيعة إلى ابنه الأوّل: الحسن، (٤٠ هـ / ٦٦١م). ثمّ انتقلت، بعد موت الحسن (٥٠ هـ / ٦٧٠م) إلى ابن عليّ الثاني: الحسين. وفيما اعتبر بعض المؤرّخين، أنّه لم يكن من خلاف على إمامة الحسن، فالحسين، بعد عليّ عليه السلام، إعتبر بعضهم الآخر أنّ فرقة منهم زعمت أنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام نصّ على إمامة ابنه محمّد ابن الحنفيّة "لأنّه دفع إليه الراية بالبصرة"[2]. وقد عُرفت هذه الفرقة بالكيسانيّة نسبة إلى كيسان مولى الإمام عليّ[3] عليه السلام.

---

١ ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مرجع سابق، ٤: ٢٥٨.

٢ ـ راجع: طعيمة، مرجع سابق، ص١٥٩.

٣ ـ الشهرستاني، الملل والنحل، ١: ١٤٧؛ النوبختي، فرق الشيعة، نشر ريتر (استنبول،١٩٣١) ص ٤٤.

وإذا كان هذا الرأي يفتقر إلى الإثبات التاريخيّ، فمن الثابت أنّه بعد مقتل الحسين، مال فريق من الشيعة إلى اعتبار أنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام، نصّ على إمامة ابنه الحسن، وأن الحسين بن عليّ نصّ على إمامة أخيه محمّد ابن الحنفيّة[1].

على أيّ حال، فإنّ الجامع المشترك بين فرق الكيسانيّة، والتي يصل عددها إلى اثنتَي عشرة فرقة، هو القول بإمامة محمّد ابن الحنفيّة. إنّما الغريب في هذا الأمر، أنّه لا يوجد في المدوّنات ما من شأنه أن يفيد عن موقف محمّد ابن الحنفيّة من هذا الاعتبار. كما أنّه ليس هنالك ما يدّل على أيّ مدرسة له، أو أيّ تعاليم وضعها، إنّما يقتصر وضع التعاليم والمعتقدات عند الفرق الكيسانيَّة على مؤسّسي تلك الفرق، من دون أن يكون لابن الحنفيّة كلام واضح في الموضوع.

يرد ذكر محمّد ابن الحنفيّة، في التواريخ، عند وفاة عليّ عليه السلام، إذ أوصاه "بما أوصى به أخوَيه: الحسن والحسين، وبتوقيرهما وتزيين أمرهما وبألاّ يقطعنّ أمرًا دونهما، وأوصى الحسن والحسين به، "فإنّه صغيركما وابن أبيكما فأكرماه واعرفا حقّه"[2].

وعندما سار الحسين من المدينة إلى مكّة ومعه بنوه وإخوته وبنو أخيه وجلّ أهل بيته، بسبب محاولة يزيد أخذ المبايعة منه عنوة، لم يبقَ في المدينة من أبناء عليّ سوى محمّد ابن الحنفيّة، الذي نصح أخاه الحسين بقوله:

> يا أخي، أنت أحبّ الناس إليّ وأعزّهم عَليّ ولستُ أدّخر النصيحة لأحد من الخلف أحقّ بها منك، تنحّ ببيعتك عن يزيد وعن الأمصار ما استطعت وابعث رسلك إلى

---

١ ـ راجع: طعيمة، مرجع سابق، ص١٥٩.

٢ ـ المسعودي مروج الذهب، مرجع سابق، الفقرة ١٧٣٤: ٤ ـ ١٤٣٢ انظر: شرح نهج البلاغة، ٤: ١٥٤٥ راجع: الجزء التاسع عشر من هذه الموسوعة.

الناس وادعهم إلى نفسك فإن بايعوا لك حمدت الله على ذلك، وإن أجمع الناس على غيرك لم يُنقص الله بذلك دينك ولا عقلك، ولا تذهب به مروءتك ولا فضلك، إنّي أخاف أن تأتي مصرًا وجماعة من الناس فيختلفوا عليك، فمنهم طائفة معك وأخرى عليك، فيقتتلون فتكون لأوّل الأسنّة، فإذا خير هذه الأمّة كلّها نفسًا وأبًا وأمًّا أضيعها دمًا وأذلّها أهلاً.

بعد هذا الكلام لابن الحنفيّة، النامّ عن كرهه للقتال ولهدر الدماء، وعن زهده بالمناصب، وعن حبّه وإخلاصه لأخيه، قال الحسن: "فأين أذهب يا أخي؟" قال:

إنزل مكّة فإن اطمأنّت بك الدار فبسبيل ذلك. وإن نأت بك لحقتَ بالرّمال وشَعَف الجبال وخرجتَ من بلد إلى بلد حتّى تنظر إلى ما يصير أمر الناس ويفرّق لك الرأي، فإنّك أصوب ما يكون رأيًا وأحزمه عملاً حين تستقبل الأمور استقبالاً، ولا تكون الأمور عليك أبدًا أشكل منها حين تستدبرها[1].

ببقاء ابن الحنفيّة في المدينة، نجا من كربلاء. ولكنّه سوف يجد نفسه، بعد وقت قصير، في وضع أخيه الحسين مع يزيد، على أنّ مشكلة محمّد، كانت مع ابن الزبَير، الذي كان قد انتقل، قبل الحسين بليلة واحدة، من المدينة إلى مكّة، للأسباب نفسها التي حتّمت الانتقال على الحسين.

فبعد مقتل الحسين، وظهور المختار بن عبيد، الذي استولى على الكوفة، وتمرّده على ابن الزبَير، كتب المختار إلى عليّ بن الحسين عارضًا عليه "أن يبايع له ويقول بإمامته ويُظهر دعوته"، ذلك أنّ الشيعة، بعد مقتل الحسين، كانت لا تزال بلا إمام. غير أنّ عليًّا لم يكتفِ برفض عرض المختار، بل سارع إلى سبّه على رؤوس الملأ في مسجد النبيّ ﷺ، وأظهر كذبه،... ودخوله على الناس بإظهار الميل إلى آل أبي

---

١ - ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٤ : ١٦ - ١٧.

طالب. فلمّا يئس المختار من عليّ، كتب إلى عمّه محمّد ابن الحنفيّة يعرض عليه ما عرض على ابن أخيه، فأشار عليّ بن الحسين على محمّد بأن يحذوَ حذوه، فقصد ابن الحنفيّة قريبه ابن عبّاس، وسأله رأيه، فأشار إليه ابن عبّاس بعدم الإقدام على ما أقدم عليه عليّ، وبالسكوت عن أمر المختار، "فإنّك لا تدري ما أنت عليه من ابن الزبير"[1]. وقد عمل محمّد ابن الحنفيّة بنصيحة ابن العبّاس، الذي كان مصيبًا في توقّعه.

ذلك أنّه لم يمضِ وقت طويل حتّى دعا ابن الزبَير محمّد ابن الحنفيّة، ومَن معه من أهل بيته وشيعته وسبعة عشر رجلاً من وجوه أهل الكوفة... ليبايعوه، فامتنعوا وقالوا: "لا نبايع حتّى تجتمع الأمّة"؛ فراح ابن الزبَير يسبّ ابن الحنفيّة ويذمّه. وإذ حاول أنصار محمّد مهاجمة ابن الزبَير "أمرهم بالصبر". إلاّ أنّ استيلاء الشيعة على الكوفة، وظهور دعاء أهلها لابن الحنفيّة، أخاف ابن الزبَير، فراح "يلحّ على ابن عليّ عليه السلام وعلى أصحابه في البيعة له، فحبسهم بزمزم، وتوّعدهم بالقتل والإحراق، وأعطى الله عهدًا إن لم يبايعوا أن ينفّذ فيهم ما توعّدهم به، وضرب لهم في ذلك أجلاً... فأشار بعض مَن كان مع ابن الحنفيّة عليه أن يبعث إلى المختار يعلمه بحالهم[2] فكتب إلى المختار طالبًا النجدة، وقد سارع المختار إلى نجدته.

غير أنّ تصفية المختار وجماعته بالكوفة، قد ضعضعت الأنصار الذين لازموا ابن الحنفيّة في مكّة لحمايته. وقد قويت شوكة ابن الزبَير بعد قتل المختار، فأرسل إلى ابن الحنفيّة هذه المرّة، يقول جازمًا: "أدخل في بيعتي وإلاّ نابذتك". أمام هذا الواقع، أذن ابن الحنفيّة لمَن أحبّ الانصراف عنه بأن ينصرف، بعد أن نبّههم إلى أنّ ابن الزبَير ينوي الشرّ. ولكنّهم رفضوا مفارقته.

---

١ ـ المسعودي مروج الذهب، مرجع سابق، الفقرتان ١٩٣٦ و١٩٣٧: ٥ ـ ١٧٢ و١٧٣.

٢ ـ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٤: ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

هنا، تختلف الروايات حول مصير ابن الحنفيّة. بعضها يقول بأنّه قد راسل الخليفة الأمويّ عبد الملك بن مروان بدمشق، كي ينزل عنده، وبعد موافقة الخليفة، خرج وأصحابه إلى الشام... ولكن قبل وصوله إليها، جاءَه رسول من الخليفة ينقل منه التالي: "إنّه لا يكون في سلطاني مَن لم يبايعني". فعاد محمّد ابن الحنفيّة باتّجاه مكّة، ونزل شِعَب أبي طالب، لكنّ ابن الزبَير بعث إليه يأمره بالانتقال إلى مكّة. وإذ استأذنه أصحابه، أمام هذا الضغط، في قتال ابن الزبَير، رفض ذلك قائلاً: "اللهمّ ألبِس ابن الزبَير لباس الذلّ والخوف وسلّط عليه وعلى أشياعه مَن يسومهم الذي يسوم الناس". ثمّ سار إلى الطائف، وبقي هناك حتّى إقدام الحجّاج على حصار ابن الزبَير، فعاد إلى الشِعب، وراسل الخليفة عبد الملك طالبًا منه الأمان، فكان له ذلك[١].

رواية أخرى تذكر أنّ ابن الزبَير قد أخرج محمّد ابن الحنفيّة إلى ناحية رضوى[٢]؛ وتقول ثالثة بأنّه قد "خرج إلى الطائف ومات بها"؛ ورابعة بأنّه مات ببلاد أيلة الواقعة في رأس خليج العقبة؛ وخامسة بأنّه في سنة ٨١ هـ / ٧٠٠ م. مات بالمدينة ودُفن بالبقيع وصلّى عليه أبان بن عثمان بإذن ابنه (ابن محمّد) أبي هاشم، وقبض وهو ابن خمس وستّين سنة وله من الولْد: الحسن وأبو هاشم وعبد الله وجعفر الأكبر وحمزة وعليّ لأمّ ولد؛ وجعفر الأصغر وعون أمّهما أمّ جعفر؛ والقاسم وإبراهيم لأمّ ثالثة[٣].

وفي الاعتبار الشيعيّ، لم يُعَدّ محمّد ابن الحنفيّة إمامًا، فبعد الأئمّة الثلاثة: عليّ عليه السلام، فالحسن، فالحسين، يُعتبر الإمام الرابع عند الشيعة، عليّ بن الحسين الملقّب

---

١ ـ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٤: ٢٥٢ ـ ٢٥٣.

٢ ـ راجع: اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٢٦٢.

٣ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، الفقرة ٢٠٣١: ٥ ـ ٢٦٧.

بزين العابدين. ولقد انحصر الاعتقاد بإمامة ابن الحنفيّة بالفرق الكيسانيّة المنقرضة التي يتبرّأ الشيعة منها، كما يتبرّؤون من السبئيّة، وإن كان المذهبان قد شايَعا في البداية عليّ بن أبي طالب ﷺ، إلاّ أنّ المناحي التي اتّبعها كلّ من المذهبَين، قد أخرجتهما عن الخطّ الشيعيّ الأساسيّ، واعتُبِرا، ليس فقط من الغلاة، بل من أصحاب البدع التي لا يقرّها الإسلام.

ومهما كان أمر "كيسان" الذي تنتسبُ إليه الكيسانيّة أصلاً، فإنّ الكيسانيّة بدأت في الأساس بقولها بإمامة محمّد ابن الحنفيّة. وما لبثت الكيسانيّة في ما بعد أن تفرّقت إلى فرق، بلغ عددها اثنتَي عشرة فرقة. وقد اجتمعت الكيسانيّة، بعد محمّد ابن الحنفيّة، على القول بإمامة ابن محمّد، أبي هاشم. إلاّ أنّهم اختلفوا بعد أبي هاشم في خمس فرق، منها فرقة قالت إنّ أبا هاشم أوصى بالإمامة إلى عبدالله بن عمرو بن صرب الكنديّ، وإنّ الإمامة خرجت من بني هاشم إلى عبدالله، إذ تحوّلت روح أبي هاشم إليه. ولكن، على ما يبدو، كان عبدالله يفتقر إلى العلم والى المزايا الدينيّة والاستقامة، فاطّلع بعض القوم على خيانته وكذبه، فأعرضوا عنه وقالوا بإمامة عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب. ثمّ لمّا هلك عبدالله (١٢٩ هـ / ٧٤٦م) افترق أتباعه، فمنهم مَن قال: إنّه حيّ، ومنهم مَن قال إنّه مات وتحوّلت روحه إلى إسحاق بن زيد بن الحارث الأنصاري، وقد عُرِف هؤلاء **بالحارثيّة**... وقد أباحوا المحرّمات وعاشوا عيشة مَن لا تكليف عليه[1].

وقد زعمت فرقة، بعد موت أبي هاشم، بأنّ هذا الأخير قد أوصى بالإمامة إلى محمّد بن عليّ بن عبدالله بن عبّاس، الذي أوصى بدوره إلى ابنه إبراهيم، وانتقلت في

---

١ ـ طعيمة، مرجع سابق، ص ١٥٧ ـ ١٥٨، بالاستناد إلى الشهرستاني.

ولْده إلى آخرهم. هذه الفرقة هي التي عُرفت **بالهاشميّة** بدولة بني العبّاس[1].

يتّضح من ذلك، أنّ الكيسانيّة قد خالفوا الشيعة في أصول الإمامة، لأنّهم أخرجوها من ابني عليّ بن أبي طالب ﵇ وزوجته فاطمة بنت الرسول، إلى بني العبّاس، وإلى ابن الكنديّ، وابن الحارث. ولم يقتصر خروج الكيسانيّة عن الأصول الشيعيّة على مسألة الإمامة، بل تعدّاها إلى صميم المعتقد والدين، فإنّ بعض هذه الفرق قد أباح المحرّمات، ومنها مَن قال بتناسخ الأرواح، وبغير ذلك ممّا لا علاقة للشيعة به من بدع.

أمّا الفرق التي ظهرت في الكيسانيّة، منذ بدايتها حتّى انقراضها، فأُولاها كانت تلك التي قالت بأنّ عليّ بن أبي طالب ﵇ نصّ على إمامة ابنه الحسن، وبأنّ الحسين بن عليّ نصّ على إمامة أخيه محمّد ابن الحنفيّة. ثمّ كانت تلك التي قالت بأنّ ابن الحنفيّة لم يمت، إنّما هو حيّ بجبل رضوى وعن يمينه أسد وعن يساره نمر يحفظانه، يأتيه رزقه غدوة وعشيّة إلى وقت خروجه، ويعتقدون بأنّ السبب الذي من أجله صبر على هذه الحالة هو أن يكون مغيّبًا عن الخلق. فإنّ لله تعالى فيه تدبيرًا لا يعلمه غيره. أصحاب هذا القول هم أتباع أبي كرب الضرير، الذي اتّبعت مذهبه في حوالى سنة ٨١ هـ / ٧٠٠م. هذه الفرقة التي تقول بأنّ "الإمام محمّد ابن الحنفيّة حيّ لم يمت، وهو المهديّ المنتظر" ونُسبت إلى أبي كرب، فعُرفت **بالكربيّة**. لكن عند "الكربيّة" تطوّر للعقائد المغالية، إضافة إلى التكرار للعقائد السبئيّة. فإنّ إنكار وفاة الإمام والقول بغيبته في جبل رضوى هو تقليد لقول السبئيّة بأنّ عليًّا ﵇ لم يمت، إنّما هو في السحاب. وكما قالت السبئيّة برجعة عليّ ﵇ لملء الأرض عدلاً كما مُلئت جورًا

---

١ ـ طعيمة، مرجع سابق، ص ١٥٨، بالاستناد إلى ابن خلدون.

وظلمًا، كذلك قالت الكربيّة بعودة محمّد ابن الحنفيّة "الذي يظهر بنفسه بعد الاستتار عن خلقه، ينزل إلى الدنيا ويكون أمير المؤمنين وهذه آخرتهم". هنا نلاحظ تطورًا واضحًا للعقائد المغالية عند السبئيّة، التي لم تربط عودة عليّ عليه السلام بالقيامة، مثلما فعلت الكربيّة بالنسبة لقولهم بعودة ابن الحنفيّة. فبينما اكتفى ابن سبأ بالقول "رجعة عليّ عليه السلام وهدمه دمشق حجرًا حجرًا ونزوله للانتقام من أعدائه وكشفه الأسرار لهم وتعريفه لهم أنّه ربّهم"... طوّرت الكربيّة هذا المفهوم، وقالت "بقيام القيامة على يد ابن الحنفيّة".

كان من جملة أتباع هذه الفرقة، شاعر أمويّ، اسمه كُثَيِّر عزّة[1]، (توفيّ سنة ١٠٥ هـ / ٧٢٣م) كان قد أقام في المدينة، وغالى في تشيّعه، وقال بالرجعة والتناسخ وبإمامة المهديّ محمّد ابن الحنفيّة. وقد رأى ابن كثيّر في الآية: ﴿فِي أيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾[2] حجّة على صحّة تناسخ الأرواح، كما ذكر أبو الفرج الأصفهاني.

ومن جملة مَن اتّبعوا "الكربيّة" الشاعر السيّد الحِميريّ[3]، الذي عُدّ من أشهر الكيسانيّين، والذي وُلد في السنة التي توفّي فيها كثيّر (١٥٠ هـ /٧٢٣م) ونشأ بالبصرة، وتوفّي سنة (١٧٣ هـ /٧٨٩م). وقد ذكر أبو الفرج الأصفهاني في ترجمته للسيّد الحِميَري كثيرًا من أشعاره التي توضّح جوانب من عقيدته الكيسانيّة، منها "سبّ الخلفاء الراشدين الثلاثة قبل عليّ عليه السلام، وادّعاء العلم الخاص لعليّ بن أبي طالب عليه السلام، والقول بالرجعة"[4]. ومن نوادر هذا الشاعر، أنّه جاءه رجل يقول له: "بلغني أنّك تقول

---

١ ـ راجع: المسعودي، الفقرة ١٩٤٦: ٥ ـ١٨١؛ أبو الفرج الاصفهاني، الأغاني (بيروت) ٩: ١٤.

٢ ـ الانفطار: ٨.

٣ ـ راجع: المسعودي، الفقرة ١٩٤٧: ٥ – ١٨٢.

٤ ـ راجع: أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ١٤: ٩.

بالرجعة". فقال: "صدق الذي أخبرك وهذا ديني". قال الرجل: "أفتُعطيني مهيارًا بمائة دينار إلى الرجعة؟" قال السيّد: "نعم وأكثر من ذلك إن وثقت لي بأنّك ترجع إنسانًا... أخشى أن ترجع كلبًا أو خنزيرًا"[1].

ومن الذين اشتهروا من فرقة الكربيّة الكيسانيّة، حمزة بن عمارة البربريّ، الذي اختلف الباحثون حول هويّته الحقيقيّة، والثابت أنّه كان من أهل المدينة، وكان يقول بمقالة الكربيّ، وقد فارقهم، فتبعه أُناس من أهل الكوفة منهم رجلان من نهد هما: صائد، وبيان. وكان معاصرًا لمحمّد بن عليّ بن الحسين الباقر الذي توفّي سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢م.، وقد لعن محمّد حمزه وتبرّأ منه. كما أنّ جعفرًا الصادق (٨٠ – ١٤٨ هـ / ٦٩٩ – ٧٦٥م) الإمام السادس للشيعة، قد لعنه لكذبه وعدّه من الذين تنزل عليهم الشياطين[2]. ذلك أنّ حمزه قد قال بأنّ "محمّد ابن الحنفيّة هو الله، وأمّا هو، فنبيّ، وإمام، ينزل عليه سبعة أسباب من السماء فيفتح بها الأرض ويملكها".

ثمّ تظهر في الكيسانيّة، الفرقة **الهاشميّة**، التي تنتسب إلى عبد الله بن محمّد ابن الحنفيّة المعروف بأبي هاشم، وقد قال بإمامته الذين اعترفوا بموت محمّد ابن الحنفيّة من الكيسانيّين، وقالوا بانتقال الأسرار إليه من أبيه "الذي أطلعه على مناهج تطبيق الآفاق على الأنفس وتقدير التنزيل على التأويل، وتصوير الظاهر على الباطن" فقالوا: إن "الكلّ ظاهر باطنًا، ولكل شخص روحًا، ولكلّ تنزيل تأويلاً، ولكلّ مثال في هذا العالم حقيقة في ذلك العالم. والمنتشر في الآفاق من الحكَم والأسرار يجتمع في الشخص الإنسانيّ. وكلّ مَن اجتمع فيه هذا العلم هو الإمام حقًّا". ونسبت الهاشميّة إلى

---

١ - راجع: طعيمة، مرجع سابق، ص١٧٣.

٢ - راجع: طعيمة، مرجع سابق، ص ١٧٤ – ١٧٦.

أبي هاشم معجزات، منها إحياء الموتى، ونسبوا إليه قوله: "إنّ الإمام يعلم كلّ شيء، ومَن لم يعرف إمامه لم يعرف الله".

وخلاصة المقولات الهاشميّة - الكيسانيّة: "إنّ الإمام هو مصدر العلم. وإنّ مَن لم يعرف إمامه لم يعرف الله".

بعد موت أبي هاشم (٩٩ هـ / ٧١٧م) تفرّقت الهاشميّة إلى عدّة فرق: فرقة قالت بأنّ الإمام بعد أبي هاشم، إنّما هو ابن اخيه الحسن بن محمّد ابن الحنفيّة، وإنّ أبا هاشم أوصى إليه، ثم أوصى الحسن إلى ابنه عليّ، الذي ليس له عقب، وقد انتظروا رجعة محمّد ابن الحنفيّة ويقولون: إنّه يرجع ويملك، بانتظار ذلك، هم في التّيه لا إمام لهم.

وفرقة قالت بأنّ الإمام بعد أبي هاشم، إنّما هو محمّد بن عليّ بن عبد الله ابن العبّاس. وهم اعتقدوا بأنّ أبا هاشم مات بأرض تقع بين دمشق والمدينة، اسمها الشراة[1]، وقد أوصى عند الموت بإمامة محمّد ابن عليّ بن عبد الله بن العبّاس، الذي أوصى إلى ابنه إبراهيم بن محمّد، وهذا الأخير أوصى إلى أبي العبّاس، وأخيرًا أفضت الإمامة إلى أبي جعفر المنصور[2] بنتيجة وصيّة بعضهم إلى بعض.

وهنالك فرقة رجعت عن القول بإمامة محمّد بن عليّ بن عبد الله بن العبّاس بعد موت أبي هاشم، وقالت بأنّ "النبيّ محمّد ﷺ نصّ على العبّاس بن عبد المطّلب ونصّبه إمامًا، ثمّ نصّ العبّاس على إمامة ابنه عبد الله، الذي نصّ على إمامة ابنه عليّ"، وساقوا الإمامة إلى أن انتهوا بها إلى أبي جعفر المنصور، وقد عُرف هؤلاء **بالراونديّة**.

---

١ - ياقوت، معجم البلدان، طبعة وستنفلد (ليبزك،١٨٦٧) ٥: ٢٤٧.

٢ - الخليفة العبّاسيّ الثاني (١٣٦ - ١٣٥٨هـ/٧٥٤ - ٧٧٥م)

وقد ظهرت فرقة أخرى تبعت رجلاً يُقال له "رزام"، قال بأنَّ أبا مسلم [1] قُتل.

بينما قالت جماعة منهم، صحبت رجلاً يُقال له أبو مسيلمة، بأنّ أبا مسلم حيّ لم يمت.

وفرقة تبعت رجلاً اسمه عبد الله بن عمرو بن حرب، قال بأنّ أبا هاشم بن محمّد ابن الحنفيّة، قد نصبّه إمامًا، وتحوّلت روح أبي هاشم فيه.

هذه الفرقة بعد أن اتَّبعت عبد الله بن حرب وعُرف أصحابها **بالحربيّة**، اكتشف أعضاؤها كذب عبد الله، فساروا إلى المدينة يلتمسون إمامًا، فلقوا عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، الذي دعاهم إلى أن يأتمّوا به، فاستجابوا له، ودانوا بإمامته وادّعوا له الوصيّة وافترقوا في أمر عبد الله بن معاوية هذا على ثلاث فرق:

فرقة قالت بأنّه مات. وفرقة قالت بأنّه بجبال أصفهان وبأنّه لم يمت ولا يموت حتّى يعود بنواحي الجبال إلى رجل من بني هاشم. وفرقة قالت بأنّه حيّ بجبال أصفهان لم يمت ولا يموت حتّى يلي أمور الناس، وهو المهديّ الذي بشّر به الرسول ﷺ.

كذلك بعد موت أبي هاشم، ظهرت فرقة تُسمّى "**البيانيّة**" وهم أصحاب بيان بن سمعان التميميّ، الذين قالوا بأنّ أبا هاشم أوصى إلى بيان، الذي لم يكن له أن يوصي بها إلى عقبه.

---

١ ـ لعلّ المقصود هو أبو مسلم الخرساني (ت ١٣٧ هـ/٧٥٥م): أحد أقطاب الحركة الدينيّة السياسيّة التي أدّت إلى انهيار الدولة الأمويّة وقيام الدولة العبّاسية، حارب تحت راية العبّاسيين فاحتلّ مرو ١٣٠ هـ/٧٤٨م، والكوفة، قتله المنصور الخليفة العبّاسيّ الثاني.

وفرقة قالت بأنّ الإمام بعد أبي هاشم عبد الله بن محمّد ابن الحنفيّة، إنّما هو عليّ بن الحسين بن أبي طالب[1].

أما **البيانيّة**، فهي كما أسلفنا، الفرقة الكيسانيّة التي اتّبعت "بيان بن سمعان" الذي كان ينتقل بفرقته من الكربيّة إلى الحميريَّة إلى الهاشميّة، ثمّ كوّن فرقته الخاصّة به، مدّعيًا أنّ أبا هاشم أوصى إليه، بعد أن كان أتباعه يقولون بمهديّة أبي هاشم ورجعته. وقد تطوّرت عند هؤلاء عقيدة الوصاية إلى عقيدة الحلول والتناسخ، بين روح أبي هاشم وروح بيان. ذلك أنّ البيانيّة قالت إنّ "روح الله دارت في الأنبياء والأئمّة حتّى انتهت إلى عليّ عليه السلام ثم صارت إلى محمّد ابن الحنفيّة، ثم صارت إلى ابنه أبي هاشم، ثم حلّت بعده في بيان بن سمعان". وقد خصّ بيان عليًّا عليه السلام بالألوهيّة، وقال بأنّه سيظهر في بعض الأزمنة، واستدلّ على ذلك بالآية: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ وَالمَلاَئِكَةِ﴾[2]. ففسّر الآية على ضوء المعتقد السبئيّ بأنّ "عليًّا عليه السلام في الغمام، والرعد صوته والبرق تبسّمه. وقد ادّعى "بيان" النبوّة معلنًا أنّ أبا هاشم هو الذي جعله نبيًّا، واستدلّ على ذلك بما جاء في الآية: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾[3]، فقال بأنّه هو البيان والهدى والموعظة، وأرسل إلى محمّد بن عليّ بن الحسين (الباقر) كتابًا يقول فيه: "أسلم تسلم، وترتقِ في سلّم، وتنجُ وتغنم، فإنّك لا تدري أين يجعل الله النبوّة والرسالة، وما على الرسول إلاّ البلاغ وقد أُعذر من أنذر"[4].

---

١ ـ طعيمة، مرجع سابق، ص١٧٣؛ راجع بشأن هذه الفرق: الشهرستاني، الملل والنحل، (القاهرة)؛ الفخر الرازي، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (الطبعة المصريّة) ص ٦٢ وما يليها.

٢ ـ من الآية ٢١٠ من سورة البقرة.

٣ ـ آل عمران: ١٣٨.

٤ ـ الشهرستاني، الملل والنحل، (القاهرة) ١: ١٥٢ـ١٥٣.

وقد ادّعى بيان العديد من القدرات، والمعارف. وجلّ ما تميّزت به البيانيّة: الباطنيّة في المعتقد والقول بالتأويل الباطنيّ، والقول بتجسيد الله وتشبيهه بالمخلوقين، والقول بانتقال جزء لاهوتيّ حلّ في بعض البشر عن طريق التناسخ، والقول بعقيدة قائم القيامة، وادّعاء بيان النبوّة ومعرفة الإسم الأعظم "الذي يستطيع أن يدعو به الزهرة فتجيبه"[1].

على أيّ حال، فإنّ الكيسانيّة، وفرقها، ومعتقداتها قد انقرضت، ولم يعد التوسّع فيها يُجدي نفعًا.

---

١ ـ طعيمة، مرجع سابق، ص ١٧٨ ـ ١٧٩.

الماتِريديَّة

مذهب منسوب إلى أبو منصور محمّد بن محمّد بن محمود الماتريدي[1] السمرقنديّ، الملقّب بـ"إمام الهدى"، وُلد وتوفّي بسمرقند سنة ٣٣٣هـ/ ٩٤٤م، عاش ما وراء النهر أي في البلاد المتحضّرة الواقعة شمال نهر أمودريا في تركستان الروسيّة. كان من أئمّة السنّة الكبار في علم الكلام، كان الماتريديّ فقيه حنفيّ أصوليّ. عاصر الأشعريّ والطهاريّ ودافع عن العقيدة الإسلاميّة الحنيفة خاصّة ضد بعض الفرق كالمعتزلة والقرامطة، وكانت بينه وبين أبي الحسن الأشعريّ اختلافات، وكان أتباعه من القائلين بمذهب أبي حنيفة كثيرين. له "شرح الفقه الأكبر"، و"التوحيد"، و"مآخذ الشرائع" في علم الأصول.

حصل بين الماتريديّة والأشاعرة خلاف في بعض المسائل، كمسألة التكوين وغيرها، لكنّهم وافقوا الأشاعرة في ما خالفوا به المعتزلة. ومن أقوالهم: إنّ معرفة الله مدركة الوجوب بالعقل، وإنّ الله تعالى خالق الأشياء كلّها، فلا شيء في هذا الوجود إلا وهو مخلوق الله تعالى، لا شريك له، وإثبات الخلق لغيره إثبات للشريك. وإنّ قدرة الإنسان تليق بكلّ عمل، ويكون الإنسان قادرًا أن يوجّه قدرته كيفما يشاء، وأمّا أن تكون القدرة مخلوق اللّه، فهي نتيجة عامّة لهذه المسألة، إذ كلّ ما يصدر عن الإنسان فهو مخلوق اللّه. وقالوا إنّ الكسب هو الخلق، وهو ليس شيئًا يوجده الإنسان من العدم، بل هو يحصل من مادّة سابقة. وقالوا إنّ رؤية الله تعالى يوم القيامة ثابتة بالنصوص، كما قالوا إنّ للأشياء قبحًا ذاتيًا وإن العقل يستطيع أن يدرك حسن الأشياء وقبحها. وإنّ

---

١ - ماتريد: قرية من قرى سمرقند.

العقل قادر أن يعرف صدق مدّعي النبوّة، أو عدم صدقه. والمعجزة تأييد لنبوّة النبيّ بعد العقل. وقالوا: لو لم يكن الإنسان مختارًا في إرادته، فلا يجب أن يكون مستحقًّا للثواب والعقاب، لأنّ القدرة التي يستعملها لتحصيل الإثنَين هي من أفعال اللّه. وعن الإمامة قالوا: ينبغي أن يكون الإمام ظاهرًا لا متخفّيًا ولا منتظرًا، ويكون من قريش، ولا يجوز من غيرهم، ولا يختصّ ببني هاشم، ولا يُشترط أن يكون معصومًا ولا أن يكون أفضل أهل زمانه، ويُشترط أن يكون من أهل الولاية المطلقة الكاملة، قادرًا على تنفيذ الأحكام وحفظ حدود دار الإسلام، وإنصاف المظلوم من الظالم، ولا ينعزل الإمام بالفسق والفجور، ويجوز الصلاة خلف كلّ برّ وفاجر، ونصلّي على كلّ برّ وفاجر، ونكفّ عن ذكر الصحابة إلاّ بالخير. ولا يبلغ وليّ درجة الأنبياء، وتُحمل النصوص على ظواهرها والعدول عنها إلى معان يدّعيها أهل الباطل إلحاد، وما أخبر به النبيّ ﷺ من أشراط الساعة، من خروج الدجال ودابّة الأرض وطلوع الشمس من مغربها، فهو حق.

ذكر بعض العلماء أنّ المسائل الخلافيّة بين الأشاعرة والماتِريديّة ثلاث عشرة مسألة، وذكر آخرون أنّها أربعون مسألة. على أنّ من أبرز المسائل الّتي يخالف فيها الماتريديُّ الأشعريَّ هي: الحسن والقبح عقليّان؛ لا يكلّف اللّه أحدًا ما لا يُطاق؛ لا يظلم اللّه أحدًا، ومحال عقلاً أن يكون ظالمًا؛ جميع أفعال اللّه مبتنية على المصالح؛ للإنسان قدرة واختيار في أفعاله وهي مؤثّرة في ظهور أفعاله؛ التوبة مقبولة حتّى عند اليأس من الحياة؛ ما يدرك بالحواسّ الخمس ليس علمًا، بل هو ذريعة للعلم ووسيلة له؛ إعادة الأعراض غير ممكنة[1].

---

١ ـ البغدادي عبد القاهر بن طاهر بن محمّد، الفرق بين الفرق؛ الشهرستاني أبو الفتح محمّد بن عبد الكريم، الملل والنحل؛ الموسوعة العربيّة الميسّرة؛ المنجد في الأعلام؛ موسوعة الأديان في العالم؛ الإسكندراني محمّد، موسوعة الأديان الميسّرة.

المُرجَئَة

لقد فتحت حركة القدريّة، ومن بعدها المعتزلة، باب النّيل من صلابة موقف أهل السنّة، بعدما كانت الحركات السابقة، من سبئيّة وخوارج وشيعة، قد فرّقت المعتقد في نهاية خلافة الراشدين.

في هذا الطور من مسار الإسلام، بعد القدريّة والمعتزلة، جاءَت حركة المرجئة كخطوة جديدة في اتّجاه النَّيل من صلابة السنّة. وكان الركن الأوّل في تعليم المرجئة، إرجاء الحكم على أصحاب الكبائر، وعدم التسليم بإخراجهم من حظيرة الإيمان[1]. ذلك لأنّهم اعتقدوا أنّ الأعمال ليست شرطًا في صحّة الإيمان. وإنّما نشأ هذا الموقف من أجل تبرير موقف الخلفاء الأمويّين الذين اتُّهموا بالتهاون في تطبيق الشريعة المقدَّسة. فقد ذهب أرباب هذا الرأي إلى أنّ الأمويّين مسلمون ولو إسميًّا. ولمّا كانوا، بحكم الواقع، قادة الإسلام السياسيّ، فقد وجبت لهم الطاعة على جميع المسلمين. وقالوا إن عليًّا عليه السلام ومعاوية كليهما من عبيد الله، فالحكم بشأنهما لله وحده. "وفي هذا الجوّ السمح الذي خيّم على هذه الحركة الفكريّة، نشأ الإمام الكبير أبو حنيفة (ت٧٦٧) مؤسّس المذهب الأوّل من المذاهب الفقهيّة الأربعة في الإسلام"[2].

إنّ قيام عقيدة تقول بإرجاء الحكم على العصاة من المسلمين إلى يوم البعث، وبعدم إدانة أيّ مسلم مهما كانت الذنوب التي اقترفها، وبأنّه لا تعزّ مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الفكر طاعة... وبأنه لا يكن تكفير إنسان، أيًّا كان، ومهما ارتكب من

---

١ - راجع البغدادي، مختصر الفرق بين الفرق، نشر فيليب حتّي (القاهرة،١٩٢٤) ص٦٥ - ٩٤.

٢ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ١١٨.

المعاصي، ما دام قد اعتنق الإسلام ونطق الشهادتَين، وبترك أمر حسابه أو عقابه إلى الله وحده... كان من الطبيعيّ أن يدفع أصحاب هذه العقيدة إلى ترك الفروض التي أوجبها الدين من صلاة وزكاة وصوم، وأن يضعوا واجبات الإنسان نحو ما يحيط به من الناس فوق أداء الفروض التي جاء بها القرآن[١].

لم يكن ظهور هذه الفرق في الإسلام ذا تأثير كبير في صميم الدين الاسلاميّ، لأنّ الأكثريّة الساحقة من المسلمين بقيت تدين بالسنّة، وكان باقي الفرق، مجتمعًا، لا يشكّل سوى أقليّة ضئيلة، أثّرت بعض الشيء في استقرار المجتمع الإسلاميّ وفي زخم انتشاره، ولكنّها، لم تستطع أن تؤثّر في المنحى الدينيّ الأساسيّ، وإن كان سيظهر في ما بعد، عدد آخر من الفرق التي سيبتعد بعضها كثيرًا عن دين محمّد ﷺ.

المريديَّة

طريقة صوفيّة أسّسها الشيخ أحمد بامبا بالسنغال، وتكاد شهرتها تكون محصورة في هذا البلد. هذه الطريقة مبنيّة على أساس الوراثة وفقًا لترتيب متسلسل واضح. يرجع السبب في انتشارها إلى أنّها لم تكتف بالاعتماد على الجانب الدينيّ، بل جعلت من الجانب الاقتصاديّ منهجًا واضحًا لأتباعها، وأضفى على العمل قيمة صوفيّة. في هذا الإطار يقول بامبا أمباكي ديوب: لم يكن المريد مهتمًّا كثيرًا بالنجاة في الحياة الأخرى بمقدار اهتمامه بالاتّحاد الحقيقيّ مع اللّه في هذه الحياة الدنيا، والعمل هو الوسيلة الوحيدة لهذا الاتّحاد[٢].

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص٥٣٥.

٢ ـ وهبة غسّان، جريدة "الديار" اللبنانيّة، عدد ٢٥ حزيران (يونيو) ١٩٩٩، ص ١٢.

المُستَعلَوِيّة

فرقة من فرق الإسماعيليّة من أتباع الخليفة الفاطميّ التاسع (٤٨٧ ـ ٤٩٥هـ/ ١٠٩٤ ـ ١١٠١م) المستعلي بالله أحمد (٤٦٧ ـ ٤٩٥هـ/ ١٠٧٥ ـ ١١٠١م) بن المستنصر بالله (٤٢٠ ـ ٤٨٧هـ/ ١٠٢٩ ـ ١٠٩٤م) ثامن الخلفاء الفاطميّين (٤٢٧ ـ ٤٨٧هـ/ ١٠٣٦ ـ ١٠٩٤م). وكان المستعلي قد جاء إلى الحكم بفضل الوزير بدر الدين الجمالي وابنه الأفضل الذي استلم شؤون الدولة، وذلك خلافًا لما كان عَهد به المستنصر بالخلافة لابنه نزار، لأنّ وزير الدولة وقائد جيوشها: الأفضل بن بدر الجماليّ الملقّب بأبي القاسم شاهنشاه، الذي استوزره المستنصر بضغط من الجيش، كان قد أصبح الآمر والناهي في الدولة، فاستبعد نزارًا، وقرّر الخلافة لأحمد المستعلي. وكانت الخلافة الفاطميّة قد أضحت في حال من الوهن، بسبب الفتن الداخليّة التي أدّت إلى تنازع المستعلي مع أخيه نزار على المُلك، فدارت بينهما حروب دامية أدّت إلى مقتل نزار وإلى انشقاقٍ داخل الخلافة[1]. فعرف أتباع نزار بالنزاريّة، وأتباع المستعلي بالمستعلويّة، وقد نزح المستعلويّة عن مصر بالتدريج في أوائل القرن الحادي عشر ميلاديّ صوب اليمن ومنها إلى الهند وأقاموا في ولاية كَجرات، حيث عرفو بـ "البُهرة"، أي التّجار[2].

---

١ ـ ابن تغري بردي، ج ٢ ق ٢، ص ١٢٠ وما بعدها.

٢ ـ راجع: البهرة، في هذا الكتاب.

المعتزلة

كانت نشأة المعتزلة عندما اختلف واصل بن عطاء[1] المتوفّي سنة ١٣١ هـ / ٧٤٨ م. مع أستاذه الفقيه الحسن البصريّ[2]، في مسألة المؤمن العاصي الذي ارتكب ذنبًا كبيرًا، أيُسمّى مؤمنًا أم كافرًا؟ وقال واصل إنّ مثل هذا الشخص لا يُعتبر مؤمنًا، ولا يُسمّى كافرًا، بل يجب أن يوضع في منزلة بين المنزلتَين.

واعتزل واصل ناحية بعيدة عن المسجد يشرح رأيه لأتباعه، فكان أن سُمّوا معتزلة[3].

وكانت المعتزلة لا تأخذ بالعقيدة، التي تقول إنّ القرآن أزليّ، لأنّ هذا يتعارض مع وحدانيّة الله. كانوا يتساءلون: كيف يتسنّى لنا أن نؤمن بأنّ الله هو الكائن الوحيد الأزليّ، خالق الاشياء، ثمّ نضع إلى جانبه كلمة غير مخلوقة؟ وكانوا يفاخرون بأنّهم "أهل التوحيد والعدل"[4].

---

١ ـ **واصل بن عطاء** (ت١٣١ هـ / ٧٤٨ م): لقبه أبو حذيفة، رأس متكلّمي المعتزلة وأكبر أركان هذه النحلة، وإليه تُنسب "الواصلية"، وُلد بالمدينة وانتقل إلى البصرة حيث اتّصل بالحسن البصريّ وعمرو بن عبيد، لُقّب بالغزّل لتصدّقه على فقيرات معامل الغزل، له "السبيل إلى معرفة الحق" و"الخطب في التوحيد والعدل".

٢ ـ **الحسن البصريّ** (٢١ ـ ١١٠ هـ / ٦٤٢ ـ ٧٢٨ م): لقبه أبو سعيد، تابعيّ من مشاهير الثقاة، وُلد في المدينة وأقام في البصرة وفيها توفّي، لقي عثمان بن عفّان وعبد الله بن عبّاس، كان فريدًا في معرفة الأحكام الشرعيّة والتدريس والوعظ والحديث، أثّر تأثيرًا عظيمًا في جيله من المسلمين، له مكانة عظيمة في التصوّف.

٣ ـ مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص٥٠٠ ـ ٥٠١.

٤ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ١٢٥؛ راجع: البغدادي، أصول الدين (استنبول،١٩٢٨) ١: ٣٣٥؛ النوبختي، فرق الشيعة، ص٥.

بالرغم من أنّ المعتزلة قد نشأت في البصرة، فإنّها كانت متأثّرة بشكل واضح، بالقدريّة التي نشأت في دمشق. حتّى أنّ بعض البحّاثين وقعوا بالخلط بين القدريّة والمعتزلة، فقالوا "إنّ هؤلاء المعتزلة سمّوا بالقدريّة"[1].

وقد تكوّنت عقيدة المعتزلة من خمسة أصول:

١ ـ التوحيد: إذ قالوا إنّ الله ليس كالأشياء والأجسام، وإنّه ليس بجزء ولا عنصر ولا جوهر، بل هو الخالق لهذه الأشياء جميعًا، وإنّه لا يحصره المكان ولا تحويه الأقطار.

٢ ـ العدل: ومعناه أنّ الله لا يُحبّ الفساد ولا يخلق أفعال العباد، بل إنّهم يفعلون ما أُمروا به ونُهوا عنه بالقدرة التي جعلها الله لهم، لأنّه لم يأمر إلاّ بما أراد، ولم يَنهِ إلاّ عمّا كره. وإنّه وليّ كلّ حسنة أمر بها، بريء من كلّ سيّئة نهى عنها. وإنّ الله لو شاء لجبر الخلق على طاعته ومنعهم عن معصيته، غير أنّه لم يفعل وهو قادر. وعلى ذلك فإنّ من الظلم أن يعاقب الإنسان على عمل ساقه القدر الإلهيّ.

٣ ـ الوعيد: وهو أنّ الله لا يغفر لمَن ارتكب الكبائر إلاّ بالتوبة. وأنّه لصادقٌ في وعده ووعيده لا مبدّل لكلماته.

٤ ـ المنزلة بين المنزلتَين: وهو أنّ الفاسق مرتكب الكبائر ليس بمؤمن ولا بكافر، بل يُسمّى فاسقًا...

٥ ـ وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وهو أنّ ما ذكر على سائر المؤمنين واجب على حسب استطاعتهم في ذلك بالسيف فما دونه، ولا فرق بين جهاد

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص٥٠١.

الكافر والفاسق. ويقول المعتزلة أيضًا بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح. كما يقولون إنّ الإمامة اختيار من الأمّة، لأنّ الله لم ينصّ على رجل بعينه، وإنّ اختيار الإمام مفوّض إلى الأمّة[1].

لم تقتصر خطورة المعتزلة على أنّها مجرّد انشقاق عن السنّة، ولكنّها تعدّت ذلك إلى تحوّلها دين الدولة، في عهد الخليفة المأمون، الذي اتّخذ سنة ٨٢٧ إجراء على غاية من الخطورة والثوريّة. ذلك في أنّه اعتنق مذهب المعتزلة. وفي رسالة خطيرة بعث بها إلى عمّال الولايات أعلن رأيه في أنّ القرآن مخلوق، وجعل الأخذ بهذا الرأي محكّمًا لمعرفة سلامة العقيدة من فسادها. ثم ألحق هذا بأمر أصدره يقول فيه إنّ كلّ قاض لا يأخذ بهذا الرأي لا يمكن أن يحتفظ بمنصبه ولا يمكن أن يعيّن في القضاء. وقد جاء في الرسالة: "فاجمع مَن بحضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك. فابدأ بامتحانهم في ما يقولون وتكشيفهم عمّا يعتقدون في خلق الله القرآن وأحداثه. وأعلمهم أنّ أمير المؤمنين غير مستعين في عمله، ولا واثق في ما قلّده الله واستحفظه من أمور رعيّته بمَن لا يوثق بدينه وخصوص توحيده وبتعيينه"[2].

ولكي يضع أوامره هذه موضع التنفيذ، أنشأ محكمة تفتيش كانت الأولى من نوعها في الإسلام."ومن مهازل القدر أنّ حركته هذه التي كانت تهدف إلى تحرير الفكر، أصبحت أداة للقضاء على حريّة الفكر"[3].

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص٥٣٥ ـ ٥٣٦.

٢ ـ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، نشر (ليدن ١٨٧٩) ٣: ١١٥ ـ ١١٦.

٣ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص١٢٦.

واستمرّت المحنة، كما كانوا يسمّونها، في عهد خلافة أخيه المعتصم، الخليفة العبّاسيّ الثامن (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ/ ٨٣٣ ـ ٨٤٢م). غير أنّ المتوكّل، الخليفة العبّاسيّ العاشر (٢٣٢هـ/ ٨٤٧م) إبن المعتصم وخليفته، انقلب عليها ووضع نهاية لها سنة ٨٤٨. وكان في رأس قائمة الضحايا الذين لاقوا حتفهم في المحنة، إمام بغداد أحمد بن حنبل، صاحب المذهب السنّيّ الحنبليّ. فقد وقف حنبل، الذي اشتهر بمحافظته الشديدة وبتزمّته في عقيدته، بوجه بدعة المعتزلة. فشدّه المأمون بالحديد وألقى به في السجن مدّة سنتَين. واستمرّ اضطهاده في زمن المعتصم. وكان يُجلد، غير أنّه أبى أن يعود عن رأيه. وكان يرفض أن يرى حرفًا واحدًا يسقط من مذهب السلف الصالح. وعندما توفّي سنة ٨٥٥ مشى في جنازته ٨٦٠ ألف نسمة يبكونه ويترحّمون عليه، فكان موكب جنازته شاهدًا على تعلّق الناس بهذا الزعيم الدينيّ الذي كان يمثّل العقيدة السليمة، عقيدة السلف. وعدد الذين يزورون قبره في بغداد تبرّكًا يفوق عدد الذين مشوا في جنازته أضعافًا وأضعافًا، ممّا يدلُّ على مكانته في نفوس الناس إلى يومنا هذا. ويشكّل الوهّابيّون القسم الأكبر من أتباع مذهبه[١].

١ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص١٢٦ ـ ١٢٧.

المَغيريّة

في سنة ١١٩ هـ/ ٧٣٧م.، برز داعية في الكوفة اسمه المغيرة بن سعيد، قال بالتجسيم، وصوّر "الله على صورة رجل على رأسه تاج، أعضاؤه على عدد حروف الهجاء، ويقول ما لا ينطق به لسان... لمّا أراد أن يُخلق، تكلّم باسمه الأعظم فطار فوقع على تاجه، ثمّ كتب بإصبعه على كفّه أعمال عباده من المعاصي والطاعات، فلمّا رأى المعاصي ارفضّ عرقًا، فاجتمع من عرقه بحران، أحدهما مالح مظلم والآخر عذب نيّر، ثمّ اطّلع في البحر فرأى ظلّه فذهب ليأخذه فطار فأدركه فقلع عينَي ذلك الظلّ ومحقه، فخلق من عينَيه الشمس وسماء أخرى، وخلق من البحر المالح الكفّار، ومن البحر العذب المؤمنين". وقال المغيرة بن سعيد "بألوهيّة عليّ ﷺ، وبتكفير أبي بكر وعمر وسائر الصحابة إلاّ مَن ثبت مع عليّ" ﷺ وقال بأنّ "الأنبياء لم يختلفوا في شيء من الشرائع"، و"بتحريم ماء الفرات وكلّ نهر أو عين أو بئر وقعت فيها نجاسة". وكان "يخرج إلى المقبرة فيتكلّم فيُرى مثل الجراد على القبور". وكان الناس يسمّون المغيرة بن سعيد: ساحرًا. وهو القائل: "لو أردت أن أحيي عادًا وثمودًا وقرونًا بين ذلك كثيرًا لفعلت".

كان المغيرة هذا قد جاء الإمام الباقر، وقال له: "أقرر أنّك تعلم الغيب حتّى أجبي لك العراق". غير أنّ الإمام نهَرَه وطرده، مثلما فعل زين العابدين مع المختار يومًا. ولمّا مات الباقر، وتسنّم سدّة الإمامة ابنه جعفر الصادق، جاءَه المغيرة، وعرض عليه ما عرضه على أبيه، فاكتفى الصادق بالقول: "أعوذ بالله"[1].

---

١ ـ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٥: ٢٠٧ – ٢٠٩.

أمام هذا الواقع، ادّعى المغيرة، بعد موت محمّد الباقر، بأنّ هذا الإمام قد أوصى له بالإمامة حتّى خروج المهديّ: "النفس الزكيّة"، وهو لقب محمّد بن عبد الله بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام. وكانت فرقة المغيرة التي عُرفت بـ"المغيريّة"، الفرقة الوحيدة بين غلاة الشيعة التي قالت بإمامة "النفس الزكيّة"[1].

ولمّا استشرى أمر المغيرة، وبدأ يجمع الأتباع، أمر والي الكوفة خالد بن عبد الله القسريّ المتوفّي سنة ١٢٦ هـ/٧٤٣م، بالقبض عليه وعلى الذين خرجوا معه في بثّ الدعوة البدعة، وأحرقهم في جامع الكوفة أمام الناس، ليكونوا عبرة لمَن اعتبر[2].

وممّا جاء في المدوّنات، أنّ المغيرة بن سعيد، كان أوّل الذين لعنهم الإمام جعفر الصادق لكذبهم عليه. وقد قيل في المغيرة إنّه كان من موالي خالد بن عبد الله القسريّ الذي قتله. ومن الثابت أنّ بيانًا، الذي تنتسب إليه الفرقة البيانيّة ـ الكيسانيّة[3]، كان بين الذين أحرقهم خالد مع المغيرة، وكان عددهم ستّة أو سبعة أنفار.

إعتبر المؤرّخون "المغيريّة"، فرعًا من الفرقة "الجنابيّة" ذات الأصل الكيسانيّ، وقد استمرّت المغيريّة بعد المغيرة. واختلف أتباع هذه الفرقة في ما بعد بشأن الإمامة، فمنهم مَن قال بإمامة عبد الله بن المغيرة بن سعيد، ومنهم مَن قال برجعة المغيرة واستمرّ على مقالته. وأهمّ ما قالت به المغيريّة، قبل موت المغيرة وبعده، إضافة إلى تجسيم الذات الإلهيّة، إدّعاء نبوّة المغيرة. وآمنوا بقدرة النجوم وتأثيرها، وبالتالي بالقدرة على إحياء الأموات بالسحر. وقالوا بالتأويل الباطنيّ وبالتناسخ[4].

---

١ ـ راجع: طعيمة، مرجع سابق، ص١٨٩ ـ ١٩٠.

٢ ـ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٥: ٢٠٨.

٣ ـ راجع: المرجع السابق.

٤ ـ راجع: طعيمة، مرجع سابق، ص ١٨٩ ـ ١٩٢.

المَهدِّيَة

طريقة منسوبة إلى محمّد أحمد المهدي (١٨٤٤ ـ ١٨٨٥) المعروف بالمهدي الأكبر، وهو زعيم دينيّ سودانيّ وقائد الثورة المهديّة التي حطّمت وحدة وادي النيل السياسيّة ١٦ عامًا.

تصوّف محمّد ودخل الخلوة وكثر عدد مريديه الذين لبسوا الجبّة المرقّعة دلالة على الفقر والمساواة، فسُمّوا الدراويش. أنشأ الطريقة المهديّة التي أخذها عن السنوسيّة[1]. أعلن دعوته سنة ١٨٨١ وصرّح بأنّه المهديّ المنتظر، وأطلق على أتباعه الدراويش إسم الأنصار. ثار على الحكومة المصريّة وهزم الحملات التي جرّدتها لتأديبه. إستولى أتباعه على السودان، ودخلوا الخرطوم، ثمّ أخمدت ثورته في أواخر سنة ١٨٩٨.

تحدّث المهدي عن "الحضرة" التي نصب فيها الرسول ﷺ مهديًا وفي هذه "الحضرة" يؤكّد الرسول ﷺ على كفر مَن لم يصدّق بمهديّة محمّد أحمد. ولأنّ من ميّزات المهديّة "اتّفاق القول: فقد أسقطت المذهبيّة والمذاهب، وألغت الطرق الصوفيّة، وأعلنت أنّ عهدها موصول بعهد الرسول ﷺ فما بينهما ساقط لا حجّة فيه، فهي سلفيّة تقف عند الكتاب والسنّة فقط، وتعتبر أنّ المذاهب كانت صالحة للأزمان السابقة للمهديّة فقط. وهي تجدّد وتشرّع وفق المصلحة المتجدّدة على ضوء الكتاب والسنّة وحدهما. كما أعلن المهدي أنّ المهديّة ليست ممّا يسعى المرء إليه، فهو قد كان سائرًا في طريق الإصلاح على العادة حتّى هجمت عليه المهديّة من رسول اللّه ﷺ بحضرة

---

١ ـ راجع: السنوسيّة، في هذا الكتاب.

الأولياء والصالحين في وقت لم يكن يطمع بأن ينالها، بل لقد كان راغبًا في الانضواء تحت لواء المهديّ السنوسيّ، وبعد هذا الإعلان كاتب المهديّ أنصاره ودعاهم إلى الهجرة إلى جزيرة "أبا" في شهر رمضان، وهناك حقّق المهديّ أوّل انتصار عسكريّ على قوات الحكومة في رمضان ١٢٩٨هـ/ ١٨٨٠م، ثمّ عاود انتصاره عليها ثانية في "جبل قدير".

منذ ذلك التاريخ بدأ ينشئ جهاز دولته الجديدة بادئًا ببيت المال ومنصبَي قاضي الإسلام وأمين السلاح، ثم جعل له أربعة يخلف كلّ واحد منهم واحدًا من الخلفاء الراشدين الأربعة، كما يخلف هو الرسول ﷺ. ثم توالت المعارك بينه وبين الحكومة التي استعانت بعدد من القادة العسكريّين الأوروبيّين لقتاله، حتّى انتهت باقتحام أنصار المهديّ للخرطوم في ٢٦ كانون الثاني (يناير) ١٨٨٥، وبتمام سيطرة المهدي على كلّ أجزاء السودان، وقد أكدت هذه الانتصارات العسكريّة التي أحرزها المهديّ لأتباعه على ما حدّثهم به من أنّه منصور أبدًا، وأنّ أعداءه مدحورون لا محالة، فهو "المهديّ"، وليس طالبًا للملك أو ساعيًا إلى السلطان.

وأخذ الناس يتحدّثون عن الخوارق التي يرونها، فاسم المهديّ مكتوب على أوراق الأشجار وعلى بيض الدجاج، وهم قد شاهدوا النار تشتعل في جثث القتلى من أعدائه، وهو في غدوه ورواحه معه ملاك من اللّه يلهمه ويسدّده، وفي قتاله معه عزرائيل يقبض أرواح أعدائه، وفي مجتمع كالمجتمع السودانيّ نقلت هذه المرويّات والروايات والمأثورات والحكايات ما لا تفعله الفلسفات وبراهينها، ولا المنطق وقضاياه. لقد فجّرت كلّ طاقات المجتمع، فصبّت في نهر الثورة المهديّة وأذهلت النساء عن أزواجهنّ، فهاجرن إلى المهديّ دون الرجال الجاحدين، وجعلت الرجال يفارقون زوجاتهم إذا هنّ لم يستجبن للدعوة، وقدّم المالكون أموالهم والفقراء أرواحهم لهذا

القائد الأسطورة الذي صنع بالأسطورة ما لا تصنعه الحقائق في مجتمع مثل الذي ظهر فيه[1]. وكانت الحياة الفكريّة في السودان فقيرة تتقاسمها ذهنيّة القرون الوسطى المحافظة والجامدة لدى الفقهاء الذين ارتبطوا بالدولة والنمط العثمانيّ، وذهنيّة الطرق الصوفيّة المليئة بالخرافات، وقد زادت المهديّة هذه الحياة الفكريّة فقرًا، فأصبح الفكر في سودان المهديّة وقفًا على المهديّ، فهو خليفة الرسول ﷺ ويشكّل وحده المرجعيّة في الفكر والتشريع كما كان الحال في مجتمع الرسول ﷺ. ولكنّ هذا الفكر قد اتّسم بالسلفيّة من خلال العودة إلى النصوص الأصليّة كتابًا وسنّة، وأسقط خرافات العصور الوسطى وإضافاتها، وفتح الباب واسعًا للاجتهاد المحكوم بالمصالح المتجدّدة على هدى من الكتاب والسنّة، فهو يعلن أنّه يقتفي آثار مَن سلف من المهتدين السالفين على نهج محمد ﷺ ويدعو إلى عقيدة السلف في التوحيد وهي التي تنكر الوسائط والوسل بالأولياء والصالحين أحياء كانوا أو أموات.

طلب المهدي من أتباعه أن يتميّزوا عن الأتراك في كلّ أمور المعاش والزيّ والسلوك، وقال: "كلّ ما يؤدّي إلى التشبّه بالترك الكفرة أتركوه كما قال تعالى في الحديث القدسيّ - قل لعبادي المتوجّهين إليّ لا يدخلون مداخل أعدائي، ولا يلبسون ملابس أعدائي كما هم أعدائي - فكلّ الذي يكون من علاماتهم ولباساتهم فاتركوه". ويرى باحثون أنّ هناك طابع قوميّ لا شك فيه يطلب المهديّ من أتباعه الرجوع إليه والتثبّت به والتميّز فيه عن الأتراك. وهو يجعل قتاله للترك تنفيذًا لأمر الرسول ﷺ وتحريضه، فيقول: "لقد أخبرني سيّد الوجود ﷺ أنّ مَن شكّ في مهديّتي فقد كفر، وحرّضني على قتال الترك وجهادهم". ويفنّد حجج الذين يقولون إنّ جنود الدولة الذين

---

[1] - أخذ المهديّ يكاتب القادة والملوك والرؤساء يدعوهم إلى تصديقه والتعاون معه وبلغت أصداء دعوته أرجاء الوطن العربيّ، وجاء وفد من الحجاز لمبايعته فعيّن واحدًا منهم واليًا على الحرمين.

يقتلهم في الحرب هم مسلمون، وأنّه سيحاسب على قتلهم يوم القيامة، بالقول: إنّ هؤلاء الجند هم جند الدولة التي كان يسمّيها "دولة الأتراك"، إنّما هم ساعون لتحقيق أهداف قيادتهم لجمع المال بالظلم والإكراه، على أنّ النبيّ ﷺ أمرنا أمرًا صريحًا بقتال الترك وأخبرنا بأنّهم كفّار لمخالفتهم أمر الرسول ﷺ، ولإرادتهم إطفاء نور اللّه تعالى الذي أراد به إظهار عدله.

إنتهت المهديّة كدولة بعد خمسة عشر عامًا من موت المهديّ عندما هُزِمَ جيش خليفته أمام الاستعمار الإنجليزيّ في موقعة "كررى" في ٢ أيلول (سبتمبر) ١٨٩٨م، فسقطت عاصمتها "أم درمان، ثم كان مقتل الخليفة في موقعة "أم دبيكرات" في ٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٩٩. لكنّها بقيت كفكر وطريقة صوفيّة وحركة سياسيّة وإن تكن قد ابتعدت عن فكرها الأساسيّ.

خلف محمّد أحمد بن عبد الله المهديّ في زعامة المهديّة إبنه عبد الرحمن (١٨٨٤ ـ ١٩٥٩) فتزعّم الثورة السودانيّة. ورعى حزب الأمّة مدّة طويلة متزعّمًا الأنصار وصار له نفوذ كبير بالسودان حتّى وفاته. خلفه نجله السيّد صديق المهدي (١٩١١ ـ ١٩٦١) فعمل في سبيل التخلّص من النفوذ البريطانيّ لنيل استقلال السودان. تلقّى علومه بكليّة غوردن بالخرطوم، ورأس حزب الأمّة منذ تأسيسه سنة ١٩٤٥ إلى أن حُلّ بأمر المجلس الأعلى للقوّات المسلّحة سنة ١٩٥٨ مع سائر أحزاب السودان. إتفّق مع اسماعيل الأزهري وعبد الله خليل وغيرهما سنة ١٩٦٠ على إنهاء حكم المجلس الأعلى للقوّات المسلّحة وإجراء انتخابات حرّة وسنّ دستور للبلاد[١].

---

١ ـ موسوعة الأديان في العالم؛ الموسوعة العربيّة الميسّرة؛ منجد الأعلام.

المُوسَوِّيَة

فرق تقول بإمامة الإمام موسى الكاظم بن جعفر، وتنتظر رجعته. وقد اختلفت تلك الفرق في شأن غيبته.

عندما آلت الإمامة إلى موسى الكاظم سنة ١٤٨ هـ/ ٧٦٥م، كان على سدّة الخلافة: المنصور، ثاني العبّاسيين (١٣٦ هـ/ ٧٥٤ م - ١٥٨ هـ/ ٧٧٥ م)، وقد خلفه المهديّ (١٥٨ هـ/ ٧٧٥م - ١٦٩ هـ/ ٧٨٥ م). ثمّ الهادي (١٦٩ هـ/ ٧٨٥ م - ١٧٠ هـ/ ٧٨٦ م). وجاء بعد الهادي أخوه هارون الرشيد.

بقي المنصور طوال عهده حذرًا من الشيعة، عمومًا، وفي آخر سنة من حياته، كان لا يزال يأمر بحبس كلّ مَن يظهر من الشيعة داعيةً أو متطرّفًا. وسار المهديّ على خطى والده في الحذر من آل عليّ ﷺ، ومن كرههم، ومن محاولة التخلّص منهم، بالدسائس والاغتيال، حتّى إنّه كان يرفض أن يُقال بأنّ ابن أبي طالب ﷺ "وارث الإمامة من بعد الرسول ﷺ". ويُستدلّ من بعض المدوّنات أنّه كان يسجن الإمام موسى الكاظم لا لشيء إلاّ لأنّه كان يخشى من خروجه عليه، إلى أن قرأ يومًا، وهو يصلّي، آية تقول: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[1]، فأحضر الإمام إليه، وقال له: "يا موسى! إنّي قرأت هذه الآية فخفت أن أكون قد قطعت رحمك، فوثّق لي أنّك لن تخرج عليّ". وعندما ردّ الإمام بالإيجاب، أطلق له سبيله.

---

١ - محمّد: ٢٢.

وبموت المهديّ مسمومًا بعد أحد عشر عامًا من الحكم، وانتقال الخلافة إلى ابنه موسى الهادي، ظهر الحسين بن عليّ بن الحسن بن عليّ بن ابي طالب عليه السلام بالمدينة. ويردّ الشيعة سبب خروج الحسين هذا، إلى "ظلم العبّاسيّين ومطاردتهم لأبناء عليّ أمير المؤمنين عليه السلام". وكان مع الحسين جماعة من أهل بيته، منهم إدريس، ويحيى، وسليمان بنو عبد الله بن الحسن. وإذ تمكّن أحفاد عليّ عليه السلام في بداية الأمر من طرد عامل العبّاسيّين من المدينة المنوّرة، بايع الناس للحسين على كتاب الله وسنّة نبيّه صلى الله عليه وسلم، وأقام وأصحابه بالمدينة أيّامًا يتجهّزون، ثمّ خرجوا إلى مكّة، فقابلهم بها جيش الحاكم العبّاسيّ يوم التروية الثامن من ذي الحجّة (١٦٩ هـ/ ٧٨٥م) فدارت الدوائر على الحسين، فقُتل وجماعة من أهل بيته وأصحابه، وجُمعت رؤوسهم، فكانت مئة ونيفًا، وأُرسلت إلى الخليفة. وكان من بين الرؤوس رأس سليمان بن عبد الله بن الحسن المثنّى، وكان مقتلهم بموضع يقال له "فخّ" على ثلاثة أميال من مكّة. أمّا يحيى فإنّه فرّ من الوقعة إلى بلاد الديلم على شواطىء بحر قزوين، حيث دعا الناس إلى بيعته، وقد تجاوبوا، وبايعوا حفيد عليّ عليه السلام، الذي اشتدّ أمره وقويت شوكته هناك، إلى أن قتله الرشيد في ما بعد. أمّا إدريس، بن عبد الله بن الحسن، فإنّه فرّ إلى مصر، ومنها انتقل إلى المغرب، حيث سيؤسّس دولة الأدارسة.

لم تدم خلافة الهادي سوى سنة وثلاثة أشهر، وبموته سنة ١٧٠ هـ/ ٧٨٦م، آلت الخلافة العبّاسيّة إلى أخيه هارون الرشيد، الذي كان في الثانية والعشرين من عمره.

كان أوّل ما نفّذه هارون الرشيد ضدّ الشيعة، أنّه مكر بيحيى بن عبد الله ابن الحسن الذي كان قد قوي في بلاد الديلم، حيث "اشتدّت شوكته، وكثرت جموعه، وأتاه الناس من الأمصار". وتمكّن الرشيد بواسطة بعض السعاة من إقناع يحيى، حفيد الحسن، بالمجيء إلى بغداد، بعد أن منحه الأمان بيمين مغلّظة منصوصة بخطّ يده،

وقد اشتهد العلماء والأكابر عليها. وإذ حضر يحيى إلى بغداد، أكرمه الرشيد، وأمر له بمال كثير في العلانية، غير أنّه سرًّا، أمر بحبسه. وفي النهاية تمكّن الخليفة العبّاسيّ من الغدر بحفيد الحسن الذي مات في سجن بغداد سنة ١٧٦ هـ/ ٧٩٢م. وبعد ثلاث سنوات، أمر الرشيد بسجن الإمام موسى الكاظم، الذي نُقل من المدينة إلى سجن الخلافة ببغداد دون مقاومة. وقد ذكر الذين أشرفوا على حبس الإمام الشيعيّ السابع، أنّه "كان صلّى العتمة، حمد الله ومجّده ودعاه إلى أن يزول الليل. ثمّ يقوم فيصلّي، حتّى يصلّي الصبح، ثمّ يذكر الله تعالى حتّى تطلع الشمس، ثمّ يقعد إلى ارتفاع الضحى، ثمّ يرقد، ويستيقظ قبل الزوال، ثمّ يتوضّأ ويصلّي، حتّى يصلّي العصر، ثمّ يذكر الله، حتّى يصلّي المغرب، ثمّ يصلّي ما بين المغرب والعتمة"... وذكروا أنّه لمّا كان محبوسًا، بعث إلى الرشيد برسالة جاء فيها:

> إنّه لن ينقضي عنّي يوم من البلاء إلاّ ينقضي عنك معه يوم من الرّخاء، حتّى سينقضيا جميعًا إلى يوم ليس له انقضاء يخسر فيه المبطلون.

تعدّدت الروايات حول الأسباب الحقيقيّة التي كانت وراء قيام هارون الرشيد بسجن الإمام الشيعيّ وحول ظروف هذا العمل. منها رواية تقول بأنّ "الرشيد اعتمر في شهر رمضان من سنة ١٧٩ هـ/ ٧٩٥م، فلمّا عاد إلى المدينة، دخل إلى قبر النبيّ ﷺ يزوره، ومعه الناس، فلمّا انتهى إلى القبر وقف فقال: "السلام عليك يا رسول الله يا ابن عمّ". وقد رام الرشيد من ذلك الافتخار بنسبه على مَن حوله. وهنا دنا موسى بن جعفر، وهو السليل المباشر للرسول ﷺ عبر ابنته فاطمة، وقال: "السلام عليك يا رسول الله، يا أبي الحبيب". وهنا تغيّر وجه الرشيد وقال: ـ هذا لفخر يا أبا الحسن جدًّا ـ؛ ثمّ أخذه معه إلى العراق، وحبسه".

ويقول بعض الرواة إنّ هارون الرشيد كان قد استغلّ رحلة الحجّ هذه إلى مكّة، ليختبر الإمام السابع، فكان الخليفة العبّاسيّ يريد معرفة ما إذا كان موسى ابن جعفر الكاظم يقف وراء الساخطين والمحرّضين على الثورة، خاصّة وأنّ الخليفة العبّاسيّ كان يعاني من أنّ هناك مَن يعيش في هذه المدينة المقدّسة ويستطيع الاستناد إلى صلة القربى الوطيدة مع الرسول ﷺ، وكان له مكانة مرموقة عند هيجان المشاعر في العراق، الذي يميل أكثر أهله إلى شيعة عليّ عليه السلام.

بعد مرور أربع سنوات على سجنه، مات الإمام موسى الكاظم في بغداد سنة ١٨٣ هـ/ ٧٩٩م، وقد اختلفت الروايات حول ظروف موته، فمنها ما ذكر بأنّه قضى في سجن الرشيد، وعندما توفّي، أحضر الخليفة القوّاد والكتّاب والهاشميّين والقضاة ومن حضر ببغداد من الطالبيّين، ثمّ أمر بالكشف عن وجه الإمام، وقال السجّان للحاضرين: أتعرفون هذا؟ ـ قالوا: نعرفه حقّ معرفة، هذا موسى بن جعفر. ـ فقال السجّان: أترون أنّ به أثرًا وما يدلّ على اغتيال؟ ـ قالوا: لا! ـ ثمّ غُسل وكُفّن وأُخرج ودُفن في مقابر قريش في الجانب الغربيّ. بيد أنّ رواية أخرى منقولة عن عبد الله بن مالك الخزاعيّ الذي كان على شرطة الرشيد، تقول بأنّ الخليفة قد استدعى ليلاً رئيس شرطته على جناح السرعة، وعندما دخل هذا إليه، وجده جالسًا على فراشه مغمومًا. وبعد سكوت دام حوالى الساعة، كلّم الخليفة رئيس شرطته، فأخبره عن أنّه رأى في منامه حبشيًّا قد أتاه ومعه حربة، فقال له: "إن لم تُخَلِّ عن موسى بن جعفر الساعة، نحرتك بهذه الحربة". وأمر الخليفة رئيس شرطته بأن يذهب ويطلق سراح حفيد الحسين، وبأن يعطيه ثلاثين ألف درهم وأن يقول له: "إن أحببت المقام فلك عندي ما تحب، وإن أحببت المضيّ إلى المدينة فالإذن في ذلك إليك". ويروي الخزاعي أنّه ذهب إلى السجن، وأبلغ إلى موسى بما أمره الخليفة، وقال له: "لقد رأيت من أمرك عجبًا"! فكان

من الإمام الشيعيّ أن أخبر الخزاعيّ بأنّه إذ "كان نائمًا، أتاه النبيّ ﷺ فقال: يا موسى، حُبست مظلومًا فقل هذه الكلمات فإنّك لا تبيت هذه الليلة في الحبس. فقال الكاظم: "بأبي وأمّي ما أقول؟" فقال: "قل يا سامع كلّ صوت، ويا سابق الفوت، ويا كاسي العظام لحمًا ومنشرها بعد الموت، أسألك بأسمائك الحسنى وبإسمك الأعظم الأكبر المخزون المكنون الذي لم يطّلع عليه أحد من المخلوقين، يا حليمًا ذا أناة لا يُقوى على أناته، يا ذا المعروف الذي لا ينقطع أبدًا، ولا يُحصى عددًا، فرّج عني". فكان ما ترى. وتذكر هذه الرواية أنّ الإمام موسى الكاظم قد توفّي بعد ذلك، وتحديدًا سنة ١٨٦ هـ / ٨٠١م في بغداد مسمومًا. غير أنّ المعتَمد في سلسلة الأئمّة الإثني عشريّة أنّ الإمام الكاظم قد قبض سنة ١٨٣ هـ/ ٧٩٩م، وقد خلفه في الإمامة، ابنه البكر، عليّ الرّضا. بيد أنّ جماعة قد زعمت أنّ موسى بن جعفر لم يمت، وأنّه حيّ ولا يموت حتّى يملك شرق الأرض وغربها، ويملأها كلّها عدلاً كما ملئت جورًا، وأنه القائم المهديّ. وزعموا أنّه خرج من الحبس ولم يره أحد نهارًا، ولم يعلموا به، وأنّ الرشيد وأصحابه قد ادّعوا موته وموّهوا على الناس؛ وقال بعضهم: إنّه القائم، وقد مات، ولا تكون الإمامة لغيره، حتّى يرجع. وقالت فرق من غير ذلك، ولكنّ جميع هذه الفرق الموسويّة لم تتجاوز إمامة موسى الكاظم[1].

---

١ ـ إبن الأثير، الكامل؛ المسعودي، مروج الذهب؛ اليعقوبي؛ مغنيّة الشيخ محمّد جواد، دول الشيعة في التاريخ.

المَوْلَوِيَّة

طريقة صوفيّة تُنسب إلى الشاعر الصوفيّ جلال الدين محمّد بن محمّد حسين الخطيبي البكري البلخي المعروف بالروميّ (١٢٠٧ ـ ١٢٠٧٣)، وسُمّيت بالمولويّة لاشتهار صاحبها بلقب مولانا جلال الدين.

كان جمال الدين أكبر شعراء الصوفيّة الإيرانيّين. تعلّم على أبيه الملقّب ببهاء الدين، وكان من كبار مشايخ الصوفيّة وخليفة الشيخ نجم الدين كبرى. رحل إلى بلاد كثيرة طالبًا العلم وناشرًا تعاليمه.

كان اهتمام جلال الدين منصبًّا على التدريس والوعظ، وحينما قارب الأربعين تغيّر منهجه في الحياة وأسلوبه في الإبداع الفنّيّ وذلك بعد اتّصاله بصوفيّ متجوّل هو شمس الدين التبريزي الذي التقاه في قونية، فأصبح أستاذه ومرشده الصوفي وتغيّر من فقيه واعظ إلى صوفيّ شاعر فنّان، فقد كان للتبريزي أثر قويّ في حياة جلال الدين الروحيّة ومذهبه الصوفيّ حتّى سمّى ديوانه باسم أستاذه : "ديوان شمس تبريزي". أمّا ديوانه الكبير "المثنوي" فيعدّ أعظم آثار جلال الدين وأهمّ كتاب في التصوّف الإيراني، ويضمّ ستّة وعشرين ألف بيت من بحر الرمل، وله أيضًا كتاب منثور يسمّى "فيه ما فيه". وقد ترجمت أشعاره إلى لغات مختلفة. وهو يعتبر من أعظم شعراء الحبّ الإلهي في التصوّف الإيراني. والحب عنده "دواء كبريائنا وفتنتنا بأنفسنا، وطبيب ضعفنا ومخلّصنا في أثرتنا" و"العوالم الظاهرة صورة يتجلّى فيها الله، ووجودها وهميّ، ووجود الله هو الوجود الحقيقيّ... وكلّ ذرّة في العالم مظهر لصفة الله، والإنسان هو المظهر الجامع لكلّ الصفات الإلهيّة".

له مريدون وأتباع كثيرون بإيران والهند وآسيا الصغرى. وكان أتباعه في الغالب من أرباب الصنائع والمجرمين الذين أعلنوا توبتهم وتفرّغوا للعبادة والذكر.

تتلخّص أصول هذه الطريقة في السماع والذكر واتّباع مناهج "الملامتيه"[1].

النِّزَارِيَّة

النّزاريّة فرقة إسماعيليّة أساسها مَن أيّدوا نزار، الإبن الأكبر للخليفة الفاطميّ المستنصر بالله الذي توفّي سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٢م، خلفه ابنه أبو القاسم أحمد وتلقّب بالمستعلي بالله، خلافًا لِما كان عَهد به المستنصر بالخلافة لابنه نزار، لأنّ وزير الدولة وقائد جيوشها: الأفضل بن بدر الجماليّ الملقّب بأبي القاسم شاهنشاه، الذي استوزره المستنصر بضغط من الجيش، كان قد أصبح الآمر والناهي في الدولة، فاستبعد نزارًا، وقرّر الخلافة لأحمد المستعلي، الذي مات سنة ٤٩٥ هـ / ١١٠١م، فجاء الأفضل بابن المستعلي: أبي علي المنصور، ولقّبه بالآمر بأحكام الله، وبايع له بالخلافة. وبما أنّ الآمر كان له من العمر خمس سنوات، أصبح الآمر الحقيقيّ في الخلافة: الأفضل. وكانت الخلافة الفاطميّة قد أضحت في حال من الوهن، بسبب الفتن الداخليّة التي أدّت إلى تنازع المستعلي مع أخيه نزار على المُلك، فدارت بينهما حروب دامية أدّت إلى مقتل نزار وإلى انشقاقٍ داخل الخلافة[2]. وكان نزار لمّا رفض مبايعة أخيه أسرع إلى الإسكندريّة حيث أعلنه واليها ناصر الدين أفتكين وأهلها خليفة

---

١ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، ٢: ١٢٣١؛ وهبة غسّان، جريدة "الديار" اللبنانيّة، عدد ٢٥ حزيران (يونيو) ١٩٩٩، ص١٢.

٢ ـ راجع: الجزء العشرين من هذه الموسوعة.

باسم المصطفى لدين الله، ووقعت حروب بين نزار والأفضل وقتل نزار في الإسكندريّة سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م، وقيل إنّ أولاده قُتلوا معه.

إلاّ أنّ المصادر الإسماعيليّة النزاريّة تذكر أنّ نزار استطاع أن يغادر الإسكندريّة سرًّا مع أهل بيته واتّجه إلى بلاد فارس حيث استقرّ في جبال طالقان بين رجال دعوته، وعمل مع الحسن بن الصبّاح على تأسيس الدولة النزاريّة، وتوفّي سنة ٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م بعد أن أوصى بالإمامة لابنه عليّ[١].

وفي إحدى الروايات قيل إنّ الذي خلف نزار هو طفل تمّ تهريبه من مصر إلى بلاد فارس.

وورد في رواية أخرى أنّ خليلة أحد أبناء نزار والتي كانت حاملاً وصلت إلى "ألموت" حيث وضعت هناك الإمام الجديد، واستنادًا إلى العقيدة النزاريّة بقيت هذه الأمور بالغة السريّة في ذلك الوقت ولم يُكشف عنها إلاّ بعد سنين طويلة[٢]. ثمّ استفحل أمر النزاريّة في حلب بشكل موسّع في عصر الملك رضوان بن تُتُش بن ألب أرسلان السلجوقيّ. وفي تلك الحقبة أرسل الحسن بن الصبّاح أحد الدعاة إلى الشام، فاستمال الملك رضوان إلى دعوتهم، وشاع مذهبهم في حلب. وفي سنة ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م، ذهب داعي النزاريّة الفارسيّ بهرام إلى الشام، حيث تسلّم مقاليد أُمور الإسماعيليّة، واستولى على ميناء بانياس، وتبعه عدد من الفلاحين، فاستطاع أن يقضي على كثير من معارضيه، ومنهم برق بن جندل، الذي قام أخوه يطالب بدمه والثأر له، فجمع

---

١ ـ إدّعى بعض النزاريين أنّ نزار لم يمت فعلاً وأنه متخفّ وسيعود بصفة المهديّ، أي بكلام آخر أنّ سلسلة الأئمة قد توقّفت معه، غير أنّ هذه الفرقة لم تعمّر طويلاً.

٢ ـ لويس برنار، فرقة الحشاشين، ترجمة المقدّم الياس فرحات، مرجع سابق، ص٦٦ ـ ٦٧.

جيشًا، نازلا جيش بهرام، فكانت النتيجة أن قتل بهرام، الذي جاء بعده الداعي إسماعيل العجميّ، غير أنّ هذا الأخير عندما وجد نفسه عاجزًا عن المحافظة على ميناء بانياس، سلّمه إلى الصليبيّين الإفرنج. وباقي أخبار النزاريّة تجدها في باب "الحشّاشون"[١].

النَّقشَبَنديَّة

طريقة دراويش صوفيّة أسّسها محمّد بن محمّد بهاء الدين البخاري (١٣١٧ ـ ١٣٨٩م) الشهير بنقشبند[٢] في فارس، وهو صوفيّ من الكبار، أصله من بخارى وفيها قبره وعليه قبّة عظيمة بناها أتباعه الذين لا زالوا يزورون ضريحه، له "الأوراد البهائيّة"، و"سلك الأنوار وهدية السالكين". تمتاز النقشبنديّة بطريقة خاصّة في الذكر. ولها فروع اليوم في الصين وتركستان وقازان وتركيا والهند وبلاد الشام.

تعلّم النقشبندي العلوم الدينيّة على الشيخ السماسيّ ثمّ على الأمير كلال، وكان يتنقّل بين علماء الشريعة وحملة السنّة النبويّة الشريفة، ثمّ قضى عمره منقطعًا لتربية مريديه على منهج السنّة المحمّديّة، فتخرّج على يدَيه عشرات الآلاف من المريدين.

إعتبر باحثون التصوّف النقشبنديّ معتدل لما امتاز به من استقامة في السلوك ومن اتّباع للشريعة ومن يسر في الطريقة، وهذا ما جعله يشيع وينتشر بين علماء الدين. وأهمّ ما يلفت النظر فيها هو السكون والبعد عن الصراخ، وترك الاعتماد على الترانيم

---

١ ـ راجع: "الحشّاشون" في هذا الكتاب.

٢ ـ نقشبند: كلمة فارسيّة معناها "النقّاش"، أي كأنّه ينحت في قلوب مريديه.

والسماع الذي لا يخلو من الرياء. وهي تحرص على ترسيخ عقيدة أهل السنّة والجماعة[1].

وهو من أتباع مدرسة ابن تيميّة، وتلميذه ابن القيّم. جاء بعقائد جديدة في شبه الجزيرة العربيّة[2].

---

١ ـ الكناني بدر الدين، المنهل الرويّ في مختصر علوم الحديث النبويّ؛ النقشبندي الشيخ أمين علاء الدين، ما هي الطريقة النقشبنديّة؛ منجد الأعلام؛ الموسوعة العربيّة الميسّرة؛ كفتارو أحمد، موسوعة الأديان الميسّرة.

٢ ـ التستري (الشوشتري) السيّد عبد اللّطيف، تحفة العالم، (١٢١٦هـ).

اليَزيدِيّة

قوام اليزيديّين حوالى ٢٠٠ ألف نسمة ينتشر أكثر من ثلثهم على ضفّتَي نهر دجلة في العراق في إقليمَي سنجار وشيخان بلواء الموصل حيث مساكن اليزيديّين ومحال إقامتهم ومعابدهم المقدّسة عندهم ودار "الإمارة اليزيديّة" في قرية "باعذار"، وفي القرى النائية في قضاءَي دهوك وزاخو. وهناك قسم منهم في شمالي سوريا في منطقة حلب حول كلّس وعينتاب ومنطقة ديار بكر وماردين وسواها، ومنهم قرابة ٦٠ ألفًا في أرمينيا والباقي موزّع في مناطق أخرى في تركيا وسواها.

بينما نرى جماعة من كبار الباحثين المسلمين ينسبون اليزيديّة إلى يزيد بن معاوية الأموي، نجد إلى جانبهم جماعة من كبار المستشرقين الأجانب يُرجعونهم إلى دين آريّ، ويرون أنّ كلمة "يزيديّة" مشتقّة من الكلمة الفارسيّة، أو الكرديّة: "يزدان"، التي تعني اللّه. ويقول فريق ثالث بأنّ كلمة "يزيديّة" مأخوذة من لفظة "يزيد" البلد الفارسيّ المشهور. وينسبهم فريقٌ آخر إلى "يزيد بن أنيسة الخارجي".

أمّا ما يُقرّ ويصرّح به اليزيديّون المعاصرون، فهو إعادة الأصل في طائفتهم إلى يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي.

ومن الإجراءات على هذا الصعيد أنّ الحكومة العراقيّة قد أقرّت بحقوق اليزيديّين في أواسط القرن العشرين، وفتح أحد زعماء اليزيديّة الأمير بايزيد إسماعيل بك غول مكتبًا في بغداد أطلق عليه اسم "المكتب الأمويّ". وفي بيان صادر عن هذا المكتب في ٧ آذار (مارس) ١٩٦٩، قال الأمير بايزيد: "إنّ المكتب يتقبّل كلّ الاستفسارات عن الأمويّين، والإجابة عنها بكلّ صراحة للتعريف بحقيقتهم بعد أن شوّهت".

يرى أكثر الباحثين المحدثين أنّ أصل اليزيديّة هو "الشيخ عديّ بن مسافر" المولود في قرية خربة قنافار في البقاع اللبناني سنة ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م، كان أحد أتباع سلالة الخلفاء المروانيّين الأمويّين، انتقل بعدها إلى "الهكاريّة" من أعمال الموصل في العراق، وعاش هناك بين الأكراد. وقد عاش ومات ودُفن في "ليلش" التي تعدّ مكان القداسة الأولى عند اليزيديّين، وإليه يحجّون.

كان الشيخ عدي صوفيًّا معتدلاً ولا خلاف على تقواه، وتعاقبت مسؤوليّة طريقته التي كانت تُعرف بـ"العدويّة" في أبناء شقيقه، لأنّه مات عازبًا، حتّى كانت حالة الانحراف وتأسيس اليزيديّة على يد حسن بن عدي بن أبي البركات بن صخر بن مسافر. وإنّما سُمّوا باليزيديّة، لأنّهم كانوا يعتقدون بصلاح يزيد بن معاوية اعتقادًا تجاوز الحدّ حتّى قالوا فيه إلهًا. وبعدها تواصل منهج الغلوّ والانحراف. فاليزيديّة الذين ينتمون إلى الشيخ عدي يرجع بعضهم إلى أصل مجوسيّ، وبعد أن أسلموا على يده أخذوا يعتقدون لا بإمامة يزيد بل بألوهيّته، وأضافوا إليه آلهة آخرين وعكفوا على عبادتهم[١]. أمّا البعض الآخر المسمّى "ترهايا" أي "التراهية"، فهم من الأكراد، كانوا مسلمين في زمن شرف الدين أبو المفاخر عدي، وبداخل اعتقادهم الحلول، ثم كانوا على جميل الاعتقاد في زمن ابن خلّكان لشهادته... وأخيرًا ارتدّ التراهية إلى دينهم القديم، دين الثانويّة ذي المبدأين، أو إلى بدعة منه، ومزجوا بذلك أقوالاً شوّهتها فأبعدتها عن اليهوديّة والنصرانيّة والإسلام، مع تعظيم لعدي بن مسافر وغيره، تعظيمًا لا يليق بمخلوق، ويضاف إلى ذلك ما استنبطته قرائحهم من الأوهام والخيالات فتطوّرت ديانتهم طورًا بعد طور[٢]. فنسبوا إلى عدي بن مسافر كثيرًا من الخوارق

---

١ - الدملوجي صديق، اليزيدية (الموصل،١٩٤٩) ص١٦٣.

٢ - سركيس يعقوب، مباحث عراقية، (بغداد،١٩٤٧) ص٢٧٧.

حصلت له أثناء حمله، كتسليم الأولياء عليه وهو في بطن أمه، وجوابه بعد ولادته، وتكلّمه في أيام طفولته...

يقول اليزيديّون في التكوين: في البدء خلق اللّه تعالى درّة بيضاء من سرّه العزيز، وخلق طيرًا اسمه "أنغر" وجعل الدرّة فوق ظهره، وسكن فيها أربعين ألف عام، ثم بدأ في خلق الملائكة السبعة، فخلق في يوم الأحد الملك الأوّل "عزرائيل" وهو "طاووس ملك" رئيس الجميع؛ وفي يوم الأثنين خلق الملك "دردائيل" وهو الشيخ حسن؛ وفي يوم الثلاثاء خلق الملك "إسرافيل" وهو الشيخ شمس الدين؛ وفي يوم الأربعاء خلق "ملك ميكائيل" وهو الشيخ أبو بكر؛ وفي يوم الخميس خلق "ملك جبرائيل" وهو سجادين؛ وفي يوم الجمعة خلق "ملك شمنائيل" وهو ناصر الدين؛ وفي يوم السبت خلق الملك السابع "نورائيل" وهو فخر الدين؛ ثم خلق صورة للسماوات السبع، والأرضين السبع، وخلق الفكر الذي صوّر به الانسان والطيور، والوحوش. وكان الرب، في هذه المدة، في الدرّة فخرج منها في اليوم السابع تحيط به ملائكته بين التهليل والتسبيح، فتولّى تكوين السماوات والأرض، أولئك الملائكة الذين يعتقد اليزيديّون أنّهم أرواح من ذات اللّه، وأشباح من نوره، وأنّهم أزليّون يتعاقبون على وضع الشرائع وسنّ السّنن رأس كلّ ألف عام، حيث يهبطون على الأرض. وانفصلت الدرّة فصارت سبعة بروج، وانصبّ الماء منها فكان بحرًا خضمًّا، واستدارت الدنيا فكانت طافية على ذلك الماء، فمدّ الإله يده وعيّن جهاتها الأربع، وتناول من الدرّة قطعتَين وذرّات صغيرة فجعل إحداهما شمسًا والأخرى قمرًا، ونثر الذرّات نجومًا وزينة للسماء، وأنبت النبات والأشجار المثمرة في السهل وعلى الجبل، وخلق بعد ذلك فلكًا استوى على جبل "ليلش" النورانيّ فمكث فيه ثلاثين ألف عام. وشاء الرب أن يبدأ بالخليقة فأعلن للملائكة ذلك قائلاً: يا ملائكتي إنّي أخلق آدم وحوّاء وأجعل البشر منهما وسيكون سر آدم

وملّته على الأرض، ثم ملّة "طاووس ملك"، أو "الملّة اليزيديّة. وتجلى اللّه على جبل "ليلش" في الأرض المقدّسة وأمر جبرائيل بأن يجمع ذرّات من الأطراف الأربعة فخلق الربّ منها العناصر الأربعة وهي الماء، والهواء، والنار، والتراب، ونفخ فيها الروح فكان منها آدم، وأمر اللّه جبرائيل أن يدخله الفردوس، وأباح له أن يأكل كلّ ما شاء من أشجارها وثمارها، ما عدا شجرة الحنطة، فإنّه نهاه عنها. وبعد مئة سنة سأل "طاووس ملك" الإله قائلاً: كيف يكثر البشر من نسل آدم وأين نسله؟ فقال اللّه: لقد أودعت الأمر والتدبير إليك، فجاء "طاووس ملك" وسأل آدم قائلاً هل أكلتَ من شجرة الحنطة؟ قال لا لأن اللّه نهاني عنها، فقال له "كُلْ وسيكون لك ما هو أحسن من ذلك" فتناول آدم منها، فانتفخت بطنه، فأخرجه "طاووس ملك" من الجنّة وتركه وحيدًا، وعرج هو إلى السماء، فأصبح آدم حانقًا، إذ لم يكن له مخرج، وأخذ بالبكاء والعويل، فأمر اللّه جبرائيل فأرسل إليه طيرًا نَقَرَهُ بمنقاره، وفتح له مخرجًا في دبره، فاستراح آدم، وظل وحيدًا مئة عام فحزن وبكى، وتاب واستغفر، فأمر اللّه جبرائيل أن يهبط إلى الأرض فيخلق له حوّاء من قصيريه، فتخاصم آدم وحواء على الاختصاص بالنسل البشريّ، طالبًا كلّ منهما ألاّ يكون النسل مشاركة كبقيّة الحيوانات. واتّفق أخيرًا آدم وحواء على أن يضع كلّ منهما شهوته في جرّة ويسدّ فمها بختمه الخاص، وبعد أشهر تسعة فتحا الجرّتين فكان في جرّة آدم ولدان، ذكرًا وأنثى، وكان في جرّة حواء دود وحشرات، ومن الصبيّين تناسلت الذريّة اليزيديّة. وغذّا آدم طفليه بثديين خلقهما اللّه له، ومن ذلك الحين صار للرجل ثديان، ثم تصالح آدم وحوّاء وتعارفا فوق جبل عرفات، فأولدا البشر من جديد. فاليزيديّة من آدم وحده، والناس من آدم وحواء[1].

---

١ ـ الحسني السيد عبد الرزاق، اليزيديون: في حاضرهم وماضيهم، مطبعة العرفان (صيدا،١٩٥١) ص٢٦ ـ ٢٨.

وعند اليزيديّة طوفانان: الأوّل حدث من "عين سفني" قرية مشايخ اليزيديّة في قضاء الشيخان بلواء الموصل، وفيه سارت السفينة حتّى وصلت فوق جبل سنجار فاصطدمت بحجر ناتئ فانشقّت، فخرجت من الحجر حيّة وسدّت ثُقب السفينة حتّى استوت على جبل جودي، ولمّا كثر نسل الحيّة، بعد الطوفان، أخذها نوح وأحرقها بالنار، وذرّ رمادها في الهواء، فكانت منه البراغيث المعروفة. ثم جاء الطوفان الثاني بعد ذلك، لإغراق المعتدين على الأمّة اليزيديّة من الناس أجمعين، فأبُ اليزيديّة في الطوفان الأوّل هو نوح وحده، والناس من أولاد حام بن نوح، وأبوهم في الطوفان الثاني الملك الكريم السلام "ميوان" وقد أرسل اللّه الشيخ عدي من أرض الشام إلى جبل ليلش النورانيّ ليبشّر بالديانة اليزيديّة، ويهدي الناس إلى اعتناقها. ويعتقد اليزيديّون أنّه قد مضى على الطوفان حتّى الآن سبعة آلاف عام، وكان في كلّ ألف عام ينزل واحد من الآلهة السبعة ليصنع بعض المعجزات ثمّ يعود، وأنّه في الألف سنة الأخيرة نزل الإله عندهم مرارًا عديدة ثبّت خلالها الأولياء، ونظّم الشرائع والقوانين، وعيّن الأماكن المقدّسة، وكان يكلّمهم باللغة التركيّة[1].

و"الشيطان" يعني به اليزيدية "فكرة الشر" التي تمثّل في شكل طاووس، التي تجلّت في الأسطورة التالية:

إنّ ربّ العالمين غضب يومًا على "طاووس ملك" ونفاه من الجنّة، وهو اليوم خارجًا عنها، ولكن في آخر يوم الدين يتصالح معه ربّ العالمين؛ فيرجع إلى عِلِيّين، على ما كان عليه في بدء خلق الأرضين، ماشيًا في صراط الحقّ المبين، ومن حوله جماعة الملائكة والأولياء القدّيسين يعظّمون قدره، ويمتثلون أمره"[2].

---

١ ـ الحسني، اليزيديون، ص٢٨.

٢ ـ نقل هذه الأسطورة الأب انستاس الكرملي، في مجلة المشرق، ٢ ـ ١٥٢ ـ ١٨٩٩.

فالشيطان - في نظر اليزيديّة هو "طاووس ملك"، المنفيّ من الجنّة، والمذكور في كثير من الكتب المقدّسة، التي بحثت عن مبدأ الخليقة وآدم، لذلك يرمزون إليه بتمثال الطاووس. ويرى اليزيديّون اليوم أنّ الكون وُجد من قوّتين: قوّة الخير، وقوّة الشر، وأنّ قوة الخير، وهي اللّه، قد تغلّبت على قوّة الشرّ، وهي الشيطان، فطردته من سلطان الملكوت، على نحو ما يعتقد به الزرادشتيّون من وجود إلهَين: إله الخير، وهو هرمزد، وإله الشر، وهو آهرمان. وهنا يظهر الشيطان في نظر اليزيديّة بصورة ملاك ساقط قديم، أُعيد بعد سقوطه، وهو خالق الشرّ ومسبّبه، ولهذا يتحاشون عن ذكر اسمه، ويطبّقون عليه حكاية آدم والحيّة والطاووس، الواردة في التوراة، ويرون أنّه هو الطاووس الذي طُرد من الجنّة.

وتختلف العبادة التي يتقرّب بها اليزيديّة إلى هذا الملاك، عن تلك التي يتقرّبون بها إلى اللّه.

فعبادتهم للشيطان عبادة تضرّع وتعطّف وخشية، بخلاف عبادة اللّه، فإنّ عبادتهم له عبادة خضوع وشكر وامتنان.

وقد بلغ الخوف باليزيديّة من الشيطان درجة أنّهم تركوا عبادة إله الرحمة "مبرّئين أنفسهم من الخطأ في ذلك أنّ اللّه الذي لا حدّ لصلاحه، فإنّ محبّته للخلائق، لا تفعل بهم شرًّا، لأنّه صالح، أمّا الشيطان فهو منقاد طبعًا إلى عمل الشرّ، لأنّه مصدر الشرّ وأساسه، وعليه فالفطنة تقضي على مَن يريد سعادة الحياة أن يهمل عبادة اللّه الصالح بطبيعته، الذي لا يشاء عمل الشر، ويطلب ولاء الشيطان وحمايته تخلّصًا من أذاه[1]. وقد أصبحت كلمة شيطان عندهم احتقارًا وإذلالاً، ولذا فهم يتجنّبون النطق بلفظه أو

---

١ - صائغ القس سليمان، تاريخ الموصل (القاهرة، ١٩٢٣) ١: ٢٩٦.

بأيّة كلمة فيها حرف من حروفه... كما أنّهم يتجنّبون لفظة "اللعن" وما اشتقّ منها لهذا الغرض.

إختلف الكتّاب والباحثون في وصف الطائر الذي يسمّيه اليزيديّون "طاووس ملك" وتفنّنوا في تصويره، فظنّ معظم الغربيّين أنّه صورة الطائر المعروف بـ "الطاووس" ورسموه على تلك الهيأة. وصدرت في المؤلّفات العربيّة الأخيرة صورة ثانية للطاووس على هيأة بطّة، وهي أقرب إلى الحقيقة من الصورة الأولى، كما يقول اليزيديّون الذين شاهدوها[1].

وللمجرّة اعتقاد غريب عند اليزيديّة، فهم يتناقلون أسطورة خلاصتها أنّ ربّ العباد أقام ضيافة كبرى في السماء دعا إليها الشيخ عدي بن مسافر الأمويّ ومَن معه من المريدين، وكان هؤلاء يركبون الخيل؛ ولم يكن لدى الباري تعالى ما تأكله الخيل، فأمر الشيخ عدي أحد مريديه أن يهبط إلى الأرض ويأتي له من مزرعته بما يكفي الخيل من التبن ونحوه فلمّا عاد المريد إلى السماء ثانية، تناثر التبن على الطريق، وبقي أثره إلى الأوان ظاهرًا جليًا فسُمّي هذا الأثر "درب التبّان"[2].

وهم يؤمنون بالرجعة والمهديّة، ويعتقدون بأنّ مهديهم المنتظر وهو شرف الدين، سيظهر قريبًا ويلتقط ما ادّخره له أصحابه من نقود ومكانها هو شقّ في جبل سنجار، ويستعين بها على تطهير الأرض من الرجس والفساد. ويتوجّه كلّ يزيديّ متديّن عند شروق الشمس وعند غروبها باتّجاه مطلعها وغروبها ويلثم الأرض معفّرًا جبهته بالتراب، وهو يردّد أدعية من كتابهم، أو من أدعية يتناقلونها ولغتها مزيج من العربيّة

١ ـ الحسني، اليزيديون، ص٣٠.

٢ ـ الحسني، اليزيديون، ص٣١.

والكرديّة، وأحينًا الفارسيّة. والصيام عندهم له مواقيت وأيّام مختلفة عن المسلمين، وعندهم حسب فئاتهم وتديّنهم ولكنّه يشبه صوم المسلمين لجهة الإمساك عن الطعام والشراب طوال النهار، والصوم عندهم يلزمه أن يزور الصائم صباحًا شيخه ومرشده، وكذلك عند الإفطار. والحجّ عندهم هو إلى "اليلش"، حيث هي كعبتهم، وفيها نبع ماء يعدّونه كنبع زمزم في مكّة المكرّمة[1].

يقول باحثون[2] إنّ لليزيدية رئيسان كبيران: أحدهما زمني يعتقدون بحلول جزء إلهي فيه، فلا يخالفون له أمرًا، ولا ينكرون عليه حقًّا، حتّى إنّ ما يستحسنه يصير فرضًا واجبًا على كلّ فرد من أفرادهم، والآخر روحيّ يمثّل السلطة الدينيّة فيحدّد أصولها وفروعها، وآدابها وسننها، بالمشاورة والمفاهمة مع الرئيس الزمنيّ. ويقولون إنّ رئيسهم الزمنيّ يرتقي بنسبه إلى يزيد بن معاوية، الذي تنتمي الطائفة إليه وتسمى باسمه، ويدعونه مير شيخان "أي أمير الشيخان" أما الثاني فلا بد أن يكون من سلالة شيخي فخرا "أي الشيخ فخر الدين" ويسمّونه "بابا شيخ".

ويرى هؤلاء الباحثون أنّ الرؤساء الزمنيّون قد استغلّوا السلطات التي زوّدتهم الشريعة اليزيديّة بها، كالقول بعصمتهم، وعدم جواز الاعتداء على أوامرهم، أو النيل من كرامتهم، أو مخالطة المغضوب عليه من قبلهم، وبالتالي منحهم حق القضاء المطلق على أفرادهم... وكونهم لا يخطئون فيما يصدرونه من أوامر وأحكام، فحرّموا على أفراد الطائفة تعلّم القراءة والكتابة ليبقوهم في ضلال يعمهون، ويجعلوهم يكدّون ويشقون لإسعاد رؤسائهم، وتأمين الغذاء والكساء وسائر ملذّات الحياة لهم. فلو كانت

---

١ ـ السحمراني أسعد، موسوعة الأديان الميسّرة، ص٥٠٠ ـ ٥٠١.

٢ ـ الحسني، اليزيديون في حاضرهم وماضيهم، ص١٠٢.

القراءة قد أبيحت للطائفة من قبلهم، لاطّلع أفرادها على تطوّرات الفكر البشريّ، ولأدركوا سرّ جهالتهم وعلّة بقائهم في ما هم فيه من جمود وخمول، ولأضحوا عناصر مفيدة في المجموعة البشريّة لهم ما لسائر أفراد البشر من حقوق، وعليهم ما على هؤلاء من واجبات.

والظاهر أن الحكومات التي تعاقبت على حكم القرى اليزيديّة، ولاسيّما في العراق، استساغت الإبقاء على هذه الحالة لعدم استكنانها فوائد التهذيب والتعليم وتأثيرهما في قلع جذور الجهالة من نفوس القوم، فإنّها لو فعلت ذلك لما تكبّدت المتاعب والخسائر في سبيل حمل هذه الطائفة على إطاعة النظام واحترام نظم الحكومة وأوامرها بين الحين والحين.

ويقول الباحث: في اعتقادنا أنّه لا يزال في الوقت متسع لخدمة اليزيديّة والاستفادة منهم في المجموعة البشرية، وذلك ببثّ روح العلوم والمعارف بين ظهرانيهم، وحمل الرؤساء والمتنفّذين منهم على إرسال أولادهم وبناتهم إلى المدارس للارتشاف من مناهل العرفان والمعرفة، ممّا سيؤدّي حتمًا إلى زوال الجهالة التي لصقت بأبصارهم، والضلالة التي لازمت قلوبهم.

NOBILIS
بيروت